جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

بنـــــاء
الشخصية الوطنية

إشراف وتقديم

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد :

فمما لا شك فيه أن حب الوطن والحفاظ عليه فطرة إنسانية أكدها الشرع الحنيف، فهذا نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول مخاطبًا مكة المكرمة قائلاً : "والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ الله ، وَأَحَبُّ أَرْضِ الله إلى الله ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ؛ ما خَرَجْتُ"، ولما هاجر (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة واتخذها وطنًا له ولأصحابه الكرام لم ينس (صلى الله عليه وسلم) لا وطنه الذي نشأ فيه ولا وطنه الذي استقر فيه ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (اللهمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا ، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ) ، وعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ الله عَنْهُ) " أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ المَدِينَةِ ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا" ، وظل (صلى الله عليه وسلم) يقلب وجهه في السماء رجاء أن يحول الله (عز وجل) قبلته تجاه بيته الحرام بمكة حتى استجاب له ربه ، فقال سبحانه:{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ

وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ }، فأكرمه (صلى الله عليه وسلم) بالتوجه إلى بيت الله الحرام ، حيث أول بيت وضع للناس ، وحيث نشأ (صلى الله عليه وسلم) في كنف هذا البيت وتعلق به عقله وقلبه .

وقد قال الحافظ الذهبي مُعَدِّدًا طائفةً من محبوبات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " وكان يحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أَبَاهَا ، ويحبُّ أسامةَ ، ويحب سبطَيْه ، ويحب الحلواء والعسل، ويحب جبل أُحُدٍ ، ويحب وطنه"، وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ الأصمعي: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وتشوُّقه إلى أهله ، وبكائه على ما مضى من زمانه.

وفي السياق والمناخ الفكري الصحي لا يحتاج الثابت الراسخ إلى دليل ، لكن اختطاف الجماعات المتطرفة للخطاب الديني واحتكارها له ولتفسيراته جعل ما هو في حكم المسلمات محتاجًا إلى التدليل والتأصيل ، وكأنه لم يكن أصلاً ثابتًا ، فمشروعية الدولة الوطنية أمر غير قابل للجدل أو التشكيك ، بل هو أصل راسخ لا غنى عنه في واقعنا المعاصر .

وقد قرر الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هذا البلد رجالهم ونسائهم ، كبيرهم

وصغيرهم ، قويهم وضعيفهم ، مسلحهم وأعزلهم ، كل وفق استطاعته ومُكنته ، حتى لو فنوا جميعًا ، ولو لم يكن الدفاع عن الديار مقصدًا من أهم مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان وأن ينجوا بأنفسهم وبدينهم .

على أن المواطنة الحقيقية تعني حسن الولاء والانتماء للوطن ، والحرص على أمن الدولة الوطنية ، واستقرارها ، وتقدمها ، ونهضتها ، ورقيها ، كما تعني الالتزام الكامل بالحقوق والواجبات المتكافئة بين أبناء الوطن جميعًا ، دون أي تفرقة على أساس الدين أو اللون أو العرق أو الجنس أو اللغة ، غير أن تلك الجماعات الضالة المارقة المتطرفة المتاجرة بالدين لا تؤمن بوطن ولا بدولة وطنية ، فأكثر تلك الجماعات إما أنها لا تؤمن بالدولة الوطنية أصلاً من الأساس ، أو أن ولاءها التنظيمي الأيديولوجي فوق كل الولاءات الأخرى وطنية وغير وطنية ، فالفضاء التنظيمي لدى هذه الجماعات أرحب وأوسع بكثير من الدولة الوطنية والفضاء الوطني .

ونستطيع أن نؤكد وباطمئنان على أمور ، أهمها :

أولاً : أن مصالح الأوطان لا تنفك عن مقاصد الأديان ، وأن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها ، أو تدمير بناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا .

ثانيا : أنه حيث تكون المصلحة ، ويكون البناء والتعمير ، فثم شرع الله وصحيح الإسلام، وحيث يكون الهدم والتخريب والدمار فثمة عمل الشيطان وجماعات الفتنة والدمار والخراب .

ثالثا : أن كثيرًا من المشكلات العصرية وحالات الشقاق التي تصل إلى حد الاحتراب والاقتتال المجتمعي أو الدولي أحيانًا ، يمكن أن يُحلَّ الكثير منها بإقرار مبدأ المواطنة المتكافئة ، وترسيخ فقه المواطنة بديلًا لفقه الأقلية والأكثرية ، فمصطلح الأقلية والأكثرية يشعرك ابتداءً بأن هناك فريقين ، أحدهما قوي والآخر ضعيف ، ولو بالمقياس العددي ، أما مبدأ المواطنة المتكافئة فتذوب فيه العصبيات الدينية والعرقية والطائفية والمذهبية والقبلية، وسائر العصبيات الخاطئة المدمرة .

رابعا : أن أكثر الدول إيمانًا بمبدأ المواطنة وحرصًا على تطبيقه وأكثرها إيمانًا بحق التنوع والاختلاف واعتباره إضافة وتراثًا ؛ هي أكثر الدول أمنًا وأمانًا واستقرارًا وتقدمًا وازدهارًا ، كما أن جميع الدول التي وقعت في فخ الاحتراب والاقتتال الطائفي أو العرقي أو المذهبي أو القبلي عصفت بها المحن ، فسقطت وتمزقت وهوت وتشـرد أبناؤها وعانوا الأمرين ، ولَم تقم لها ولا لهم قائمة .

خامسا : أن العلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون ، فالدولة الرشيدة صمام أمان للتدين الرشيد ، وإن تدينًا رشيدًا صحيحًا واعيًا

وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة ، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح ، على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شديد بين التدين والتطرف ، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح ، إلى الرحمة ، إلى الصدق ، إلى مكارم الأخلاق ، إلى التعايش السلمي مع الذات والآخر ، وهو ما ندعمه جميعًا ، أما التطرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفساد ، والتخريب والدمار ، والهدم واستباحة الدماء والأموال ، فهو الداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا ، وأن نقف له بالمرصاد ، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

وفي هذه المعادلة غير الصعبة يجب أن نفرق بين الدين الذي هو حق ، والفكر الإرهابي المنحرف الذي هو باطل ، موقنين أن الصراع بين الحق والباطل قائم ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، على أن النصر للحق طال الزمن أو قصر ، حيث يقول الحق سبحانه : { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} (الأنبياء : ١٨).

إننا لأصحاب قضية عادلة ، قضية دين ، وقضية وطن ، فكل ما يدعو للبناء والتعمير ، والعمل والإنتاج ، وسعادة الناس وتحقيق أمنهم واستقرارهم ، لهو الدين الحق والإنسانية الحقيقية والوطنية الصادقة ، وكل

ما يدعو للفساد والإفساد ، والتخريب والقتل ، يدعو إلى ما يخالف الأديان وسائر القيم النبيلة والفطرة الإنسانية القويمة.

الدين والدولة لا يتناقضان ، الدين والدولة يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات ، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين ، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا ، الأديان رحمة ، الأديان سماحة ، الأديان إنسانية ، الأديان عطاء.

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي ، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج ، والتميز والإتقان ، ويطاردان البطالة والكسل، والإرهاب والإهمال ، والفساد والإفساد ، والتدمير والتخريب ، وإثارة القلاقل والفتن ، والعمالة والخيانة.

ونؤكد أن من يتوهمون صراعًا لا يجب أن يكون بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتَّما إما أنهم لا يفهمون الأديان فهمًا صحيحًا ، أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًّا ، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة ، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعتهما معًا.

كما نؤكد على ضرورة احترام دستور الدولة وقوانينها ، وإعلاء دولة القانون ، وألا تنشأ في الدول سلطات موازية لسلطة الدولة أيا كان مصدر

هذه السلطات ، فهو لواء واحد تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى ، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواءً موازيًا للواء الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه لا أمر الدين ولا أمر الدولة.

سادسًا : أن الوطنية الحقيقية ليست مجرد شعارات ترفع أو عبارات تردد ، الوطنية إيمان وسلوك وعطاء ، الوطنية نظام حياة وإحساس بنبض الوطن وبالتحديات التي تواجهه ، والتألم لآلامه ، والفرح بتحقيق آماله ، والاستعداد الدائم للتضحية من أجله.

الوطني الحق لا يكذب وطنه ، ولا يخون أهله ، ولا يغشهم ، ولا يخدعهم ، ولا يتآمر عليهم ، ولا يبيع قضاياهم بأي ثمن ثمين أو بخس ، الوطني الحق كالمثقف الحق لا يباع ولا يشترى بالدنيا وما فيها.

الشخصية الوطنية هي التي على استعداد لأن تحترق لتنير دروب الوطن ، ولأن تفتديه بنفسها وما تملك ، وتعرف للوطن حقه وقدره ، وتدرك أنها بلا وطن كالسمك بلا ماء ، وكالطائر بلا هواء ، وقد تغنى الشعراء كثيرًا بحب الوطن وعبروا عن آماله وآلامه وشعورهم تجاهه وحنينهم إليه ، نذكر من ذلك قول شوقي :

بِلادٌ ماتَ فِتيَتُها لِتَحيا وَزالوا دونَ قَومِهِمُ لِيَبقَوا
وَقَفتُمْ بَينَ مَوتٍ أَو حَياةٍ فَإِن رُمتُمْ نَعيمَ الدَهرِ فَاشْقَوا
وَلِلأَوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ يَدٌ سَلَفَت وَدَينٌ مُستَحِقُّ

وَمَن يَسقى وَيَشــرَبُ بِالمَنــايا إِذا الأَحرارُ لَم يُسقــوا وَيَســقــوا
وَلا يَبــني المَمــالِكَ كَالضَحايا وَلا يُدني الحُقــــوقَ وَلا يُحِــقُّ
وَلِلحُــرِّيَّــةِ الحَمــراءِ بــــابٌ بِكُــلِّ يَــدٍ مُضَــرَّجَــةٍ يُــدَقُّ

وقوله أيضًا :

لنــا وطــنٌ بأَنفسِــــــنا نَقــيه وبالدُّنيا العريضــةِ نَفتــديه
إذا مــا سيــلَتِ الأرواحُ فــيه بذلناها كــأنْ لــم نـعطِ شيًّا
نقــومُ علــى البنــايةِ محسنينا ونعهَـدُ بالتَّمــامِ إلــى بنيــنا
إليْكِ نَموتُ ـ مِصْرُ ـ كما حَيينــا ويبقى وجهــكِ المــفديُّ حيًّــا

* وقول أحمد محرم:

من يُسعــدُ الأوطـانَ غيــرَ بَنِيهَا ويُنيلُـها الآمــالَ غَيــر ذَوِيــها
ليس الكريمُ بمن يَـرى أوطــانَــه نهــب العــوادي ثم لا يحمــيها
ترجـو بنجدتــه انقضــاء شقائها وهــو الـذي بقعــوده يشقيــها
وَتَـوُد جَاهــدةً بــه دَفْــع الأَذَى عن نفســها وهــو الــذي يُؤْذيِها
وَلَقَلَّمــا أَرضـىَ امــرؤٌ أوطــانَه حَتَــى تَــرَاهُ بِنَفْسِهِ يَفْدِيهَــا

* وقول رشيد سليم الخوري:

بِنْــتَ العُرُوبَـةِ هَيِّئِــي كَفَنِـي أَنَا عَـائِدٌ لأَمُــوتَ فِــي وَطَنِــي

لهذا كله كان اختيارنا لقضية : "بناء الشخصية الوطنية وأثره في تقدم الدول والحفاظ على هويتها" موضوعًا لمؤتمرنا الدولي التاسع والعشرين

الذي نظمه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة في ١٣ - ١٤ جمادى الأولى ١٤٤٠هـ الموافقين ١٩ - ٢٠ يناير ٢٠١٩م.

ويسرنا أن نقدم في هذا الكتاب نخبة مختارة من أبحاث هذا المؤتمر ، قدمنا لها بتوصياته ، آملين أن يشكل هذا وذاك إضافة حقيقية في موضوع بناء الشخصية الوطنية.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

توصيات المؤتمر العام التاسع والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ووثيقة القاهرة للمواطنة وتجديد الخطاب الديني
يناير ٢٠١٩م

وتتضمن:

١- أهمية التفرقة الواضحة بين الثابت والمتغير ، فإنزال الثابت منزلة المتغير هدم للثوابت ، وإنزال المتغير منزلة الثابت عين الجمود والتحجر وطريق التخلف عن ركب الحضارة والتقدم.

٢- أهمية التفرقة الواضحة بين ما هو مقدس وما هو غير مقدس ، ورفع القداسة عن غير المقدس من الأشخاص والآراء البشرية والشروح المتعلقة بالأحكام الجزئية والفتاوى القابلة للتغير بتغير الزمان أو المكان أو أحوال الناس وأعرافهم وعاداتهم وواقع حياتهم مما لم يرد فيه نص قاطع ثبوتا ودلالة ، وقصر التقديس على الذات الإلهية وعلى كتاب الله (عز وجل) وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم).

٣- ضرورة الانتقال من مناهج الحفظ والتلقين إلى مناهج الفهم والتحليل والتأمل والتفكير بالتعمق في دراسة مفاتيح العلم وأدوات الاجتهاد والفهم بدراسة : علم أصول الفقه ، وقواعد الفقه الكلية ، وفقه المقاصد ، وفقه الأولويات ، وفقه الواقع ، للتعامل مع الجزئيات المستجدة والمستحدثة برؤية عصرية مستنيرة واعية.

٤- ضرورة العمل الجاد على تكوين إمام عصري مستنير من خلال برامج تدريب وتأهيل الأئمة والخطباء والواعظات ، بحيث لا تقف عند حدود التأهيل الشرعي واللغوي ، إنما تشمل إلى جانبهما أساسيات علم المنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع ومفاهيم الأمن القومي وحروب الجيل الخامس والتحديات المعاصرة ، وعلوم الحاسب ، ودراسة إحدى اللغات الأجنبية ، وفنون التواصل إعلاميا وتكنولوجيا وإلكترونيا، وفنون الدعوة والخطابة والتواصل المباشر.

٥- التأكيد على مشروعية الدولة الوطنية وترسيخ مفهوم المواطنة المتكافئة، وبيان أن مصالح الأوطان لا تنفك عن مقاصد الأديان.

٦- بيان أن حفظ الأوطان أحد أهم المقاصد المعتبرة شرعًا ، وينبغي أن يدرج في عداد المقاصد الكلية ، إذ لا يوجد وطني شريف لا يكون على استعداد لأن يفتدي وطنه بنفسه وماله ، وليس المفتدى بأقل رتبة أو عناية من المفتدى به ، ولا سيما أن الفقهاء يقرون أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هذا البلد رجالهم ونسائهم ، كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم ، مسلحهم وأعزلهم ، كل وفق استطاعته ومكنته ، حتى لو فنوا جميعًا ، ولو لم يكن الدفاع عن الديار والأوطان مقصدًا من أهم مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان وأن ينجوا بأنفسهم وبدينهم.

٧- تعزيز دور المؤسسات الوطنية في خدمة أوطانها ودعم جهودها في مختلف المجالات ، بما يحقق الأمن والاستقرار والتقدم والازدهار للوطن وأهله، والخير والسلام للإنسانية جمعاء.

٨- تعزيز مفاهيم الوحدة الوطنية ، تنظيرًا وتطبيقا وتحويلها إلى واقع وثقافة مجتمعية راسخة ، والتأكيد على احترام الآخر المختلف عقديًّا ، أو فكريًّا ، وعلى ترسيخ أسس العيش المشترك بين أبناء الوطن الواحد ، والعمل على نشر السلام العالمي بما يحقق صالح الإنسانية جمعاء.

٩- التركيز في مناهج التعليم على الجانب القيمي التطبيقي ، كقبول التعددية والتعايش السلمي والتفكير الناقد وثقافة الحوار ، وترسيخ ثقافة المشاركة المجتمعية وخدمة المجتمع.

١٠- تعزيز دور الأسرة في بناء الشخصية المتوازنة في فهم أمور الدين والدنيا، بما يؤدي إلى وجود أجيال قوية قادرة على حمل الأمانة ، والوفاء بحقوق الوطن عليهم.

١١- التأكيد على الدور الفاعل لوسائل الإعلام في مجال دعم قيم الانتماء والولاء للوطن ، والتصدي لكل محاولات الهدم والقوى المعادية التي تعمل على زعزعة أمن الوطن واستقراره.

١٢- أهمية تدريس مادة التربية الوطنية بأسلوب علمي عصري بما يحقق الربط القوي بين الناشئة وأوطانهم منذ نعومة أظافرهم.

١٣- اعتبار هذه التوصيات وثيقة عمل مشترك نحو ترسيخ الولاء والانتماء الوطني وبناء الشخصية الوطنية ، مع العمل المشترك لنشر الفكر الوسطي المستنير وبناء السلام العالمي لصالح الإنسانية جمعاء .

* * *

□

حفظ البلدان والأوطان
من حقوق الإنسان ومقاصد الأديان *

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، ومن اهتدى بهديه واتبع منهاج شرعه إلى يوم الدين ، وبعد ،،

فقد كانت قضية حماية الأوطان - ولا تزال - من أهم القضايا التي حظيت باهتمام واضح في مقاصد الأديان ، وقد برزت تلك الأهمية بصورة أوضح وأكبر في أيامنا هذه ، حيث أصبحت ظاهرة استغلال الأحكام الدينية للوصول إلى المآرب الذاتية أمرًا واضحًا لدى بعض الجماعات التي احترفت الاتجار بالدين، والمثابرة على ابتكار وسائل تحمل اسمه، وتُسْتَغل في الوصول لما يأربون له من تحصيل المكاسب السياسية عن طريق الوثوب على النظام والقانون والدولة ؛ ليقيموا أنفسهم حكامًا فيها، ليهدموها بالنيابة عن أعداء الدولة، حتى تضعف وتتمزق فلا تقوى على المقاومة أو تقدر على الصمود، ثم تقع - أخيرًا - في أيدى هؤلاء الذين يتربصون بها؛ قصدًا لتدميرها والاستيلاء على ما أودعه الله من خيرات فيها، ويكون أولئك المتاجرون بالدين هم أداة تحقيق ذلك بإثارة الفتن في البلاد وإحداث

---

* كتب هذا البحث: الأستاذ الدكتور/ عبد الله مبروك النجار الأستاذ المتفرغ بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية - مصر.

الوقيعة بين العباد، نظير الحصول على ما يعدهم به أولئك الذين جندوهم أو استأجروهم للقيام بتلك المهمة الوضيعة.

وما من شك في أن أحقر أساليب التجارة بالدين يتمثل في استغلال أحكامه أو تسخير مبادئه - التي ما قصد الشارع بها إلا تحقيق الخير والسعادة للبلاد والعباد في دنياهم وأخراهم ، وحفظ الكرامة الإنسانية، ومقومات الحياة الآدمية، ونشر الحب والتسامح والمودة والتعاون والعدل والمساواة بين الناس أجمعين - فتستغل تلك المبادئ السامية والأحكام الرشيدة في عكس ما شرعت له ؛ لتكون في فهم هؤلاء المتاجرين بالدين أداة للقتل، ووسيلة للقضاء على البلدان والإنسان، ونشر الخراب والدمار في كل مكان.

ومن أخطر الوسائل التي أساء أولئك الضالون الحديث فيها، سعيهم الدائب في تحقير شأن الأوطان والحديث عنها بأسلوب ساخر يهون من شأنها وينال من مكانتها في نظر أبنائها، حتى يقيموا عزلة بين المواطن والوطن، فلا تلبث تلك العزلة أن تتحول إلى عداء مستحكم وعداوة ثائرة لا تهدأ ولا تسكن إلا إذا تم تدمير هذا الوطن، وإلحاق كافة أنواع التعدي والأذى بأبنائه، من أبنائه الذين يحملون جنسيته، ويجهرون بالانتماء إليه.

وهم حين أعلنوا تلك الوسيلة لم يخفوا على الناس أمرها، ولم يستتروا في الحديث عنها، بل أعلنوها واضحة في كلامهم وترجموها إلى سلوك

واضح في تصرفاتهم ، وقد سمع الجميع من بعض كبرائهم كلامًا واضحًا يدل على التهوين من شأن الوطن وتحقيره ، كوصفه بأنه حفنة من تراب ، أو أنه لا ضرورة له ، فكل الدنيا وطن لمن آمن بفكرهم البليد .

كما جاء سلوكهم ترجمة لتلك العبارات الحقيرة، فهم لا يقفون كأبناء الوطن عند سماع السلام الوطني، ولا يقبلون أن يحيوا – كغيرهم – علم البلد الذي يضمهم، ويصب عليهم من خيراته ما لا يجدونه في غيره، أو يحلمون بوجوده في أرض سوى أرضه ، وما من شك في أن حفظ الأوطان يمثل حقًّا من حقوق الإنسان ؛ لأن الإنسان بلا وطن يفقد كافة مقومات حياته وكرامته ، ويعيش مشردًا بدون بيت يحتويه ، أو وطن يحميه ، ومن يعتدون على حرمة الوطن ، أو يستبيحون حرمته ، إنما يستهدفون – بالدرجة الأولى – الإنسان في أسمى حقوقه ، وصميم كرامته.

ومن المؤكد أن تلك الأقوال ، وهذه التصرفات أصبحت تشكل ظاهرة بالغة الخطر ، وتمثل تجاهلاً واضحًا لمبادئ الدين، وجهلاً مؤكدًا بمقاصد الأديان السماوية التي ما نزلت إلا لحفظ مصالح البلاد والعباد، ومن المؤكد – أيضًا – أن تلك الظاهرة تحتاج إلى رد ومقاومة، حتى لا يستمر الباطل الذي تدعو إليه رائجًا بين الناس، أو حاضرًا أمام من يمكن أن يقع فريسة له من الأبرياء، أو غيرهم من البسطاء الذين يعتقدون أن من يبدون تلك الأفكار الضالة على علم صحيح بالدين، أو تدين صادق لله رب العالمين.

توطئة
مفردات المقاصد الشرعية للأديان

خلاصة ما سطره الفقهاء والباحثون والكاتبون في حفظ مقاصد الشريعة والأديان لا يخرج عن عبارة تأتلف من أربع كلمات هي: (حفظ مصالح الأوطان والإنسان)، حيث إن تلك المصالح تعتبر هي الغايات التي تقصد الأحكام الشرعية إلى رعايتها والمحافظة عليها ، وقد يتغير منطوق هذه العبارة مثل: حفظ مصالح البلاد والعباد ، لكنها لا تخرج عن هذا المعنى الذي استخلصناه من مجمل ما كتب ودرس في هذا الموضوع ، بيد أن الصياغة التي اخترناها وهي: حفظ مصالح الأوطان والإنسان تعد هي أكثر الصياغات ملاءمة للفقه المعاصر، وأقواها تعبيرًا عن مستجدات العلاقات الدولية في هذه الأيام وما سوف يتطور إليه على المدى البعيد، حيث سيظل الوطن هو محور تلك العلاقات وهو ميدان أحكامها ومجال العمل بتلك الأحكام.

والصلة بين الأحكام الشرعية والمكان الذي تطبق فيه وثيقة، وأذكر أن تلك الصلة قد شغلتني كثيرًا في بدايات رحلتي العلمية بكلية الشريعة والقانون، وسألت أستاذنا الجليل الفقيه الشافعي فضيلة الشيخ جاد الرب رمضان وكان أستاذًا للدراسات العليا بالكلية ومعنيًّا بشرح كتاب الأشباه والنظائر للإمام السيوطي، وهو كتاب يتناول قواعد الفقه الكلية وتخريج

فروع الأحكام عليها، وقلت له: ما علاقة الأوطان بالأديان؟ وهل لفكرة الوطنية أساس في التشريع الإسلامي؟ فصمت الرجل قليلا؛ وبعد تفكير في السؤال قال: يا بنى إن الوطن من لوازم الحكم الشرعى- مرة ثانية قال: الوطن من لوازم الحكم الشرعى- فقلت له ما معنى هذه العبارة؟ وما المراد باللازم؟ قال: اللازم هو الأمر الضرورى الذي لا يمكن أن تنفذ أحكام الله التي كلف بها عباده في أصول الدين وفروعه إلا إذا وجد الوطن، وأحكام بلا أرض تنفذ عليها لا يمكن أن يكون لها وجود، ويكون إيراد التشريع نوعًا من الخيال الذي لا يجد أرضًا ينفذ عليها أو واقعًا يطبق فيه ، ولولا الوطن أو الأرض ما حفظ دين ولا دم ولا عرض، ولضاعت مصالح الإنسان، حيث لا مكان، وربما لهذا القصد الأسمى خلق الله السماوات والأرض قبل أن يسكنها الإنسان، وينزل إليها أبونا آدم عليه السلام؛ حتى يجد بيئة التكليف المتمثلة في المكان، وظروفه التي يمثلها الزمان، فيصادف فعله مكانًا ينفذ عليه وزمانًا يقع فيه، وكان لكل تكليف في العبادات والمعاملات وقتًا تقع المسئولية فيه على من يلتزم، ويثبت الحق فيه لمن يثبت له الحق، إضافة إلى الأرض التي تحوى تلك الحقوق والالتزامات، وينتظم بذلك بناء الشريعة وتمامها، ولتكون الدنيا وسيلة صالحة للآخرة وفقًا لما يرضاه الله ورسوله.

وقد ظهر أثر هذا المعنى في علوم اللغة ، فكان كل من الزمان والمكان ظرفًا يقع فيه الحدث ويتم فيه الفعل، حتى يدخل في باب المساءلة والجزاء.

وأود أن أشير إلى هذين المقصدين بشيء من التفصيل الذي يقتضيه المقام، وهما حفظ مصالح الأوطان ، وحفظ مصالح الإنسان ، وذلك في مبحثين ، ثم نبين وسائل حماية تلك المقاصد في مبحث ثالث.

* * *

المبحث الأول
حفظ مصالح الأوطان

تحدث القرآن الكريم عن الوطن في رخائه وشدته وضعفه وقوته، وصلاح أهله وفسادهم، لكنه قد عبَّر في الأغلب الأعم عن الوطن بمعنى (البلد)، وجاء التعبير عن الوطن بهذا اللفظ (البلد) ومشتقاته: إحدى وعشرين مرة، كما عبر عنه بالأرض مضافة إلى أصحابها، وكذلك الديار، وذلك كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى:﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾[4] .

بيد أن القرآن الكريم حينما عبر عن الوطن بالبلد ، كان تعبيره أكثر بلاغة في الدلالة على فكرة الوطنية ، وأدق في تصوير معناها؛ لأن البلد يفيد الالتصاق بالأرض ، يقال : أبلد ، أي لصق بالأرض[5]، والبلد والبلدة:

---

(١) الأحزاب: ٢٧.

(٢) طه: ٦٣.

(٣) طه: ٥٧.

(٤) القصص: ٥٧.

(٥) المعجم الوسيط، ١/ ٧٠.

المكان المحدد الذي يستوطنه أهله ، ويسمى المكان الواسع من الأرض بلدًا[1] ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾[2].

ولفظ الوطن يفيد هذا المعنى، يقال: وطن بالبلد: اتخذه محلاً وسكنًا يقيم فيه [3]، وربما لهذا المعنى الواضح فإن الله تعالى عندما خاطب الإنسانية كلها لتتعايش وتتعارف وتتعاون على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان، كان المقصود من قوله الكريم هذا المعنى الذي تأتلف فيه الأرض من أوطان تعيش فيها شعوب وقبائل، ليكون كل شعب مستقل بوطنه وكريمًا فوق أرضه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [4] ، والأدلة على هذا المعنى كثيرة [5]، ومن لوازم ذلك بيان ما يلي:

أولاً: علاقة الوطن بالدولة:

وعلاقة الوطن بالدولة هي من باب علاقة الملزم باللازم ، فكل دولة تحتاج إلى أرض يختص بها شعب، وينظمون عليها حياتهم وفقًا لما يروقهم

---

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٧١.

(٢) الأعراف: ٥٨.

(٣) المعجم الوسيط، ٢/ ١٠٨٤.

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) راجع في تفصيل ذلك : بحثنا بمجلة منبر الإسلام، العدد الخاص، بعنوان: التأصيل الشرعى لدعم جهود الدولة الوطنية في مواجهة الإرهاب، مارس ٢٠١٨م، ص٧ وما بعدها.

من التشريعات التي يمثل التوافق الشعبى عليها عهدًا يجب الوفاء به، وميثاقًا يتعين احترامه؛ عملاً بالنصوص الشرعية التي توجب الوفاء بالحقوق والعهود.

وقد تحدث القرآن الكريم عن الدولة بالمفهوم الذي يصور معناها في كثير من قصصه، وذلك حينما أخبر عن الرسل السابقين، وما بعثوا به لأقوامهم في البلدان المختلفة، والأماكن المتعددة، وذلك كما تحدث عن فرعون وأرضه، وكما تحدث عن مدين التي آوى إليها نبى الله موسى عليه السلام، وعن الدولة التي فر منها عندما تآمر عليه أهلها ليقتلوه، وخرج منها خائفًا يترقب داعيًا الله عز وجل أن ينقذه من القوم الظالمين.

وفي السنة النبوية ما يدل على أن فكرة الأوطان والبلدان كانت واقعًا مستقرًّا يشكل الدولة ونظامها، وذلك كما في الحبشة التي كان النجاشي ملكًا عليها، واستقبل المسلمين الأوائل عندما هاجروا إليه بصدر رحب وتسامح فريد، وكما في دولة الروم، ودولة فارس، وغيرهما ممن أرسل النبيﷺ رسله إلى ملوكها يبلغهم مبادئ الدين الجديد، وأنه سلم للإنسانية، وليس حربًا عليها، وخير لها وليس شرًّا بها، فقد كان هؤلاء الرسل يحملون كتبه ﷺ وفيها من عبارات التوقير لهؤلاء الملوك ما يليق بمكانتهم، وبما قرره الله (عز وجل) من كرامة وتكريم لكافة بني الإنسان، وقد أرسل ﷺ كتبه إلى هرقل (قيصر الروم) ، وكسرى (ملك الفرس) ، والمقوقس (عظيم مصر)،

والنجاشى (ملك الحبشة) ، والمنذر بن ساوى (ملك البحرين) ، وإلى أمير البصرة ، وإلى الحارث بن أبي شمر الغسانى (أمير دمشق)، وإلى هوذة بن علي (ملك اليمامة) ، وإلى الحارث بن عبد كلال الحميري (ملك اليمن)، وإلى جيفر وعبد ابني الجليدي (ملكي عمان) ، وإلى غيرهم من الملوك والأمراء في بلادهم وأوطانهم ، فمنهم من أجاب ورد ردًّا جميلاً ، ومنهم من لم يرد لكنه علم بميلاد دولة جديدة أصبح لها أرض وشعب وإدارة تقوم عليها ، وذلك عندما بدأ تكوينها بالهجرة النبوية المباركة.

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة أقام الدولة ، وصاغ لها دستورها بتوافق جميع الفئات، وموافقة أتباع كافة الأديان، وكان من ضمن بنود وثيقة المدينة أن يدافع عنها كافة سكانها من المسلمين واليهود وغيرهم ، وليكن الجميع في الدفاع عنها يدًا على من سواهم من كل معتد يقصد مداهمة المدينة أو التعدي عليها [1] .

وقد انتهى العلامة الدكتور/ محمد يوسف موسى – رحمه الله – إلى هذا المعنى في كتابه: "نظام الحكم في الإسلام" وذلك بعد سؤال طرحه في أول مبحث في هذا الكتاب جاء فيه: هل يوجب الإسلام إقامة دولة؟ وانتهى في آخر المبحث وبعد استعراض ما كتب في هذا الموضوع من رجال

---

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ١١٩ وما بعدها، حيث أورد نص الوثيقة كاملاً، ومنه يظهر أن الدولة في الإسلام قد قامت بكافة مظاهرها وجميع ملامحها.

القانون والدستور إلى أن ذلك حق لا ريب فيه، وأن الإسلام يدعو إلى ذلك في أدلته الشرعية ومبادئه الكلية، وأن ذلك من لوازم حفظ الدين، وحفظ مصالح العباد[1] .

ثانيًا : تعيين رئيس للدولة وتحديد اختصاصاته :

ومن المسائل التي لا يجوز إجهاد النفس في متابعة الخلاف فيها: مسألة تعيين رئيس للدولة، حيث وقع اختلاف نظري فيها ما بين مانع وموجب، والذين قالوا بالمنع استندوا إلى أدلة يبدو من أول نظرة فيها أنها ساقطة متهافتة، تروج لسياسة الفوضى ، وتسمح للناس أن يفترس القوي فيهم الضعيف، وهذا ما لا يرضاه الله ورسوله، كما أن مثل هذه الأقوال إنما تقوم على أساس متهافت، بل وموغل في المثالية والخيال ، حيث يفترض القائلون بها أن مثالية الناس سوف تدفعهم إلى احترام حقوق غيرهم دون إجبار من حاكم، وهو تصور يشبه الهراء ، حيث لم يوجد بعد ذلك الإنسان الذي يحترم حقوق غيره من تلقاء ذاته ، ودون قوة ترهبه عند استهانته بحقوق الآخرين، ولهذا كان إجهاد العقل في نظر هذا الرأي أو حتى مجرد الالتفات له ضربًا من الهراء.

ويكفي لإدراك ذلك ما ورد في وجوب تعيين رئيس للدولة من أدلة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومن إجماع علماء الأمة والمعقول ؛ بما يدل على هذا الرأي

---

(١) نظام الحكم في الإسلام ، د / محمد يوسف موسى ، مراجعة وتحقيق/ حسين يوسف موسى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ص١٥ وما بعدها.

ويرجحه، ويجعله الرأي الأقوى والذي يجب صرف اهتمام العقل له والعمل به[1].

ومما يبرر وجوب تعيين رئيس للدولة من المعقول: أن في تعيينه دفعًا لضرر كان محتملاً فيما مضى، حيث كانت صدور الناس واسعة وقلوبهم كبيرة وفطرة الإيمان قوية، بيد أن طبائع الناس قد تغيرت لكثرة النسل وتنازع الخلق على فرص الحياة وأسباب العيش، ولولا وجود الحاكم لاختلفت الآراء وتصادمت الأهواء، واعتدى القوي على الضعيف، فتعم الفوضى وتنتشر الفتن، ويهلك الحرث والنسل، ويعم الخراب والفساد، ومن ثم يكون تعيينه واجبًا لدفع تلك المضار الماحقة التي يترجح وقوعها في زماننا، وما يدفع المفاسد الكبيرة يكون واجبًا [2].

ثالثًا : مواطن حفظ مصالح البلاد:

وحفظ مصالح البلاد له مواطن يجب مراعاتها، وذلك حتى يتجلى من بيانها وصف المقصد الذي يتعين أن تكون أعمال الناس متجهة إليه ومتوقفة عند حدوده، ويبدو مما كتبه الفقهاء في ذلك أن تلك المواطن تتمثل في جملة من الأمور تحقق المصلحة العامة، وتحفظ مصالح البلاد، وهذه المواطن في مجملها تصب في المحافظة على الوطن واحترام كيان الدولة الوطنية بما يجعل

---

(١) يراجع في تفصيل تلك الأدلة واستعراض الآراء في تعيين رئيس الدولة: رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، د/ محمد رأفت عثمان، طبعة دار العلم بدبي، ص٥٥ وما بعدها، والمراجع المشار إليها في حواشي تلك الصفحات.

(٢) في هذا المعنى: رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص٦٣.

الخروج عليها أمرًا مؤثمًا، وهذه المواطن تتمثل في الدفاع عن الوطن وتجريم التآمر عليه، وتوصيف الخيانة له بأنها خيانة عظمى، وإقامة الولايات الإدارية فيه، وهي تشمل الولايات الوظيفية والولايات المكانية التي تسمى بلغة العصر المحافظات أو الأقاليم، وإقامة العدل بمرافقه وإجراءاته وأدواته، وإقامة رجال العدالة ومعاونيهم وما يلزم لتنفيذ تلك الأحكام.

كما يدخل في تلك المواطن حفظ الأمن، وتتبع الجناة وتقديمهم للعدالة؛ لينالوا حظهم من العقاب الرادع الذي يردع المجرمين ويزجر المنحرفين[1] ، وكذلك تدبير السياسة المالية للدولة حتى تجد الموارد المالية التي تنفق منها على مصالح المسلمين، ورواتب العمال والموظفين، وتوفير الخدمات التعليمية والعلاجية والتكافلية للناس أجمعين، ويمكن تفصيل تلك المواطن فيما يأتى:

(١) الدفاع عن حدود البلاد ضد المعتدين والطامعين:

وقد أشار إلى ذلك الباحثون والكاتبون في السياسة الشرعية، والأحكام السلطانية، وهم يتحدثون عن واجبات الإمام المتعلقة بتحصين الثغور بالعدة المانعة والقواة الدافعة؛ حتى لا يظفر الأعداء بمنفذ أو ثغرة ينتهكون بها محرمًا أو يسفكون فيها دمًا لمسلم أو غير مسلم[2] .

---

(١) رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص٣٥٦ وما بعدها، والأحكام السلطانية للماوردي، ص١٥ وما بعدها، والأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص٢٧ وما بعدها.

(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص ٢٧وما بعدها.

وفي هذا يقول الإمام الجويني: إن أخذ العدة والانتهاض للدفاع عن البلاد يقتضي مزيد عتاد وتدريب واستعداد، وللإمام أن يدبر ذلك بما يليق به[1].

ويقول: إن اتساع الرقاع والأصقاع وكثرة الثغور والمراصد في البقاع، لا يستقيم إلا بكثرة الجنود المترصدين للدفاع والقراع، والأمر يحتاج إلى تخصص في كل جانب، فمنهم مرتبون في مرابطة الحصون والقلاع، وآخرون في المضايق والمراصد، والنجدة الكبرى يحتفون بالإمام وبأمراء الأجناد في البلاد، فإننا كما نصيب نصاب، والحرب سجال، والقتال يحتاج إلى حيطة في كافة الأحوال [2].

والمغانم في نظر الشرع ليست مقصودة لذاتها، فإن الغرض التجرد والدفاع عن الوطن، ولهذا لم تكن معمودة مقصودة، إذ لا يليق بمحاسن الشريعة أن تجعل بذل المهج والتعزير بالأرواح إلى تحصيل المغارم ذريعة [3]، وحيث كان ذلك فيجب على الإمام أن يدبر أمر الدفاع عن حدود الأوطان بما يراه من تدبير الأموال محققًا لهذا المقصد الأسمى، ولذلك لا بد من توظيف أموال يراها الإمام قائمة بالمؤن الراتبة ومدانية لها، وإذا وظف الإمام

---

(١) الغياثى، غياث الأمم في التياث الظلم، للإمام الجوينى، تحقيق د/ عبد العظيم الديب، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، ص٢٦١، رقم ٣٧٢.

(٢) غياث الأمم في التياث الظلم ،ص٢٨١ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٨٢.

على الغلات والثمرات والدخول وضروب الزوائد والفوائد من الجهات يسيرًا من كثير لكان ذلك سائغًا ومفيدًا وموافقًا لشرع الإمام في الدفاع عن الأوطان [1] .

(٢) حفظ الأمن وإقامة حدوده بكل حزم:

ومن مواطن حماية البلاد حفظ الأمن، والأمن ضد الخوف ، فكل ما يتحقق منه الخوف للإنسان فيأمن منه يسمى أمنًا ، وكان الأمن شاملاً لكل معانى الحياة ومقاصدها الرئيسة كالنفس والولد والأهل والعرض والمال، وغير ذلك من المصالح التي يهم الإنسان أن يأمن عليها، ويزيل خوفه مما قد يصيبها[2].

ومن الواجب توفير الأمن لكل أفراد الأمة حتى يستطيع كل إنسان أن ينصرف إلى سبيل عيشه آمنًا على نفسه وأهله وماله ، وبدون حفظ الأمن لن يستطيع ذلك.

(٣) إقامة العدل بين الناس:

ومن مواطن حفظ البلاد إقامة مرفق العدل وتوفير كافة ما يلزمه لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وردع الجناة والمجرمين الذين يعتدون على الحرمات ويخرقون التشريعات، وذلك دون تفرقة بين شريف وحقير؛ حتى

---

(١) في هذا المعنى: غياث الأمم في التياث الظلم ، ص٢٨٣.

(٢) القاموس المحيط، ٤/ ١٩٨، وكتابنا: الولاية الشرعية للأمن في الحرمين الشريفين، دار الصحوة، ص٣٢.

تصان حدود الله من الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك[1].

ويقول الجويني: إن أي نعمة لا تخلو من القذى ما لم يأمن أهل الإقامة والأسفار من الأخطار والأغرار، فإذا اضطربت الطرق، وانقطعت الرفاق، وانحصر الناس في البلاد، وظهرت دواعي الفساد، ترتب عليه غلاء الأسعار وخراب الديار، وهواجس الخطوب الكبار، والأمن والعافية قاعدتا النعم كلها ولا تهنأ بشيء منها دونها [2].

وقد أفتى الإمام الجويني بأن حفظ الأمن مقدم على الحج، وأنه لا يجوز للإمام أن يخرج للحج قبل أن يستقر الأمن ويستتب.

ويرى الإمام الجويني أن من جوانب الأمن: حماية المجتمع من البدع والخرافات، والأكاذيب والشائعات، فيقول: ومما يجب دفعه الفتن الهاجمة في الدين والدنيا، والتي لو لم تدارك لتقاذفت إلى معظم المسلمين، ولتفاقمت غالبتها وأعضلت واقعتها، وهي من أعظم الطوام على العوام، وذلك كالزنادقة والمعطلة وغيرهم ممن يشيعون الفساد ويدعون إلى التدمير والخراب، والانسلاخ من مبادئ الدين الصحيحة إلى ما يريدون منه من أمور التخريب والتكفير والإرهاب، ومن ثم كان معنى الأمن شاملاً للأمن البدني، والأمن الفكري [3].

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، ص١٦، والأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص٢٧.

(٢) غياث الأمم في التياث الظلم، ص١١٩، ص٢١٢ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق، ص١١٩ وما بعدها.

(٤) تدبير الموارد المالية للدولة :

ومن مواطن المحافظة على البلاد تدبير الموارد المالية، وذلك بتفعيل الموارد وتنظيم النفقات، ومن ذلك جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع حقًّا واجتهادًا، وقد أفرد الفقهاء لذلك كتبًا ومؤلفات، منها ما كتبه الإمام أبو يوسف في الخراج، والإمام يحيى بن آدم القرشي في الخراج، والإمام ابن رجب الحنبلي في الاستخراج لأحكام الخراج، وما كتبه أبو عبيد في الأموال وغيرهم، وذلك بما يدل على أهمية هذا الموطن في الإسلام.

وقد فصل الإمام أبو يوسف أبواب كتابه وفقًا لمصادر الدخل وإنفاقه إلى أبواب في قسمة الغنائم وفي الفيء والخراج، وذكر ما فعله عمر بن الخطاب ﷺ في أرض سواد العراق حيث امتنع عن قسمتها بين القائمين مراعاة لحقوق الأجيال القادمة؛ مما يدل على أهمية التفكير والتدبير في رسم السياسة المالية العامة، وفي الدخل الناتج عن موات الأرض في الصلح وغيره من الأحوال، وكذلك ما يجب في العشر والصدقات، وما يحكم زيادة الموارد المالية ونقصانها، وفي الموارد المائية للآبار والأنهار والشرب والري[١].

وقد أولى الإمام يحيى بن آدم القرشي أهمية كبيرة فيما كتبه للموارد الزراعية، مثل غرس النخل والزروع[٢]، وإحياء الأرض الموات أو ما

---

(١) يراجع في ذلك: كتاب الخراج لأبي يوسف، طبعة دار المعرفة، ص١٨ وما بعدها.

(٢) الخراج، ص٨١ وما بعدها، مطبوع مع الخراج لأبي يوسف.

يعرف بالاستصلاح الزراعى، وتحديد مدة المزارعة، واستغلال أرض الغير في الزراعة دون إذنهم، والزكاة في الأرض والزروع والثمار وما سقى بالماء، والتجارة، والوقف ومصارفه[1] .

كما تكلم الإمام الجويني عن التكافل بين الأغنياء والفقراء أو التضامن الاجتماعى، وتنظيم الأسواق وحفظ الأسعار والموازين.

(٥) التواصل على المستوى العالمى :

ومن المواطن التي تختص بها الدولة، وتعد أمرًا لازمًا لحفظها، تنظيم العلاقات الدولية على أساس المبادئ الإسلامية المقررة في هذا المجال، وهي العدل والمساواة واحترام سيادة كل دولة وحدودها وحقوقها، وذلك وفقًا للمواثيق الدولية المنظمة لتلك العلاقات، والتي لا تخرج في مبادئها العامة عما قرره التشريع الإسلامى في مجال المحافظة على العقود والعهود، وفي حدود الحقوق الإنسانية العامة والأحكام الشرعية التي تكفل كرامة الإنسان في كل زمان ومكان.

(٦) حماية الوطن تحفظ حقوق الإنسان :

من المعلوم أن حقوق الإنسان تمثل كيانًا متكاملاً لا يقبل التبعيض ولا التجزئة من جهة موضوعات هذا الحق ومن جهة الأفراد الذين يعتدى على حقوقهم فيه ، وترتيبًا على ذلك فإن من يعتدي على حق إنسان واحد

---

(١) الخراج ، ص ٨٢.

يكون كالمعتدى على حقوق الناس جميعًا، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (١).

كما أن من يعتدى على حق واحد من مفردات حقوق الإنسان، يكون كالمعتدي على كافة مفردات تلك الحقوق، ولعل ذلك البعد الفقهي في تكييف هذا النوع من الحقوق يبين مدى جسامة الخطورة في التعدي عليه، أو هز استقرار الوطن الذي يحتويه.

ومن المعلوم أن مفردات هذا الحق كثيرة ، وهي في مجملها ترتبط بقيام الوطن عزيزًا قويًّا، وآمنًا مستقرًّا، وصاحب سيادة تحترمها كافة الدول وتحترمها جميع الشعوب ، ولهذا قيل بحق: من لا وطن له لا كرامة له.

ومن تلك الحقوق المتعلقة بحقوق الإنسان، والتي يطيح بها التعدي على الأوطان، حقه في الحل والإقامة، وحقه في التعبير عن أفكاره وممارسة حقوقه السياسية والدستورية، وحقه في حماية دمه وعرضه وماله وخصوصيات حياته ، وحقه في الكرامة الإنسانية والمشاركة في الحياة العامة، وحقه في التفكير والإبداع، وحقه في ممارسة شعائر دينه وعقيدته، وغير ذلك من الحقوق التي تهدر عندما يعتدى على أمن الأوطان واستقرار البلدان.

---

(١) المائدة: ٣٢.

(٧) الوطن نعمة تستوجب الشكر والتقدير:

والوطن يعتبر نعمة من أجل نعم الله ﷻ على الإنسان ، لأنه موئل كرامة الإنسان ومصدر عيشه ورفاهية حياته ، فعلى أرضه يعيش الإنسان ويبني ما يقدر على بنائه من المساكن الفاخرة، والقصور الفارهة، ومن أرضه تتدفق النعم التي يعيش منها كالحبوب والثمار والفواكه والبقول، وفي طرقاته يتنفس المرء عبير الزهور وجمال الورود والرياحين، وهذه كلها تمثل نعمًا من أجل نعم الله على الإنسان، وهذه النعمة مع استوجابها للشكر فإنها تتطلب أمرين لا يجوز النظر إليهما باستخفاف، وهذان الأمران هما:

أ- تحية علم الدولة :

إن تحية علم الدولة مظهر من مظاهر شكر الله على نعمة الوطن، تلك النعمة التي لا يحس بحقيقة معناها إلا من نكب في وطنه، ولم يجد له مأوى ففر هاربًا إلى حيث يجد مكانًا يستره أو حفرة يأوى إليها، أو يغادر فارًّا أو هاربًا إلى بلاد لا تطيق رؤيته ولا تحب وجوده ، وإذا أشفقت عليه في أمر فإنه يكون على حساب أمور تمس كرامته وإنسانيته ، فمن يفقد وطنه لا كرامة له في بلاد غيره ، ثم هو في النهاية يعيش عيش الغرباء الذين لا يستحقون أكثر من الحد الأدنى الذي تقوم به الحياة ، وذلك من غير أمل أو طموح.

إن نعمة الوطن تقتضي تفعيل احترامه والمحافظة عليه بهذا العمل الرمزي الذي يستحث فيمن يفعله قيمة حب الوطن واحترام نظامه عبر الأجيال.

ب- احترام السلام الوطني:

والسلام الوطني يعتبر علامة على احترام الوطن، وداعيًا للمحافظة عليه، وترسيخ حبه في قلوب أبنائه إذا حلوا أو ارتحلوا، وهم عندما يغادرون بلادهم تكون تلك البلاد حاضرة معهم عندما يرددون سلامها الوطني، ومبادئ الدين الداعية إلى حب الوطن والمحافظة عليه لا تأبى ذلك، بل تؤيده وتدعو إليه، لأنه في النهاية يصب في صالح شكر الله على نعمة الأوطان.

تحية العلم والسلام الوطني من أحكام السياسة الشرعية:

ومما هو معلوم أن التخريج الفقهي السليم لما تعارف عليه الناس في كافة أصقاع الدنيا وبلادها أن تحية العلم لكل دولة ، والسلام الوطني فيها من باب السياسة الشرعية المستجدة بحسب الزمان والمكان ، ومثلهما كمثل الراية التي اتخذها النبي ﷺ لتكون دليلاً على دولته وجنده وقت النوازل وعند النزاعات المسلحة ، وقد جاء في كتب السيرة ما يفيد بأن احترام الراية ورفعتها أمرًا ضروريًّا ، وذلك في غزوة مؤتة سنة ٨هـ ، حيث كان حامل الراية في تلك الواقعة سيدنا زيد بن حارثة ﷺ حتى استشهد ، فتلقاها منه جعفر بن أبي طالب ﷺ الذي كان يحمل الراية بيمينه ، فلما قطعت أخذها بشماله ، فلما قطعت احتضنها بعضديه حتى استشهد ، فتلقى الراية عنه سيدنا عبد الله بن رواحة ﷺ حتى استشهد ، فرفع الراية ثابت بن أقرم ﷺ ، حتى حملها خالد بن الوليد ﷺ وقاتل بها دون أن تسقط، وانتهى اللقاء

بنتيجة مرضية للمسلمين رغم عدم تكافؤ عددهم وعدتهم مع حضور المقاتلين [1].

ويعد هذا الموقف دليلاً على أن الراية رمز لعزة المسلمين في لقائهم مع أتباع الدول الأخرى، وهو دليل معتمد ومعتبر يفيد أهمية احترام راية الدولة أو علمها باللغة المعاصرة ، ولا شك أن كل ما يؤدي إلى المحافظة على الأوطان ومراعاة ما استقرت عليه البلدان من أمور السياسة التي تدل على وجود الدولة الوطنية وتؤكد الاحترام لها ، إنما هو من شرع الله وليس منافيًا له ، وليس بلازم أن يرد فيه دليل مبيح أو قول صريح .

* * *

(١) راجع في ذلك: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د/ محمد أبو شهبة، دار العلم بدمشق، ٢/ ٤٢٦ وما بعدها.

المبحث الثاني
حفظ مصالح الإنسان

من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ مصالح العباد، والناس جميعًا عباد الله حتى وإن كانوا لا يؤمنون به، فهم عباده إجبارًا وإن لم يؤمنوا به اختيارًا؛ لأن وجودهم في الحياة بخالص قدرته وكامل إرادته ، ولذلك خلقهم ، قال سبحانه وتعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(١).

والعبودية لله شرف لا يدانيه شرف؛ لأنها أصل الحرية التي يتغنى بها من يظنون أنها مطلق التصرف، لكن الحرية هي العبودية لله (عز وجل)، ولهذا كان الناس جميعًا متساوين فيها، وكانت حقوقهم في الدنيا متساوية لا تختلف بحسب الدين أو الجنس أو اللون، أو غير ذلك مما يتمايز به الناس، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ : " يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمي، ولا لعجمي على عربى، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى" (٢).

ومقصد التشريع الإسلامي في حفظ مصالح العباد أو الإنسان يتمثل في الضرورات والحاجات والتحسينات، وقد أرجع العز بن عبد السلام

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) مسند أحمد، حديث رقم ٢٣٤٨٩.

التكاليف الشرعية إلى حفظ مصالح العباد في دنياهم وأخراهم[1]، وقال الشاطبي:إن مقصد الشارع مما شرعه إقامة المصالح الدنيوية والأخروية [2]، ومقاصد الأحكام لا تخرج عن جلب مصلحة أو دفع مفسدة أو مجموع الأمرين معًا [3]، وأول هذه المصالح هي الضروريات، ثم الحاجيات، ثم التحسينات، وهي أقسام مقاصد الشريعة، ومن المفيد بيانها فيما يلي:

أولاً : مقاصد الضروريات :

والضرورات هي مصالح الخلق العليا، والتي لا تختلف من دين لآخر، ولا يستغنى الناس عنها في كل زمان ومكان، بل ولا تقوم الحياة إلا بحماية تلك المصالح، وهذه المصالح الضرورية ذكرت في كتابات الفقهاء مرتبة هكذا: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال [4].

وكما يبدو من إيرادها، فإن عليها مدار مصالح الناس في دينهم ودنياهم، فإذا فقدت مصلحة منها اختلت مصالح الدين والدنيا وفسدت، وأدى ذلك إلى الاضطراب والفوضى والاعتداء على الأنفس والأموال، وخسران الدنيا والآخرة.

---

(١) قواعد الإحكام في مصالح الأنام، طبعة دار الجيل ، ٢/ ٢٣.

(٢) الموافقات، ٢/ ٥.

(٣)الإحكام في أصول الأحكام، الآمدى، طبعة دار الفكر، ٣/ ٦٩.

(٤)المستصفى، الغزالى، ١/ ١٣٩ وما بعدها.

حفظ الأوطان :

وقد أثبت الواقع المعاصر، أن هناك مصلحة ضرورية كبرى يتوقف عليها حفظ كافة مصالح الدين والدنيا، وهي حفظ الأوطان، ذلك أن الوطن هو الوعاء الجامع لكل مصالح البلاد والعباد، وأن التهاون في حفظه يؤدى – بالضرورة – إلى الإطاحة بكافة تلك المصالح، ولهذا يتعين أن يكون حفظ الأوطان مقدمًا عليها، ولأن حفظ الدين يقتضي حفظ الوطن.

بيد أن جلال الدين وأثره في هداية الناس وتوجيههم لحماية تلك المصالح، ومنها مصلحة حفظ البلدان والأوطان؛ يقتضي أن يتصدر قوائم حفظها، وذلك دون إخلال بالأهمية الفائقة التي تستوجب حفظ البلاد والأوطان، ومع ذلك فإننى أسجل في هذا الملتقى العلمي العالمي أن التجديد الفقهي يقتضي أن يعاد النظر في مفردات تلك المصالح ليكون حفظ الوطن من أهمها، وليكون ترتيب تلك المقاصد كما يلي:

حفظ الدين، ثم حفظ الوطن، ثم حفظ النفس، ثم حفظ العقل، ثم حفظ النسل، ثم حفظ المال، وحتى يتم ذلك فإننا سنذكر تلك المصالح وفقًا لترتيبها المألوف وإيرادها المعهود في كتب الأصول مرتبة كما يلي :

(١) حفظ الدين :

والدين في قمة تلك المصالح لأنه النور الهادى والسياج المانع بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والمصلحة والمفسدة ، فإذا ضاع الدين أو ضيعت

مبادؤه فقد الناس دليل الخير الذي يرشدهم، وداعي الحق الذي يهديهم عندما يستبد بهم الطغيان والضلال، ويُظَنُّ أن التمادي في الباطل قرين الكبرياء والكرامة، وهنا يكون الرجوع للدين عاصمًا من كبرياء النفس عندما لا تجد حدًّا يقف عنده، وقد جعل الله سبحانه الأشهر الحرم سببًا لترك ذلك الكبرياء؛ حتى إذا ما توقف المتحاربون عن إراقة الدماء لا يرمى أحدهم بأنه امتنع عن الاستمرار فيه جبنًا أو ضعفًا بل احترامًا للدين وخضوعًا له، وهو خضوع يحترمه الجميع، ولهذا كانت المحافظة على الدين عصمة لكافة الحقوق، ومنعًا لجميع أنواع الباطل، ودعمًا للخلق الكريم والخصال النبيلة، وكان تضييعه خطرًا على كافة تلك المصالح، ولهذا كانت المحافظة عليه ضرورة، وكان التعدي عليه جريمة.

(٢) حفظ النفس:

والنفس هي درة النعم بعد الدين، وهي أصل التلذذ بكافة النعم المادية والروحية، كما أنها تضم سر الله ونفخته القدسية، كما أن وعاء تلك النفس صنعة الله سبحانه وتعالى الخالصة، ولذلك كان حقه عليها كاملاً، كما أن لصاحب تلك الحياة حقًّا في أن يعيشها، ولهذا كان التعدي عليها اعتداءً على بنيان الله وحقه ، كما أن فيه اعتداءً على حق المجني عليه في حياته.

(٣) حفظ العقل :

والعقل هو درة النعم التي لا تستقيم حياة الناس إلا بها، فبه يتصرف

الإنسان بمعيار موحد مع غيره، ويتواصل مع الآخرين ليأخذ عنهم ويستفيد منهم كما يأخذون منه ويستفيدون، ولولاه لعجز عن التكليف، ولغدت حياته كحياة الحيوانات، بل أضل لأن الحيوانات ليس لها عقل، فحركتها بالفطرة التي لا تتصادم مع غيرها، أما من فقد عقله فإنه يفتقد تلك الفطرة، فلا يقوى على التعايش مع غيره، وربما عجز عن حفظ حياته، فكان العقل نعمة من أجل النعم، ولولاه ما استقامت الحياة، ولاختلت مصالح البلاد والعباد، ولضاعت الأولى والآخرة.

(٤) حفظ النسل:

والنسل ضرورة كبرى؛ إذ به يتحقق مقصود الرب من خلق الإنسان، حيث جعله خليفة، كما جعل الناس خلائف يعقب الخلف منهم السلف، ويجيء الأبناء بعد الآباء فيرثون مالهم وعلمهم وأخلاقهم، وما خلفوه من مبادئ النور والهداية التي تعلموها في حياتهم، وبعدما تصل إلى خلفهم ينقلونها إلى من يلونهم، فتستمر مسيرة الهداية، ويظل هدى الدين قائمًا في الآخرين كما قام في الأولين.

ولن يتحقق هذا المقصود الأسمى إلا إذا كان الخلف قد جاء على نحو مشروع يطمئن فيه الآباء إلى أن هذا النسل من صلبهم ، وأنهم جديرون بخلافتهم واستحقاق وراثتهم ، وأهل لحبهم الأبوي ، وما قرره الشارع الحكيم لهم من حقوق ذوي القربى المادية والأدبية ، وحفظ النسل يحقق هذه المعانى، ولا يمكن تحقيقها إلا به.

(٥) حفظ المال :

والمال عصب الحياة وأداة الاقتدار، بدونه لا يقوى الإنسان على جلب ما يقيم حياته أو يحفظ كرامته، ولهذا اهتمت الشريعة بالمال جلبًا وإنفاقًا، وجمعًا وتفريقًا، فيحترم الناس العمل الذي يجلب لهم المال، وتَرُوج التجارات، ويعم الخير، وتَقْوَى الناس على أداء ما فرضه عليهم ربهم من العبادات المالية التي تفتح آفاقًا جديدة من الخير للأفراد وللمجتمع ولكافة شئون الحياة(١).

ثانيًا : مقاصد الحاجيات :

ويراد بها ما يرفع الحرج ويدفع المشقة ويجلب التيسير ، أو هي من الأسباب التي تقتضي التيسير في أداء الأحكام التكليفية ، وتساعد المكلفين على أدائها عند العجز أو طروء الظروف التي يشق معها أداء التكاليف وفقًا لما جرى به طلبها.

والأصل أن تؤدى العبادات على الوصف والهيئة التي شرعت بها وذلك إعمالاً للأدلة الشـرعية المنظمة لها، بيد أن ذلك الأداء من شروطه العامة أن يكون المكلف مستطيعًا وقادرًا على أداء ما كلف، والاستطاعة مبدأ مهم في التشريع الإسلامي.

---

(١) راجع في تأصيل تلك المعاني ومكان دراستها: درء المفاسد في الشريعة الإسلامية، د/ محمد حسن البغا.

والاستطاعة في اللغة: هي الطاقة والقدرة [١]، وهما معنيان مترادفان للفظ الاستطاعة[٢]، ولا فرق بين الطاقة والاستطاعة من حيث اختصاصهما بالإنسان، أما الحيوان فإنه يختص بالطاقة، فيقال حيوان غير مطيق لما يحمله، ولا يقال غير مستطيع ؛ لأن الاستطاعة تقتضي تقدير عاقل فيما يتحمله أو يلزم نفسه به ، والحيوان لا يلزم نفسه حيث لا إرادة له ، وإنما يلزمه الإنسان[٣].

وفي اصطلاح الفقهاء والأصوليين عرفت الاستطاعة بأنها سبب القدرة على التكليف ، يقول الشاطبي: ثبت في الأصول أن شرط التكليف أو سببه القدرة على المكلف به، فما لا قدرة عليه لا يصح التكليف به شرعًا [٤]، وجاء في تفسير المنار: الاستطاعة تعني أن يكون الشيء في فلا يتعاصى على قدرتك [٥].

والقدرة هي سلامة الأسباب والآلات، ولذلك تشمل القدرة البدنية والمالية والشرعية والزمنية، والقدرة المالية والبدنية واضحة ومعلومة، أما القدرة الشرعية فإنها مثل الحيض والنفاس، فإن الحائض والنفساء وإن كانتا

---

(١) القاموس المحيط، ٣/ ٦٠، باب العين فصل الطاء.

(٢) لسان العرب، مادة (ط و ق).

(٣) المرجع نفسه، ٨/ ٣٤٥.

(٤) الموافقات، ٢/ ١٧١.

(٥) تفسير المنار، ٥/ ١٨.

قادرتين على أداء الصلاة والصوم حسًّا، إلا أنهما غير قادرتين شرعًا، وأما الاستطاعة الزمنية فإنها تتحقق بتحديد وقت للعمل يمكن أن يؤدى فيه، كالوقوف بعرفة، فإنه إذا مات لا تتوافر الاستطاعة على أدائه [1].

وقد دل على وجوب الاستطاعة ما ورد بشأنها في الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة، ومن ذلك:

من القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾[4]، وقول الله تعالى ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[5]، وقول الله تعالى:﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[6] فقد أفاد هذا القول الكريم نفي الحرج ، وهو عدم التكليف بما لا يطيقه الإنسان، بل التكليف بما فيه الوسع [7]، وقول الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

---

(١)الاستطاعة وأثرها في التكاليف الشرعية، د/ مصباح المتولى، طبعة ٢٠٠٢م، ص٢٢ وما بعدها.

(٢) البقرة: ٢٣٣.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

(٤) الأعراف: ٤٢.

(٥) الأنعام: ١٥٢.

(٦) الحج : ١٧٨.

(٧) الرازي، مفاتيح الغيب، ١/ ١٨٢.

﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [1]، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة.

ومن السنة النبوية ما رواه البخارى عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون"[2]، وعنها – رضي الله عنها – قالت: " دخل عليها النبي ﷺ وعندها امرأة فذكرت من صلاتها، فقال: "مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله عز وجل حتى تملوا " [3]، وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة" [4]، وعن أبي أمامه ﷺ عن النبي ﷺ قال: " بعثت بالحنيفية السمحة" [5].

وقد اتفق الإجماع على أن الاستطاعة والتيسير من خصائص التشريع الإسلامي، وذلك حتى يتمكن المكلف من الامتثال الذي هو شرط في إيقاع المكلف به وحصوله، وكان التيسير من دعائم شرع الله في كل ما أتى به من تشريعات، حيث شرعت الأحكام فيه على وجه راعت فيه حاجة المكلف، وقدرته على الإتيان به، وهذا يؤدى إلى ترغيب الناس في اعتناق الإسلام

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٠.

(٣) مسند أحمد، حديث رقم ٢٤٢٤٥.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩.

(٥) مسند أحمد، حديث رقم ٢٢٢٩١.

والعمل به، والاستمرار في القيام بأحكام التكليف، وقطع الأعذار أمام الممتنعين عن القيام بما كلفهم به الشارع، وبالجملة فإنه يجعل الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وبدونه تتوارى تلك المصالح، وتتلاشى هذه الفوائد، وفي هذا يقول الشاطبى: إن التشريع بتقرير الاستطاعة والتيسير كالطبيب الرفيق يحمل المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله وعادته وقوة مرضه وضعفه، وبما يهيئ له طريقًا وسطًا في كافة أحواله [1]، وبدون التيسير والاستطاعة على القيام بأمور التكليف يكون المكلف في حل، ولا يؤاخذ على أمر إذا استحال القيام به أو عجز عن أدائه [2]، ومن ثم صار التيسير مقارنًا للتكليف وموازنًا له.

ثالثًا : مقاصد التحسينات :

والتحسينات هي الأمور الجمالية المتعلقة بجمال الروائح والمناظر، واكتمال الرقى في المساكن والشوارع، وفي الملابس والمآكل وما شرع من المشارب، حتى يأخذ الناس زينتهم في المجامع والملتقيات، ويظهروا أمام بعضهم في أحلى صورة وأجمل حلّة، ويمارسوا حياتهم داخل بيوتهم بأسلوب راق في مطاعمهم ومشاربهم، وطرق معيشتهم ومراكبهم، وعلاقتهم ببعض في المناسبات والمجاملات، فهذه المقاصد تتعلق بمحاسن

---

(١) الموافقات، ١/ ١١١.

(٢) المرجع نفسه، ٢/ ٧٢ وما بعدها.

العادات ومكارم الأخلاق، والمظاهر الكريمة، والأذواق الراقية، بما يجعل الأمة الإسلامية أمة يشار إليها بالبنان، وتشد إليها الرحال، وتنجذب لها الألباب.

وقد سلكت الشريعة في المحافظة على تلك المقاصد كل مسلك، فأغلقت طرق التعدى عليها، وسدت ذرائع الإهمال فيها، كما وفرت كل بديل يؤدى إلى منع التعدى عليها، فما من أمر حرمته بسببها إلا وأوجدت له البديل الحلال بمقابل ميسور، وبدل مشكور، فإذا لم تثمر تلك الوسائل الوقائية، فإنها تتكامل بالجزاءات العقابية التي تظل زاجرًا عن انتهاكها ومانعًا من التطاول عليها، وذلك من فضل الله بعباده ورحمته بهم، والله غفور رحيم.

ارتباط المصالح الشرعية للأوطان والإنسان:

ومما يلاحظ على إيراد مصالح البلاد والعباد أن ثمة ترابطًا كبيرًا بينهما، وأن هذا الترابط يكاد يرقى لدرجة التطابق؛ لأن ما يمثل اعتداء على مصالح الأوطان والبلدان، يعتبر في ذات الوقت اعتداء على بنى الإنسان، بل إن الإنسان هو المستهدف الأول من حماية الأوطان؛ لأن ما يقع بالأوطان من تقتيل للإنسان يصيبه في أهم مصالحه وأخطرها، ومنها الدماء والأعراض والأموال، بل إن تدمير مرافق الوطن يصيب أول ما يصيب المواطن في أهم ما يعود عليه بالفائدة، فبدون تلك المرافق لا تستقيم الحياة،

ولا يشعر الإنسان بالكرامة، ولعل ما وقع للبلدان المحيطة بنا من جراء ما فعله بها المخربون يدل على هذا، فإن تلك البلدان حينما خربت ودمرت وفرّ أهلها منها، أصبحوا هائمين على وجوههم ومشردين في الصحارى، هم ونساؤهم وأطفالهم، دون مأوى يقيهم حر الصيف وبرودة الشتاء، ودون توافر أدنى مظهر للكرامة، ومن ثم كان تخريب البلدان والأوطان موجهًا قصدًا للمستفيد الأول من خيرات بلده ووطنه، وهو المواطن أو الإنسان.

كما أن ما يصيب الإنسان يعتبر جريمة موجهة إلى الأوطان، فمن يعتدى على حياة مواطن يكون مرتكبًا لجريمة عامة موجهة ضد الوطن، أو ضد المجتمع، ولذلك يختص- بالمجازاة - عليها وإخضاع الجاني لقضائها - سلطان البلد بواسطة نوابه وهم القائمون على الدعوى الجنائية، وكذلك من يعتدى على المال الخاص أو الأعراض، فإنه يعد مرتكبًا لجريمة عامة، مع أن المجنى عليه فيها فرد خاص.

ومن ثم كان التشابك ، بل التطابق بين المحافظة على البلدان والمحافظة على الإنسان أمرًا واقعًا لا يمكن إنكاره ، وكان كل تعدٍّ يستهدف أيًّا من هذين الجانبين يعدُّ اعتداء خطيرًا يرقى للمحاسبة والجزاء.

* * *

المبحث الثالث
إجراءات الحماية المقررة للمقاصد الشرعية

ولما كانت هذه المصالح متشابكة، ومتطابقة، ويتوقف عليها مصالح الناس في المعاش والمعاد، كما يتوقف عليها مصالح الدين والدنيا، والعاجلة والآخرة، فقد وضعت لها الشريعة إجراءات حاسمة لحمايتها ومنع وقوع التعدى عليها، وهذه الإجراءات يمكن إرجاعها إلى أصلين كبيرين:

الأول: الإجراءات الوقائية (القَبْلية):

وهي إجراءات مقررة يقصد منها سد الذرائع للاعتداء على مصالح البلدان والإنسان، أو مصالح البلاد والعباد، وذلك بتهيئة الجو الاجتماعي والأخلاقي الذي يصرف الناس عن الوقوع في براثن التفكير الإجرامي المؤدي إلى التعدي عليها، ومن هذه الإجراءات ما يلي:

في مجال المحافظة على الأوطان تتمثل في تأكيد الانتماء الوطني بما يقتضيه من عمل صادق وعطاء وافر يترجم معنى الحب لهذه الأوطان، حتى تكون بيئة صالحة لعبادة الله ونشر مبادئ دينه عليها، فإن مبادئ الدين بسماحته ورحمته ويسره وجماله لا يمكن أن تنتشر في بلد تسوده القلاقل، وتنتشر فيه الجرائم، ويتربص فيه الإنسان بأخيه الإنسان ليغتال شرفه وينتهك كرامته، ويفترس كافة حقوقه، ومن ذلك أيضًا احترام المظاهر التي تجسد هذه المعاني في سلوك الأطفال والشباب والرجال والنساء، وذلك بالمحافظة على تحية العلم واحترام السلام الوطني، والدعاء للبلاد بالأمن

على المنابر وفي بيوت العبادة ، ولأولى الأمر بالتوفيق والسداد ، والحكمة والرشاد.

وفي مجال حفظ النفس أمر الشارع بالعدل و نهى عن التعدي على موجبات الانتقام والقتل بالمحافظة على حقوق الناس، وأن يحب لهم ما يحبه لنفسه، ولا يرضى لهم إلا ما يرضاه لها.

وفي مجال حفظ العرض شرع النكاح ويسر طرق الوصول له، كما دعا إلى غض البصر وصرف دواعي الغريزة بالعبادة والصوم وتوثيق الصلة بالله سبحانه، وإلى الالتزام بالأخلاق الفاضلة، وأن يسترجع من يفكر في التعدي على عرض الآخرين أن له أعراضًا في أصوله وفروعه وحواشية من النساء، وإذا كان لا يقبل ذلك على نفسه فيجب ألا يقبله على غيره.

وفي مجال حفظ المال أمر بإخراج الحقوق من الزكوات والصدقات، وإيفاء ما عليه للغير من المستحقات، والسماح لما يحوزه من المال بأن يفيض على مجتمعه والمحيط الذي يعيش فيه بمشروعات الخير التي ينتفع بها الجميع، وذلك كالمدارس والمستشفيات، والقرض الحسن، وغير ذلك من وجوه الخير التي تسلب الحقد من القلوب، وتدفع غير المالكين إلى المحافظة على أموال من يملكون.

وفي مجال حفظ الدين أمر بالتعلم الصحيح والفهم الواعي لمبادئ الدين وأحكامه، ودعا إلى اليسر والتيسير، كما نهى عن الغلو والتشديد،

واستنكر التنطع في الدين والدعوة إليه والعمل به، كما نهى عن الخرافات والدجل، وأوجب على الناس أن يأخذوا بأسباب العلم التجريبي والنظر العملي وارتباط الأسباب بالمسببات، في المعاش والعمل والصناعة والزراعة والطب والعلاج والتعمير والبناء، وجرم البدع في الدين واتخاذه مطية للدنيا، والتلاعب به على مشاعر الناس للوصول إلى الحكم، أو الاستيلاء على ما في أيديهم، أو السيطرة على عقولهم ليكونوا كالميت بين يدي من يغسله، وذلك كله مما هو موجود في كتب الفقه والأخلاق والعقيدة.

الثانى : الإجراءات اللاحقة على امتهان مصالح البلاد والعباد:

وهي تتمثل في العقوبات المقررة لكل جريمة ترتكب بحق البلاد أو العباد، وذلك بتوصيف تلك الجرائم ووضع مسمياتها ونماذج وجودها، وذلك كالإفساد في الأرض، والحرابة، والخيانة، وإفشاء الأسرار، والتآمر، وغير ذلك من الجرائم التي تستهدف البلد في شخصه العام.

كما وضع العقوبات الرادعة على النفس بما يعادل الجريمة ويعالج آثارها، وذلك كالقصاص والدية في النفس وما في دونها، وفي السرقة بما يردع السرَّاق، وفي التعدي على الشرف بما يزجر المتطلعين لتلك الجريمة الشنعاء.

وقد وضع لهذه العقوبات شـروطًا محددة، وضوابط شديدة حتى يتم تطبيق تلك العقوبات، فإذا لم توجد تلك الشروط، وتتوافر هذه الضوابط،

فإن أمرها يؤول إلى العقاب التعزيري الذي يقرره الحاكم بواسطة السلطة التشريعية في كل بلد؛ لتحدد العقوبات الملائمة لكل جريمة بما يلائم الزمان والمكان والأشخاص، وعلى نحو يحقق الزجر الخاص، والردع العام، ومع ملاحظة أن النظر إلى المصالح المحمية بالعقوبات ربما يعتريه التغيير، وهذا يقتضي تغيير العقوبة وفقًا لما آل إليه النظر في الجريمة، إذ ليس من المنطق الصحيح أن يعاقب الشخص على جريمةٍ رَأَى المجتمع أنها لم تصبح جريمة، أو تغير نظره فيها فجعلها ذات خطر أقل مما كانت عليه، بما يقتضي تغيير العقوبة من التشديد إلى التخفيف أو العكس، ومن ثم كان التعزير بالتشريعات الوضعية أداة شرعية صحيحة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، والمحافظة على ما شرعه الله لحفظ البلدان والإنسان، أو البلاد والعباد، وهذا يدل على عموم الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

* * *

□

خاتمة البحث

في الختام نخلص من هذا البحث إلى ثلاثة أمور، كل واحد منها يمثل أهمية فائقة في حياة الناس أفرادًا وأممًا وشعوبًا ودولاً وبلدانًا وأوطانًا، وهذه الأمور الثلاثة تتمثل فيما يلي:

أولاً: أن حماية الأوطان تمثل مقصدًا رئيسًا من مقاصد الأديان، بل إنها تعد من اللوازم الضرورية لحماية المصالح الشرعية المقصودة بالحماية والحفظ من أحكام الإسلام، بل من مبادئ كافة الأديان؛ لأن تلك المصالح لا يمكن أن تقوم إلا على أرض محروسة من أهلها، وآمنة داخل حدودها، وبدون تلك الحراسة لا يمكن أن تحفظ المقاصد الشرعية التي تتغيَّا حفظ مصالح الإنسان، والواقع أكبر شاهد على ذلك، فإن الوطن إذا استبيحت حدوده، وفشت الفوضى والفتن في ربوعه، فإن كافة مصالح الناس المقصودة بالحماية من الأديان لا يمكن أن يستقيم لها حال، ولهذا كان حفظ الوطن مقدمًا على حفظ كافة المصالح، وكانت أولويته ثابتة لما يمثله من تلك الأهمية.

ثانيًا: أن المصالح المعتبرة في الأديان السماوية، وفي الشريعة الإسلامية لا يصح - من وجهة النظر الفقهي الصحيح - أن تذكر مجردة عن حفظ مصالح البلاد؛ لأن المصالح المتعلقة بحياة الإنسان وما يرجى له من سعادة في الحال والمآل، فإذا ذكرت مصالح العباد، فإن المنطق الفقهي الصحيح يوجب أن تكون مسبوقة بحفظ مصالح البلاد؛ لأن مصالح العباد متوقفة

على حماية البلاد، ويكون إهدار مصالح البلاد عند من يحقرون من شأنها، أو يستهينون بمكانتها أمرًا مخالفًا لما شرعه الله ورسوله، وخارجًا عن مبادئ الأديان، وعلى الفهم الصحيح للإسلام.

ثالثًا: أن حفظ الأوطان يمثل – بحق – حقًّا من حقوق الإنسان التي يجب حمايتها، ويحرم التعدى عليها، ومن يعتدون على ثغور الأوطان إنما يستهدفون – بالدرجة الأولى – كرامة الإنسان، ويتعين أن يتجه النظر الدولى في محاربة الإرهاب لذلك المعنى الديني والإنساني الكبير.

ومن يرد ذكر مفردات حقوق الإنسان التي يطيح بها إفساد الأوطان يجد أنها كثيرة يصعب حصرها؛ لأنها شاملة لكافة جوانب حياة الإنسان في دنياه وآخرته، ومنها حقه في الحلَّ والإقامة، وحقه في حماية حياته وبدنه وكرامته، وحقه في حماية أسرته، وحقه في حماية أمواله وممتلكاته، وحقه في مباشرة حقوقه الدستورية المتعلقة بنظام الحكم واختيار أعضاء المجالس النيابية، وحقه في التعبير عن أفكاره، وحقه في ممارسة شعائره الدينية، وحقه في الحماية الوطنية، وغير ذلك من حقوق الإنسان المادية والأدبية والتي يمكن تصنيفها وتفريعها إلى عدد لا يحصى من الحقوق، ولهذا كان الاعتداء على الأوطان اعتداءً على حقوق الإنسان.

* * *

بناء الشخصية الوطنية في عالم متغير
رؤية إسلامية *

يحيا الإنسان في عصر أحدث طفرة غير مسبوقة في العلم والتكنولوجيا، بما كان لا يخطر له على بال؛ فقد حققت الثورة العلمية والتكنولوجية قفزة في عالم الاتصالات والمعلوماتية، وفرض عصر العولمة على المسلم تحديات جسيمة ليست من صنعه، ولا شراكة فاعلة له فيها، وإنما من صنع قوى تسلحت بالعلم والمعرفة الهائلة، والمادية الطاغية، والهيمنة المستغلة لعالم المسلمين ومقدراتهم.

وأمام هذا الطوفان التكنولوجي والمادي بدت الشخصية المسلمة، وكأنها عاجزة عن تقديم نموذج الإسلام الحق، أو فاقدة الرؤية لصناعة حاضر ناهض تواجه به تحديات العصر التي تحاصرها في شتى المجالات وبصورة غير مسبوقة، ومن بينها تحديات الظلم والتكبر والإلحاد وإنكار عطاء الدين، والتخلف الاقتصادي والمعيشي، وخلخلة التماسك الاجتماعي، والفرقة والاختلاف ، وانشطار المسلم بين دين قدم له كل شيء وحاضر حاصره في كل شيء .

ولم ينشأ هذا الوضع المأزوم للمسلم فردًا أو مجتمعًا أو أمة مصادفة، أو

---

* كتب هذا البحث: الأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندي - رئيس الجامعة المصرية للثقافة الإسلامية بكازاخستان - مصر.

نبت من فراغ، أو هبط عليه فجأة، إنما نتج محصلة لتضييع صناعة الفرد المسلم، وهي الصناعة الثقيلة؛ إذ الفرد هو السند والأساس للدين والوطن، وبه قاد وساد عالم العصور الوسطى؛ حيث انتزع الريادة والسيادة من قوى الشرك والبطش والظلم والطغيان، ومن كيانات وإمبراطوريات قامت على الاستعباد والاستبداد لعموم الناس.

لقد صنع رسول الإسلام ﷺ نموذج الإنسان المسلم المتصالح مع الله ومع الناس، المحب للدين والوطن، والعبادة والمدنية، والشريعة والحضارة، وتكامل فيه عنصرا الروح والمادة في توازن منضبط، وهو ما ينبغي أن نبني به المجتمع وسط طوفان المتغيرات المعاصرة، لقد وازن المسلم بين هذه الحقائق الإيمانية والكونية بالفهم السديد لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (١)، حيث فهم الفرد والمجتمع أنه ليس من شأن المسلم الفاقه لدينه أن يعيش لآخرته فقط، وإنما عليه أن يحيا لدينه ودنياه، فإنه صاحب رسالة في الحياة يقوم على عمارتها، ملتزمًا ومرددًا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (٢)، فما كان له أن يقيم

---

(١) القصص : ٧٧.

(٢) البقرة : ٢٠١.

خصومة بين الدين والمدنية، وليس له أن يضحى بأحدهما لحساب الآخر، أو يتقاعس أو يتكاسل عن العمل لهما ومن أجلهما في كل وقت وحين، شعاره الأثر: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا" (١)، وهو حجة على كل من يقيم خصومة لا أساس لها بين الحياتين المتكاملتين.

فإذا أدرك الحقيقة فلا بديل عن التغيير، وذلك باستعادة المقومات الحقة لعملية الإحياء والوعى به، فإن هناك معالم تقوم عليها بناء شخصية المسلم تتكامل بها ذاته، وتتأسس عليها هويته في الدين والحياة، وبدونها أو بانتقاصها يفتقد القدرة والفاعلية، ويتلاشى عنصر التميز والتفرد لديه، ويصبح مهمشًا في عالم متوحش.

وحسبنا أن نرصد فقه التأسيس الحق الذي شيَّد به الهدي النبوي نموذج إنسان جديد، ربَّى به الرسول ﷺ صحابته على مدى ثلاثة عشر عامًا في العهد المكى، حيث تم فيه نقلة نوعية غير مسبوقة في تربية وصناعة المسلم الذي قاد بدينه دنياه، وشيَّد على أساسه دولة راشدة، قدمت الإسلام إلى العالم دينًا ومدنيةً وحضارةً، تفتحت به القلوب والعقول، فأصبح به إنسانًا يستشعر بحق معنى الحياة، وقد صَوَّرَها قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى

(١) تفسير القرطبى ١٣ / ٣١٤، ١٦/ ١٨.

ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[1].

ومن الجدير أن نعرض لبعض تلك المعالم للإفادة منها في إعادة بناء شخصية المسلم في ظل الواقع المعاصر:

الاعتصام بهوية المجتمع والأمة والدولة:

فهي أساس؛ كونها جماع القوى الراسخة التي يستند إليها الفرد ويحتمى بها في التمسك بالهوية الإيمانية للشعب والأمة[2]، ولبّ الهوية وعمادها المتغلغل في كيانه، والاعتصام بذلك كفيل بالتنشئة السليمة، والتربية الصحيحة لكل ما تتضمنه هذه الهوية في كمالها الروحي وعطائها الإيماني في نطاق العناصر الأخرى من التاريخ واللغة، والحضارة والثقافة، والمصير المشترك .

وهذه الهوية بعناصرها التأسيسية، هي الصرح الشامخ لبناء الفرد والمجتمع على أصول قويمة، وركائز داعمة، فهي السند للذات الفردية والاجتماعية، ومصدر القوة والصلابة في بناء الشخصية، لا تنفك عن الذات الإنسانية أو تنعزل عنها بحسبانها عامل التميز والعلامة الفارقة لها عن سواها من الأفراد والمجتمعات الأخرى.

---

(١) الأنعام : ١٢٢.

(٢) يعبر المفهوم عن السمات والخصائص المشتركة التى تميز مجموع الشعب والأمة عن غيرها، موسوعة ويكيبديا الموسوعة الحرة، مصطلح الهوية.

وبقدر الوعي الفردي والجمعي بقيمة الهوية والاستمساك بها تبرز قوة الشخصية وتفوقها، وقدرتها على العطاء لنفسها ولكل المحيطين بها، مما يكون السند والظهير للوطنية، والتماسك المجتمعي، والإحساس بقيمة الأمة والدولة في عالم تتنافس فيه الدول والأمم.

فلا يجوز الغفلة عن تربية الفرد على أصول هويته، ولا يجوز للدولة ومؤسساتها المختلفة أن تتوانى عن ترسيخ وتعزيز الهوية الخلَّاقة التي ينتمي إليها، ودعم عناصرها، وتنمية وجودها في الكيان الفردي والمجتمعي على السواء، وكيف تغفل عن واجبها في هذا الشأن، وهي تعلم - أو ينبغي أن تعلم - أن ثمن تلك الغفلة ونتيجتها ذلك الثمن الباهظ الذي تدفعه طوعًا أو كرهًا، ويتمثل في انسحاق ذاتها، وتدني مكانتها، وتمييع معالمها التي تتميز بها في الإيمان بالله وإعمار الحياة على الحق والعدل مع كل الوجود.

وباستقراء الحالة الشخصية للفرد والأمة يتبين دور الهوية والإيمان لدى الشخصية المصرية العربية الإسلامية في مدى الحفاظ على الكيان الفردي والجماعي عبر القرون والأجيال ، فقد كان الأساس الحافظ على الشخصية من الذوبان في سواها، المدافع عن وجود الأمة والدولة، الضامن لتماسك نسيجها المجتمعي ضد دعاوى الفرقة والهزيمة ومؤامرات التفكيك لبنيتها الموحدة.

لقد ظلت الهوية تقوم بذلك الدور المصيرى، وإن اعتراها الضعف في

بعض الأحيان إما من بعض المستغربين المفرطين عن جهل أحيانًا، وإما من جانب الأعداء المتربصين الساعين إلى اختراق الهوية وإغراق أتباعها في جدل حولها، بغرض الفرقة والهزيمة والانسحاق أمام مسعاهم الحثيث في الهيمنة، وابتلاع الشخصية العربية الإسلامية في ظل العولمة كما يفهمونها بشعاراتها الزاعقة وأدواتها الجبارة.

ضرورة بعث الهوية الصحيحة:

إن إعادة بناء الإنسان العربي المسلم وفق معطيات الهوية الحقة باعتبارها تجسيدًا للشخصية والظهير الحق لوجود الإنسان القوى وبقائه قضية محورية؛ إذ إن بناءه على تلك الأسس المكونة للهوية يمثل حائط صد أمام الغزو الجديد، وهو غزو طاغٍ لا يرضى بديلاً عن الانبطاح بل محو الشخصية من الجذور.

وترتيبًا على ذلك، فلا مناص من إحياء الهوية في ضمير الفرد، وتوجيه المؤسسات المجتمعية إلى القيام بدورها في استعادتها، وامتداد ذلك إلى جميع فئات المجتمع وأطيافه بالالتقاء على أسسها وعناصرها، وتعميقها في الثقافة الشعبية، والالتفاف حولها باعتبارها سفينة الإنقاذ وسط بحر يموج بالعواصف والأعاصير يوشك إغراق الفرد والأمة في أعماقه السحيقة، إذا لم تقم بأصولها للبناء والمواجهة .

الخصوصية المميزة للشخصية العربية الإسلامية:

المرتكز والأساس لشخصية الإنسان المسلم ينبنى على إيمان عميق بالحقائق التأسيسية الدينية متجسدة في الله المتفرد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، المتجلية في عظمة الذات، وقدسية الصفات، وطلاقة القدرة في الأفعال، سبحانه ليس كمثله شيء، ويكتمل هذا الأساس بالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وعليه تقوم الوحدانية، والدين الواحد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله، يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ (١).

فهذا الإيمان حصن العقيدة الإسلامية، ومبعث القوة، ومظهر العزة، وعنوان الكرامة، يمد المؤمن بالزاد الذي يواجه به كل التحديات، ويكون أمة في شخصيته وتأثيره، يتجاوز الصعاب، وتنحل به الأزمات، ويتحقق به اليسر بعد العسر، والأمل بعد اليأس.

ويقينًا فإن هذا الإيمان يبعث الحياة في النفوس اللاهية، وذلك بتجديد إيمان المسلم وإخراجه من اليأس والحيرة التي هو فيها، وإيقاظه من حالة السبات التي ألمت به، كما أرشد إليه الرسول ﷺ بقوله : "جددوا إيمانكم، قيل: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا، قال: أكثروا من قول لا إله إلا

(١) الشورى: ١٣.

الله" [1]، فمن قالها موقنًا بها قلبه، مصدقًا بها أفعاله، كانت حصنًا له ضد الإلحاد، وتيارات الغزو الفكري المنهجة المعادية للدين على العموم والإسلام بوجه خاص.

لكن يبقى التأكيد على أن الاستمساك بتلك الخصوصية وتجديدها ينبغي أن يكون بقلوب مخلصة وعقول منفتحة، وعلم بالثوابت والحقائق التي تشكل بنيتها، وتعلي مقاصدها وغاياتها في الاجتماع البشري، وترجمة ذلك إلى واقع عملي.

وتتجلى قيمة الخصوصية الإيمانية في ترسيخ اليقين في أعماق الضمير الفردي والاجتماعي، وهي خصوصية لا تلغي المخالف، أو تصادره، أو تقصيه، لكن تلتقي معه بالتعارف والتفاهم والتعاون على القواسم المشتركة والمصلحة العامة، وهو ما يحتم الالتفات عن دعاوى إضعاف هذا المقوم على أية صورة، وهو ما ينادي به بعض دعاة التغريب.

وتبقى الحقيقة في أن بعث الهوية بمشتملاتها والتجديد الإيماني المستنير يغرس الانتماء والولاء للمجتمع والأمة والدولة ؛ بما يعمل على تقدمها، وهو على رأس المقاصد وقمتها.

٢- تربية الفرد على الثقة بالله والثقة بالنفس وتحمل المسئولية :

الثقة في مفهومها المطلق اعتداد واعتماد على قدرات الذات وإمكانياتها

---

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٨٩٤٤.

لنجاح المسعى وتحقيق الهدف الذي تصبو إليه، فهي شعور وجداني وسلوك عملي يملأ النفس ويمدها بالطاقة في رحلة الحياة الممتدة.

وأعظم مصدر للثقة ورأس الأمر كله الثقة بالله تعالى، فمنها يتفجر ينبوع القوة ويتجلى فيه برهان الاعتماد على الركن الركين، ويكون عون صدق على صحة المسعى، ولا غرو فهو آية على حقانية الذات في اعتقادها وعملها ومصيرها، وقد تبوَّأت الثقة بالله هذه المنزلة الرفيعة؛ لكونها مستمدة من الإيمان بصاحب الأمر كله ومالكه، فقدرته مطلقة لا يعجزها ولا يعوزها شيء، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، فإذا تحلت النفس وأيقنت ذات الإنسان بهذه الثقة، كان لها من الطاقة والحيوية والمقدرة المعنوية والمادية، ما يجعلها تقهر الصعب، وتتغلب على الفشل، وتتخلى عن اليأس، فتحيل الهزيمة إلى نصر، والإخفاق إلى نجاح، والقنوط إلى أمل بغير حدود.

فالثقة بالله والثقة بالنفس ضرورية لازمة لزومًا لا ينفصل عن الشخصية المؤمنة، تبرز أهميتها في توجه العطاء إلى البناء الخلَّاق الذي يعمر ولا يخرب، وينفع لا يضر، ويكون مصدر سعادة ليس للفرد وحده ولكن للأهل والمجتمع والإنسانية، وتظهر الثقة في أجل صورها وقت الشدة؛ فتكون للمؤمن عونًا وملاذًا، تخرجه من الهم إلى الفرج، فينجو بها الشخص

---

(١) النحل: ٤٠.

من حالة الخوف والرعب الذي قد يحدثه الموقف المأزوم لما ينجم عنه من الخطر المحدق به من كل صوب، فلا مفر منه إلا بمعجزة تثبته وعزيمة صلبة وركن شديد يركن إليه ويعتمد عليه.

وبتلك الثقة التي اعتقد فيها وتخلق وتحلى بها أولو العزم من الرسل انتصروا على أعداء الحق وأنصار الشيطان، واحتلوا موقع الصدارة، وتحقق لهم الفوز في الحياة الدنيا والغلبة على الطواغيت الأشرار، وتمكنوا بها من إقامة مجتمعات المدينة الفاضلة.

يؤكد على هذه القيمة ما رُوي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال:[1] قوله تعالى:﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ ، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾[2]، فهذه الثقة التي عمرت بها هذه النفوس العظيمة، أمدتهم بعزيمة فولاذية لا تأبه للمصاعب ولا تعرف المستحيل، ولا تصاب بالقنوط أو الإحباط مما يعتري النفوس الضعيفة عند مواجهة الشدائد والمصاعب، وثبت بالتجربة أنها خير معين.

---

(١) رواه البخارى، حديث رقم ٤٥٦٣.

(٢) آل عمران: ١٧٣.

مسئولية الأسرة وتضافر المؤسسات على بناء الثقة، وتحمل المسئولية:

يقع على الأسرة باعتبارها القائمة على تنشئة الصغار وتربيتهم، والحاضنة لهم في مراحل حياتهم من مرحلة الطفولة مرورًا بمرحلة الصبا وحتى مرحلة المراهقة والشباب، القيام بالالتزام الرئيس في التربية الصحيحة، وذلك بالتوجيه والوقاية والتهذيب والتقويم إلى التأديب الرحيم(١)، وتعويدهم على الثقة بالنفس وتحمل المسئولية.

فلا يقبل ولا يتصور أن تتخلى الأسرة عن واجبها في هذا الشأن، ولا يبرر بحال للأم والأب أن يتقاعسا عن واجبهما تجاه الأولاد بأى عذر من الأعذار، ولا أن يوكلاه إلى غيرهما مهما كان هذا الغير؛ لأن فيه ضياعًا للصغار، ومخالفة لواجب فطري وشرعي ، ولما ينشأ عنه من البلاء والانحراف والجريمة، والواقع يزخر بالمآسي المترتبة عليه.

أما المخالفة للواجب الفطري، فتتأتى في أن الطبيعة السوية مدفوعة بحنين الأمهات والآباء الطبيعي إلى أولادهم، فهم الذين جعلهم الله سبحانه وتعالى سببًا في وجودهم في هذه الحياة، فكانوا جزءًا منهم وامتدادًا لهم، مما يجعل أمر القيام على تربيتهم مسألة طبيعية، كما تظهر المخالفة للواجب الشرعي في أن ما قرره المنهج القرآني عن تربية لقمان عليه السلام لولده يمثل ذلك الواجب الشرعي ويؤكده ، يقول تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ

(١) راجع: جرائم الأحداث في الشريعة الإسلامية، للباحث ص ٤٣ وما بعدها.

ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[1]، ففي الآية وما تلاها من آيات نموذج قويم يجب أن يحتذى به في أسلوب التربية السديدة والتنشئة القويمة بأداء حق الله تعالى، والتحلى بالفضيلة والصبر والعزيمة، وهو في مجموعه يشكل الطريق الصحيح إلى بناء الثقة، والاعتماد على النفس، وضبط الانفعال والسلوك في مواجهة أعباء الحياة، وبه يكون الشخص أهلاً لتحمل المسئولية.

ويجب ألا يقف أمر التربية المسئولة عند الأسرة وحدها، إنما تؤازرها وتساندها المؤسسات الدينية بأساليب الخطابة والوعظ والدروس وقوافل التوعية والإنترنت على الأصعدة المختلفة والفعاليات المتنوعة، كما يفعل الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف في مبادرات رائدة، وكذا فيما تقدمه دار الإفتاء وفيما تصدره من فتاوى راشدة.

ولا تقع المسئولية على المؤسسة الدينية وحدها، ولكن تعمل معها جنبًا إلى جنب مؤسسات التربية والتعليم من خلال المدارس والجامعات، بواسطة المناشط المتنوعة في القدوة السلوكية والجدية في قاعات الدرس والفنون والرياضة فكلها من عوامل بناء الشخصية.

يضاف إلى هاتين المؤسستين المؤسسة الإعلامية المرئية والمقروءة والمسموعة، بما تبثه من برامج، وفيما تعرضه أو تتناوله من مشاهد وأحداث

---

(١) لقمان: ١٧.

تشكل به الشخصية، كذلك الإعلام التقني بتأثيره الهائل عبر وسائل التواصل الاجتماعي " Social Media " الذي صَيَّرَ العالم قرية كونية واحدة.

ويمتد ذلك التأثير في بناء الشخصية الواثقة القادرة على العطاء بتوجيه الجهود نحو المشاركة في عملية البناء الاجتماعي بمعناه الشامل إلى مؤسسات الثقافة والفنون، فلها دور فاعل في تقديم نماذج ورموز الوطن عبر العصور، والذين عاشوا في ضمير الأمة ووجدانها برؤاهم وجهودهم البناءة، وما تقدمه من تشخيص وأوجه علاج تنتصر للحق والقيم، مما يحدث طفرة في المجتمعات ومسيرة الأمم تسهم في بناء الحضارة.

حتمية تحمل المسئولية من أجل التغيير:

يجب بعث الثقة في النفوس وتهيئتها لتحمل المسئولية ، وذلك بالعمل الجاد المخلص لتقدم المجتمع ، سواء على مستوى العمل الفردي أو العمل الجماعي ، فيتحمل الفرد والجماعة المسئولية بعزيمة لا تلين تحقيقًا للأهداف ، مصداقًا للسنة الإلهية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] ، فقد بات ضروريًّا أن يقوم كل في مجاله بالتوعية الرشيدة والقدوة الحسنة في تحمل المسئولية لتحقيق الأهداف المنشودة.

فهذا ما يوجه إليه الحديث الشريف ، فيما أرشد النبي ﷺ عبد الله بن

---

(١) الرعد: ١١.

عباس: " يا بنى إنى أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك"[1].

فما على الشخصية الواثقة بقدرها وقدرتها إلا أن تكون محددة للهدف لنفسها ولمجتمعها، ماضية بثبات وجلد وصبر لبلوغه، مستمدة الطاقة والعزيمة على تحمل المسئولية، تقدم البرهان والدليل على قدرتها على العمل النافع ومواجهة الأزمات بتأييد الله وعونه، لسلامة مقصدها ومشروعية وسيلتها إليه، لا يفت شيء في عضدها، غير عابئة بالمثبطين والمشككين.

فإذا أيقنت النفس ذلك تحقق مرادها في النجاح، وأنه لا أحد يثنيها عن تحقيق غايتها، وأن ما ينتج عن سلوكها من نفع فتعظمه أو من ضرر يجب تجنبه فهذا دأب الفرد الصالح المصلح، فلديه العزيمة الواثقة بأنه لن يقف في طريقه أحد حيث إن النافع والضار هو الله (عز وجل).

تحمل المسئولية:

وهي نتيجة طبيعية للتحلي بالثقة وطريق مؤدٍّ إليها، وهي أن يلتزم الفرد بأن يتحمل نتيجة أقواله وأفعاله وتصرفاته تجاه ربه وتجاه الناس، فهي استعداد حياتي يشعر الإنسان بقدرته على أن يثبت لذاته وللآخرين من

---

(١) سنن الترمذى، حديث رقم ٢٥١٦.

حوله أنه يملك أمر نفسه ، وأنه قادر على النفع والإصلاح ، وصانع لمسار حياته ومجتمعه بتوفيق الله ، فهو يدبر أمره في تصرفاته كلها، وأنه أهل للثقة به والاعتماد عليه.

وقيمة تحمل المسئولية خاصية مميزة للإنسان تجعله مختلفًا عما سواه من الكائنات الحية، التي تتصرف بتلقائية وعفوية دون إدراك، ولا تُسأل عن تحمُّل نتائج أفعالها، وبقدر القيام بها تقوى الأمة.

فتحمل المسئولية ثمرة من ثمرات نعمة العقل والفكر في الإنسان، تجعله ذا أهلية بواسطة قصده وإدراكه، وإتقان عمله وحسن سلوكه، والتبصر بعاقبة تصرفه ، وهو ما أهله لحمل أمانة التكليف والاستخلاف في الكون، وتعميره وتنمية مستوى الحياة فيه، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (١).

ويتطلب أداء ذلك عدم السلبية واللامبالاة بالمصلحة العامة، والعمل غير المتقن، وإنكار ذلك، وهو ما يجعل الإنسان مؤهلاً لحمل الأمانة والقيام بأعبائها، ويكون أهلاً للثقة به، والتعويل على إمكانياته الذهنية والجسدية لأداء متطلباتها، وإلا كان حقيقًا بالمساءلة: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾(٢).

---

(١) الأحزاب : ٧٢.

(٢) الصافات: ٢٤.

وهذا بحسب الإنسان الذي يتمتع بملكات خلاَّقة لتؤدي وظائفها على الأرض، فإذا تعطلت ملكاته الواعية والمفكرة، فإن الشريعة تعفيه من المسئولية بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وبقول الرسول ﷺ: "رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبى حتى يبلغ" (١).

أحوال المسئولية:

لا يتصور أن تستقيم الحياة بلا مسئولية، فهي من مقتضى الوجود الإنساني، ومناط أهليته ومظهر تكليفه وقيامه بواجباته الناشئة عن تمتعه بالحقوق والعطايا الربانية؛ إذ كل حق يقابله واجب، فلا يتخلى عن واجباته في علاقاته ومعاملاته مع غيره من الناس، يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٢)، ومتى كان الأمر كذلك، فإن الواجب الثقة بأهليته وأحقيته في إدارة شئون حياته، حيث يكون مسئولاً عن سلوكياته، قادرًا على تحمل أعبائها، لا فرق في ذلك بين الفرد أو الجماعة، يقول تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾(٣)، وتتعدى هذه المسئولية

---

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٩٥٢، ٩٦٨.

(٢) القيامة: ٣٦.

(٣) القيامة: ١٤-١٥.

إلى ما يُكلَّف به من أعمال، وإلى سائر واجباته الحياتية.

ويكشف ذلك عن بعض صور المسئولية، فهي تتنوع إلى فردية وجماعية، فالمسئولية الفردية يُسأل عنها الشخص وحده دون غيره، يعبر عنها النص القرآنى في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٢)، ألاَّ تحمل نفسٌ ذنبَ نفسٍ أخرى، فهي مسئولية شخصية يُؤاخذ وحدهَ بها دون مشاركة آخر، ولو كان أقرب الناس إليه.

كما تتنوع إلى مسئولية جماعية، حيث تتحمل الجماعة مسئولية فعلها، فتحُاسب به، وتُؤاخذ عليه، ومما يستدل به على المسئولية الجماعية فروض الكفاية إذا لم يقم بها البعض أثم الجميع، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (٣)، وفي حديث الرسول ﷺ: " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئوله عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته" (٤).

---

(١) المدثر: ٣٨.

(٢) فاطر: ١٨.

(٣) الفجر: ١٨.

(٤) صحيح البخارى، حديث رقم ٨٩٣، وصحيح مسلم، حديث رقم ١٨٢٩.

وبسبب تعدد المسئوليات وكثرة الأعباء وثقل الأمانة المكلف بها الإنسان، فإنها تنقسم كذلك في المنظور الإسلامى إلى مسئولية دينية ومسئولية حياتية، فالمسئولية الدينية تبرز في كونها مسئولية أمام الخالق (عز وجل) على سند من حق الألوهية للمؤمن، وحق الربوبية لغير المؤمن، فكل إنسان مسئول يقينًا عن قيامه بواجبه نحو خالقه أم لا.

وبالإضافة إلى المسئولية الدينية هناك المسئولية الدنيوية عن سائر تصرفاته وسلوكياته مع الناس، تتسع باتساع نشاطه وحركته في الحياة بدءًا من أقرب الناس إليه، مع أهله وجيرانه، مرورًا بمن يتصل بهم ويتعامل معهم بخير أو شر، فهي مسئولية في أموره الخاصة وكذا الأمور العامة، وتمتد أيضًا إلى من يتعامل معهم في أسفاره وفي مهامه المتعددة، وعبر الأثير وشبكة المعلومات الدولية بكل ما تحتوى عليه من فنون وجنون، فكل إنسان مؤاخذ بذلك مجازى عليه، قال تعالى:﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[1].

قيمة تحمل المسئولية:

تجعل المسئولية للحياة معنى، فبدون المسئولية تتحول الحياة إلى عبث وفوضى، فهي ذات ارتباط وثيق بحياة الإنسان من حيث إنه كائن مسئول، وعلى قدرها تكون الثقة فيه، واحترام المجتمع له، وإنزاله المنزلة اللائقة به.

---

(١) النجم: ٣٩-٤١.

ويظهر أثر تحمل المسئولية في انتظام وضبط حركة الحياة، ويُبرز قدرة الإنسان على حمل الأمانة المكلف بها، وحقه في الإرادة والاختيار، وفي ممارسة حريته من منطلق مسئوليته عنها بلا خوف أو تردد، كونه قادرًا على القيام بحقها، فهي تكليف اختص به وحده دون سائر الكائنات.

وبتحمل المسئولية يكون الفرد والمجتمع محددًا لمسار حياته، واثقًا من قدرته، حاميًا لأيديولوجيته وهويته، مخلصًا لها، حريصًا عليها، يعمل بإرادته على تقدم مجتمعه وتنميته بصفته خليفة الله على الأرض، وبذلك يكون محل احترام لنفسه، صادقًا معها، متوازنًا في شخصيته، نافعًا لمجتمعه، حاملاً للمنهج الإلهي في الكون، مستحقًّا للكرامة الإلهية.

الفرد في نطاق الاعتراف الدولى:

أدرك النظام الدولي في العصر الحديث قيمة الفرد وأهميته، على غرار ما قرره الإسلام منذ نزول رسالته، فهو يوسع المسئولية ويجعلها في الأساس فردية، على سند مما شرعه له من الحقوق؛ لذلك وجد النظام الدولي أنه لا مناص من الاعتراف بالفرد باعتباره شخصًا دوليًّا، فهو الأساس المكون للدول والمنظمات الدولية.

هذا المنحى في الاعتراف بالأحقية للفرد أرساه الإسلام، الذي يجعل الفرد مصدر كل تنظيم وأساسه، إذ لا تعدو الأمم والدول والمنظمات الدولية أن تتكون من مجموعة أفراد في أصل نشأتها، وفي القيام بإدارة شئونها

وتسيير أعمالها، وقد نبه على هذه المسئولية - بالانتصار لحق الإنسان في الكرامة وعدم التمييز ضده - ما جاء عن الرسول ﷺ : " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم ، لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تعاهدوا فيه بنصرة الضعيف وألا يقهر ظالم مظلومًا "(١).

٣- اكتشاف مواهب المبدعين وتأهيلهم للنبوغ والعبقرية:

يقف الإنسان مندهشًا أمام ما تشهده المدنية الحديثة من طفرات علمية وتكنولوجية، خاصة في جانب العلوم التطبيقية، ومخرجاتها من المخترعات والابتكارات والإبداعات، بالإضافة إلى المعارف الجديدة في مجال العلوم الاجتماعية والدراسات الإنسانية.

وتدل الظاهرة العلمية والتكنولوجية غير المسبوقة على الجهد الدءوب لاكتشاف المواهب الإبداعية عن طريق البحث بكل سبيل للتعرف عليها، وتقديم العديد من أساليب التحفيز لها، وتنمية موهبتها لكي تنتج الجديد في مجالات العلم والمعرفة.

واستهدف هذا الاهتمام المعاصر باكتشاف ورعاية التفوق والتميز في عالم المعرفة، وتحقيق السبق وبز الآخرين بالاستفادة بمنجزات الحضارات الإنسانية اليونانية والرومانية والإسلامية وغيرها، والتي أسهمت في التمهيد للحضارة الحديثة، والاستفادة من منجزاتها في المعارف والعلوم المختلفة ،

---

(١) سنن البيهقي، قسم الفيء والغنائم ، حديث رقم ١٣٤٦١ .

وتوجيهها إلى السيطرة وإضعاف الآخرين.

فقد ثبت من واقع الملاحظة والاستقراء أن التقدم التقني يمثل تحديات الاستغلال لمواردهم والسبيل لمواجهة هذه التحديات ومعالجة الأزمات هو رعاية النبوغ والحفاظ عليه، ومنع اختطاف الدول المتقدمة للنابهين إمعانًا في احتكار التقدم والسبق والريادة، إذ لم تجد المدنيات والحضارات التي أنتجتها البشرية طريقًا أكثر فعالية ونجاحًا من طريق تتبع الموهوبين والمبدعين والعناية بهم، فهم الحصان الرابح لكسب معركة البناء واستباق الآخرين، وابتكار الحلول للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تواجهها شعوب تلك الحضارات.

وإن توجيه القرآن الكريم إلى طلب العلم والدعوة إلى التنافس فيه، لدلالة على تشجيع أصحاب العقول المفكرة من الموهوبين والمبدعين في مجالات العلم والمعرفة المختلفة، نجد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١)، بما يدل على بذل كل جهد لتحصيل العلم النافع وعدم التوقف عنه، فهو مطلب دائم ومستمر، وسبيل الرفعة كما في قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢).

---

(١) طه: ١١٤.

(٢) المجادلة: ١١.

فالعلم المقرون بالإيمان هو الأساس في الرفعة والمكانة العالية عند الله تعالى، وجاء الاهتمام صريحًا بالعلم التطبيقي في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1].

مفهوم الموهبة والإبداع:

الموهبة استعداد ذاتي وتفتح ذهني وعملي، نتيجة وجود طاقات مبدعة تفوق القدرات الفعلية الموجودة لدى الأشخاص العاديين، فالموهوب هو إنسان متفرد عن الأشخاص العاديين أو النمطيين، حيث يمتلك قدرة ونشاطًا يميزه عن أقرانه بتفوقه عليهم، مع إمكانية الإبداع المستمر.

هذا النمط من الموهوبين تجده في الناشئة والشباب، وهو ما يتعين على الأسرة والمدرسة والجامعة والمراكز الإنتاجية والخدمية والمؤسسات المختلفة في المجتمع والدولة اكتشافهم، وتوفير بيئة حاضنة لهم، ورعايتهم على الدوام، إذ يؤمل من الموهوب الإسهام في تقديم حل للمعضلة، أو عمل مبتكر يقدم معرفة جديدة تنفع المجتمع أو البشرية.

---

(١) فاطر: ٢٧-٢٨.

وعلى حين تشير الموهبة إلى استعداد فطري لدى الشخص تجعله جديرًا بالرعاية والمتابعة، ففيها كسب وإثراء للمجتمع، فإن الإبداع كما يقول العالم " جوان " : مزيج من القدرات والاستعدادات والخصائص الشخصية التي إذا وجدت في بيئة مناسبة يمكن أن ترقى بالعمليات العقلية إلى نتائج أصلية ومفيدة للفرد والمجتمع، فهنا يكمن الإبداع في القدرة على إيجاد حلول لمشكلة أو ابتكار أداة جديدة أو أثر فني أو أسلوب جديد(١).

فالإبداع إذًا ينتقل بالفكرة أو الموهبة إلى حيز الحقيقة الملموسة، والمبدع الموهوب مسوق إلى السبق في مجال من المجالات، سواء الأدبي أو الفني أو الاختراع العلمي أو أي مجال آخر، ودلالة ذلك أن الموهبة والإبداع قرينان يتكاملان في الارتقاء والتطوير، وتحسين عملية إنتاجية أو خدمية، أو تقديم حل لمشكله اجتماعية أو اقتصادية قد تخرج المجتمع من الضائقة أو الأزمة التي يعاني منها، وتقوده إلي السبق والريادة.

ويزداد التنافس في العالم المتقدم نحو الاهتمام والرعاية للموهوبين والمبدعين لما في اكتشافهم من تحقيق التقدم والازدهار للمجتمع؛ ولذلك تتخطف هذه الدول النابغين في علم أو فن لما يعطونه من تطوير في الفكر والسبق في المجالات المختلفة العقلية والتجريبية والإنسانية، إذ المعلوم في

---

(١) الموسوعة البريطانية، مشار إليه في بحث: الحوار المتمدن، فتحي سيد فرج، العدد ٣٥٩٧ لسنة ٢٠١٢م، ص ١٥.

الواقع المعاصر أن التطورات المتلاحقة في مجالات العلم والمعرفة منشؤها رعاية الموهبة والإبداع، والاجتهاد في الإكثار من الموهوبين والمبدعين، إذ يوجد تلازم بين الإبداع والتقدم، وهو الشغل الشاغل للمجتمعات المتقدمة.

دور الموهبة والإبداع في عطاء الإسلام:

أدرك الرعيل الأول الذي حمل رسالة الإسلام الدينية والمجتمعية فقه العلم فشمروا عن ساعد الجد في كل مجالات الحياة، فقد رُبِّى هذا الجيل على نمط غير مسبوق، فقد وجدوا القرآن يتنزل بالتدريج على مرأى ومسمع منهم، وهم على علم بأسباب نزول آياته، وبيان مراد الله تعالى منها، فتعلموا التفسير والتأويل، فهم الراسخون في العلم الذين أشار إليهم القرآن: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

وتنامت معارفهم وصقلت بالواقع الذي كان يعج بالعديد في المجتمع الوليد، فقد كانت حياة يومية عاشها كل واحد منهم ما بين أمور عقائدية، ومشاكل اجتماعية، وتحديات دعوية؛ فهبوا في الدفاع عن الوجود، وواجهوها بقوة وصلابة وأريحية، وتحملوا المسئولية عن إيمانهم بكل ما وسعهم الجهد من عزيمة وصدق ورضا وقبول.

وفوق ذلك، فقد كان معلم البشرية الرسول محمد ﷺ يحيا بينهم

---

(١) آل عمران: ٧.

واحدًا منهم يقدم الأسوة والقدوة لهم، رأوا بأبصارهم كيف واجه التهديد الذي زلزل وجودهم، وحتى ضد صاحب الرسالة تارة بالإغواءات وتارة أخرى بالإغراءات وهو لا يتزحزح قيد أنملة، ولا يلمحون عليه أى التباس في مواقفه الدعوية والحياتية.

ولا شك أن مرحلة الأزمة التي كان يعيشها الإسلام أكسبتهم خبرة عريضة، وهم الشباب في أول عهدهم بالحياة، علمًا وتجربة وتفوقًا في التعامل مع الأحداث ومواجهة المشاكل، ويمكن القول بموضوعية: إن شباب الصحابة (رضى الله عنهم) في مهد الدعوة هم في معظمهم من الفاقهين الفائقين النابهين الذين أوتوا من الاستعداد الفطري، والذكاء العقلي، والتميز المعرفي، والخصال المتفردة في الشخصية ورجاحة العقل، والقدرات والطاقات الخاصة بكل منهم، وطريقة تعاملهم مع المعضلات وما أكثرها، ما يجعلهم بكل المقاييس في عداد الموهوبين والمبدعين.

والبرهان على هذه الحقيقة سهل ميسور، تجده في العديد من المواقف، من بينها: تصرف أبي بكر الصديق ﷺ عند تكذيب المشركين لحادثة الإسراء والمعراج ورده عليهم بما أفحم حجتهم، وسَفَّه به رأيهم، بقوله: إن كان قد قال فقد صدق، إننا نصدقه فيما هو أبعد من ذلك، وهو خبر الوحي من السماء.

وكذلك تعامل أبي بكر الصديق ﷺ في حادث الهجرة، وكيف أخفى خبر صحبته للرسول ﷺ وقدم لوالده كيس الحصى، الذي أخبره بأنه دراهم

ودنانير تركها لأهله ليدخل الطمأنينة على قلبه، وكذلك في إحاطته بالرسول ﷺ من كل جانب خوفًا على حياته من المتربصين به والمطاردين له من المشركين.

وها هو موقف عمر ﷺ القوى في المجاهرة بإعلان إسلامه، مما أضاف للمسلمين قوة في وقت كانت المجاهرة باعتناق الإسلام جريمة لا تُغتفر، وكذلك موقف التحدى في الكعبة عندما أراد الهجرة إلى المدينة، واستعداده أن يقاتل كل من يقف في طريقه.

كذلك في موقف عثمان ﷺ ، فقد انخلع عن قبيلته الثرية واعتنق الإسلام لحجة راجحة لديه، وإيمان راسخ بصدق الرسول ﷺ وصحة الرسالة، وفي موقفه في وفادته إلى قريش للتفاوض معهم لأداء العمرة قبل الصلح الذي تم بعد ذلك، إلى غير ذلك.

نلمس مثل ذلك في موقف عليّ ﷺ ، الذي كان عبقرية حربية في مبارزة خصوم الإسلام ، وعبقرية علمية ، وما كان من مبيته في فراش الرسول ﷺ وتلحفه بالبردة ، بدلاً من الرسول ﷺ حتى تمكن من الخروج من مكة.

كذلك في موقف جعفر بن أبي طالب ، وقوة حجته أمام النجاشي ملك الحبشة عند هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة، وتأكيده على انبثاق الإسلام والمسيحية من مشكاة واحدة في تبليغ رسالة الإيمان وقيم الخير

والهداية، وهو ما صدَّق عليه النجاشي ورفض تسليم المسلمين لقريش، ودحضه لمقولة عمرو بن العاص الذي كان وقتذاك مشركًا وممثلاً لزعماء مكة وقريش.

هذه المواقف وغيرها للصحابة الشباب في أعمارهم النابغين في عبقريتهم، مكنت للدين المحاصر بالحجة وبالموقف، فأقام الله بهم مع رسول الله ﷺ الدين، وأظهره على الدين كله، وشيَّد صرح دولة المدينة التي لم يعهد لها مثيل في عبقرية التعايش السلمي والمواطنة وقبول الآخر.

الرعاية النبوية للموهبة والنبوغ:

كانت شخصية الرسول محمد ﷺ عظيمة في كل أحوالها، فهو نموذج يحتذى في العلم اللدنى، والخلق القويم، رحمة وتسامحًا وصبرًا، وحنكة وحكمة على غير مثال، خبيرًا بطبائع الناس، أوتي البصيرة النافذة في معالجة مواقف البأس والشدة، لديه من الفصاحة والبلاغة والحجة ما أقنع الخصوم والقلوب النافرة العصيّة على الاقتناع والقبول بالدعوة الإسلامية.

نزل الوحي على شخصية فاقت العبقرية والعظمة البشرية، وحسبها النبوة الخاتمة فدعا إلى الله على بصيرة ، وهدى الله به خيرة الرجال والنساء، الذين وجدوا فيه الهداية إلى الصراط المستقيم، عرف الرسول ﷺ كيف يفجر مواهب أصحابه، وخبر شخصية كل واحد منهم، وتعهدها بالعناية والرعاية، فأخرج من بينهم العباقرة النابغين، الذين آثروا الإسلام على

أنفسهم، وجعلوه حياتهم فكانوا فداء للدعوة والرسالة.

حَرِصَ الرسول ﷺ على أصحابه حِرْصَ الرسولِ المعلمِ للنابهين من الأتباع ؛ فأعطى كُلاًّ منهم ما يستحق من الخصال والسجايا التي انطبع عليها، فجاء عطاؤهم وجهادهم في سبيل الدين ومعرفتهم بمقاصده وسياسة الناس والتعامل معهم على أفضل ما يكون.

واتساقًا مع هذا المعيار المنضبط العادل الحكيم والرشيد، أنزل كل منهم المنزلة اللائقة به ، بما يتناسب مع الجانب الذي فاق أقرانه فيه ، مع نعته لهم جميعًا بأنهم نجوم في سماء الإسلام ، " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم "(١).

لقد ارتضوا هذه المنزلة وسعدوا بها أيما سعادة، كما قبلوا أن يكون كل منهم في المنزلة التي وضعه فيها الرسول ﷺ بمعايير غاية في الانضباط، فوضع أبا بكر ﷺ على رأس صحابته منزلةً ورتبة، فهو الصديق المحنك المؤمن الذي لا يعدله في شدة إيمانه الأقران ، فأمر صحابته أن يخلفه أبو بكر ﷺ في الصلاة بهم عندما اشتد عليه المرض ، فإن منزلته في الولاء للإيمان بالدين تفوق كل إيمان، فقال الرسول ﷺ : " ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبيًّا" (٢).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٥٣٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ٣/ ١٩١ .

وتبوأ عمر الفاروق ﷺ المنزلة الثانية في الرفعة والفضل، فقال عنه الرسول ﷺ : " إن يكن بعدى محدثون فهو عمر"، وقال: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"[1]، وهي مكانة سماوية رفيعة. كما قال عنه: "لم أرَ عبقريًّا يفري فَريه".

وخص عثمان ﷺ وحده بمزية زواج ابنيته رقية وأم كلثوم، بما لم يظفر به أحد من الصحابة، فهو الملقب بذى النورين، وبشره بالجنة والجائزة الكبرى عندما جهز جيش العسرة في غزوة تبوك من ماله، فقال ﷺ : " ما يضير عثمان ما فعل بعد اليوم"[2].

أما علىّ بن أبي طالب ﷺ ، فقد آخاه بعدما هاجر إلى المدينة، عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، وقال له: " أنت أخي ترثني وأرثك" ، فلما نزلت آية الميراث قطعت ذلك.

وتمضي المسيرة النبوية في صناعة الإبداع، واكتشاف العبقرية والموهبة غايتها ، فقد بزت في صقلها وإخراج كنوزها الأنظمة الأخرى، تجلت في العديد من شخصيات الصحابة الكرام، ليكونوا بحق الجيل الأول والعملة الذهبية في مسيرة الإسلام الظافرة[3].

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد ٣/ ١٩٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١١٩.

(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد ٣/ ١٤.

ومن هذه السلسلة الذهبية الصحابي أبو عبيدة بن الجراح ﷺ ، أحد العشرة المبشرين بالجنة، الذي لقبه الرسول ﷺ بأمين الأمة، فقال: " لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح"، وعلى ذلك الدرب نعت الرسول ﷺ أبي بن كعب بقوله: " أقرؤكم لكتاب الله أبي"، وقال : "أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل" ، وقال عن زيد بن ثابت : "وأفرضكم زيد" يعنى الأعلم بعلم الفرائض والمواريث.

ولا ينتهي النبوغ ولا تختفي العبقرية في حملة مسيرة ومسار الدين الخاتم، وما كان لمدرسة النبوة أن تتوقف عن العطاء والأداء العبقري في ذلك الزمن الذي ظل الرافد والمنبع لتلك الشخصيات من بناة الحضارات، فهم خريجو هذه المدرسة النبوية بفكرها البناء واهتمامها الرائد في حسن بناء الإنسان على طراز فريد، باتباع نموذج الهدي النبوي، وهو الحقيق ببناء الموهوبين والمبدعين على منهاجه، وأحرى بالفرد والمجتمع وكل مسئول أن يتبع هذا المنهج في طريقته ونموذجه ومقاصده في ظل ما طرأ على العصر من متغيرات، وهو ما ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار.

* * *

□

دور الأسرة في تعزيز الانتماء للوطن *

الحمد لله رب العالمين، وأصلى وأسلم على أشرف الخلق وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد ،،

فإن حب الوطن فطرة إنسانية، وعادة سوية، وقيمة شرعية، ويمكن القول بأن حب الأوطان من الإيمان، ذلك أن الإنسان من طبيعته ألا يعيش وحده ، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾(١)، ولا يمكن أن يوجد شعب إلا على أرض، والإنسان تكونه الأسرة، وهي التي تبذر فيه جذور القيم التي يستحيل اقتلاعها من حب دينه وأسرته وأقاربه ووطنه، وكل قيم الإصلاح والتنمية، والخضوع لله رب العالمين، بل هي الحاضنة الأولى للبناء والتربية، ودورها ينقش قيم المواطنة والقيم المجتمعية في وجدان الأبناء، ويكون ذلك ببيان نعمة الوطن ومقارنة وضعهم بمن ضاعت أوطانهم، وغير ذلك مما يجعل الطفل ينشأ نشأة صالحة تعود على الأسرة والوطن والناس أجمعين بالخير، وقد عنى البحث ببيان ذلك تفصيلا.

---

* كتب هذا البحث: الأستاذ الدكتور/ إبراهيم صلاح الهدهد- الأستاذ بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف-مصر.

(١) الحجرات: ٣.

مفهوم الأسرة

إن الأسرة في الإسلام هي الوحدة الأولى في المجتمع المسلم، التي تكون العلاقات، وفيها ينشأ الفرد اجتماعيًّا، ويكتسب فيها كثيرًا من المهارات والمعارف، ويبنى فيها وجدانه واتجاهاته في الحياة، ويجد فيها أمنه وسكنه[1]، والقيم الأسرية تؤدي إلى انسجام الأسرة، واستقامة أفرادها، وذلك بالانتماء للدين، والانتماء للأسرة، والانتماء للوطن، ومن القيم الأسرية في الإسلام بالإضافة إلى ذلك:

- الزواج: والزواج هو الميثاق الغليظ وهو الطريق الوحيد لتكوين الأسرة، ولابد فيه من ولي وشاهدين.

- صلة الرحم : وهي من القيم الأسرية المهمة، والرحم هنا كل الأقارب من جهة الأب وجهة الأم، وصلة الرحم توثق صلة الفروع بالأصول في المجتمع المسلم، وعدم العمل بهذه القيمة إفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾[2].

- البر بالوالدين : وقد جعل القرآن الكريم هذه القيمة في المنزلة بعد توحيد الله (عز وجل)، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ

---

(١) ينظر: نظام الأسرة في الإسلام، محمد عقلة ص ٨، ط عمان، سنة ١٩٨٩م.

(٢) محمد: ٢٢.

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1]، وهذه القيمة توثق علاقة الفروع بالأصول.

- صلاح الأبوين أفضل قدوة للأبناء، فصلاح الآباء ينفع الأبناء.

- حسن الجوار: ما من ريب في أن حسن الجوار يعين على التماسك الأسري.

- طاعة الله وتقواه : فإن طاعة الله وتقواه ينبغي أن تكون المظلة التي تستظل بها الأسرة المسلمة.

- قيام الزوج بمسئولية القوامة: فالقوامة مسئولية لا سلطة.

وغير ذلك من منظومة الأخلاق الإسلامية، والالتزام بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه.

ويذكر الباحثون أن السنوات الست الأولى من عمر الطفل هي الأمثل لغرس القيم الصالحة، مثل الصدق والأمانة والاستقامة والرضا بقضاء الله وقدره والانتماء، وغيرها من القيم.

ويجب المداومة على تأكيد هذه القيم والأخلاق والمفاهيم بالتكرار والقدوة، فيجب على الوالدين أن يجعلا من أنفسهما قدوة فيها، فللقدوة أثر بالغ في ترسيخها.

والقيم الأسرية الإسلامية هي السلاح الأوثق في مواجهة هدم القيم، فعلى سبيل المثال الزواج في الإسلام يواجه المثلية، والبر بالوالدين وطاعتهما

---

(١) الإسراء: ٢٣.

يواجه ما يسمى بالسلطة الأبوية، والإيمان بأن الله كلف المرأة بما يلائم طبيعتها والرجل بما يلائم طبيعته يواجه التطابق، فالقيم المنضبطة هي التي تواجه الانفلات والحرية غير المنضبطة، وحب الأوطان يواجه عداءها، والإصلاح في الأرض يواجه الإفساد فيها، ويواجه بقيمة الاستخلاف المقتضية أعمارها، والتماسك الأسرى يواجه التفكك الأسري، إذ الأسرة هي المستخلفة في الأرض، وهي المنوط بها إعمارها.

مفهوم القيم

يستخدم مصطلح القيم والقيمة والأحكام القيمية في مجال الدراسات التربوية إلى جانب مصطلح أخلاق.

والقيم في اللغة : جمع قيمة، وأصلها الواو من مادة (ق و م)، والقيمة ثمن الشىء بالتقويم، وسمي الثمن قيمة لأنه يقوم مقام الشيء، وفي القرآن الكريم: ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ [1]، أى: دينًا مستقيمًا لا عوج فيه، قال الراغب: أى: ثابتًا مقومًا لأمور معاشهم ومعادهم، ومعنى القيمة في قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[2]، أى دين الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة، وفي أساس البلاغة: القيمة ثبات الشىء ودوامه[3].

---

(١) الأنعام: ١٦١.

(٢) البينة: ٥.

(٣) ينظر: لسان العرب، والقاموس المحيط، وأساس البلاغة، والمفردات، مادة (ق و م).

وفي الاصطلاح : تعددت مفاهيم القيمة حسب الاتجاه في الاقتصاد والسياسة وعلم النفس، والقيم في اصطلاح التربويين : " محطات ومقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال والموضوعات والمواقف الفردية والجماعية من حيث حسنها وقيمتها والرغبة بها، أو من حيث سوئها وعدم قيمتها وكراهيتها، أو من حيث منزلة معينة ما بين هذين الحدين "(١).

القيم الإسلامية : هي " مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة والإنسان والإله كما صورها الإسلام، تتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الحياتية المختلفة، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته تتفق مع إمكانياته، وتتجسد من خلال الاهتمامات أو السلوك العملي بطريقة مباشرة وغير مباشرة (٢).

مصطلحات ذات اتصال وثيق بالقيم :

مصطلح الأخلاق: وهو من المصطلحات ذات الصلة بالقيم والتربية، وتعد مكارم الأخلاق هي مجموعة القواعد السلوكية التي تحدد السلوك الإنساني وتنظمه بما يحقق إنسانية الإنسان، لذا لا يمكن أن تكون الأخلاق الفاضلة نتاج عقل، إذ إنه يتسم بالأنانية، وتضخيم الذات، وطغيان الغرائز،

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية، ماجد الكيلانى ص ٢٩٩.

(٢) القيم الإسلامية والتربية، د/ على خليل ص ٣٤.

والتباين في الآراء، وتغليب المصالح؛ لذا جاء وحي السماء بالقيم والمثل العليا، ورسّخ قواعدها، وأرسل المرسلين لتطبيقها واقعًا عمليًّا في حياة الناس، وكان الإسلام تمام رسالات السماء، وكان الرسول ﷺ أكمل المرسلين خلقًا، من هنا نحن مع من يقول إن الأخلاق في الإسلام هي: "مجموعة القواعد السلوكية التي تحدد السلوك الإنساني وتنظمه، وينبغي أن يحتذيها الإنسان فكرًا وسلوكًا في مواجهة المشكلات الاجتماعية والمواقف الخلقية المختلفة، والتي تبرز المغزى الاجتماعي لسلوكه، بما يتفق وطبيعة الآداب والقيم الاجتماعية السائدة[1].

وفي تراثنا الماتع مصطلحات كثيرة تتصل بالقيم والتربية الإسلامية، ومنها:

مصطلح التنشئة: ويُقصد به تربية الإنسان ورعايته منذ الصغر، وممن استخدم هذا المصطلح العالِم عبد الرحمن بن خلدون (المتوفي سنة ٨٠٨هـ) في مقدمته الشهيرة.

مصطلح الإصلاح: ويعني التغيير إلى الأفضل، وهو ضد الإفساد، ويُقصد به العناية بالشيء، والقيام عليه، وإصلاح اعوجاجه.

مصطلح التأديب أو الأدب : ويُقصد به التحلي بالمحامد من الصفات والطباع والأخلاق، والابتعاد عن القبائح، ويتضمن التأديب معنى

---

(١) دراسة لبعض المشكلات التى تعوق الوظيفة الخلقية للمدرسة الثانوية، عبد الودود مكروم، رسالة ماجستير جامعة المنصورة، سنة ١٩٨٣م، ص٢٢.

الإصلاح والنماء، وهنا نلاحظ أن مصطلح الأدب أو التأديب وثيق الصلة بمصطلح التربية؛ حيث يمكن أن تُشتق منه تسمية المعارف آدابًا، وتسمية التعليم تأديبًا، وتسميةُ المربى أو المعلم مؤدبًا، وقد جاء في الحديث: " لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع "[1]، وفي حديث آخر" ما نحل والد ولدًا من نحل أفضل من أدب حسن " [2] وفي سنن ابن ماجه: "أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم " [3].

مصطلح التزكية: ويعنى تطهير النفس من أدران الشرك ومساوئ الأخلاق، وملأَها توحيدًا وإخلاصًا وحبًّا وسلامًا، ورأفة ورحمة ورفقًا وشفقة، وإحسانًا لكل إنسان، وبرًّا ببني البشر إلا من ظاهرنا بالعداوة، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[4].

إن الحق سبحانه قد مدح من أخذ نفسه بالتزكية في أكثر من آية، قال تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [5]، وقال أيضًا: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[6]،

---

(١) رواه الترمذى في سننه، حديث رقم ١٩٥١.

(٢) رواه الترمذى في سننه، حديث رقم ١٩٥٢.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، حديث رقم ٣٦٧١.

(٤) الممتحنة: ٨.

(٥) الأعلى: ١٤.

(٦) الشمس: ٩.

ومن هنا وجدنا في تراثنا علماء تزكية النفوس، أي: علماء التصوف، ومدارسهم التي تُعنى بتربية النفوس.

منطلقات التربية عند العلماء المسلمين

تنطلق التربية عند العلماء المسلمين من القيم الإسلامية، وهي تتميز بأنها مستمدة من الوحي السماوي، والأحكام الشرعية قائمة على الأمر والنهى، كما أنها تتميز بالشمول والتكامل، وتراعي عالم الإنسان وما فيه، وتستوعب حياة الإنسان من جميع جوانبها، كما أنها تتميز بالاستمرارية والعمومية، وتجمع بين الثبات والمرونة، وتتميز بالوسطية؛ فهي لا تضاد الفطرة البشرية ولا تلغيها، بل توجهها وترشدها وتفجر طاقاتها، فالمسلم مطالب بالتوسط في الإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2]، كما تتميز أيضًا بأنها ترتبط بالجزاءات الدنيوية والأخروية، وتقوم على الضبط والتوجيه والتنمية التربوية.

إن قيم الإسلام تعطي المسلم تحقيق ما هو مطلوب منه في إطار رسالة

---

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) القصص: ٧٧.

الإسلام، وتحقق له الشعور بالأمان، وتساعده على فهم العالم من حوله، وتمكنه من التعبير عن الذات، وتعمل على إصلاحه نفسيًّا، وضبط شهواته ومطامعه، وتسمو به فوق المادة، وتحفظ على المجتمع تماسكه، وتعينه على مواجهة المتغيرات من حوله.

وتنطلق التربية الإسلامية أيضا من عدة أسس:

١- أن الإسلام منهج حياة، وأن غايته إسعاد الناس في الدنيا والآخرة.

٢- أن الإسلام لا يعني أنه مجرد الصلة بين العبد وربه، لكنه توجيه شامل لحياة البشر.

٣- أن القيم الإسلامية هي المعبر الحقيقي عن ثقافة المجتمع الإسلامي.

٤- أن قيم الإسلام داعية إلى التقدم والإبداع والابتكار والإعمار.

٥- أن الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر، واستمدادها من وحي السماء قرآنًا وسنة، وأنها حفت بالعصمة، واتجهت لنفع البشرية.

٦- أن التربية الأخلاقية الإسلامية تقدم حلولاً لجميع المشكلات.

٧- أن منظومة الأخلاق في الإسلام منظومة تحقق العدل والمساواة والتسامح وبناء السلام بين كل أطياف المجتمع.

٨- أن التربية الإسلامية تهتم بالفرد وتحقق له احتياجاته، كما تهتم بالمجتمع.

٩- أن التربية الإسلامية توازن بين احتياجات البدن ومتطلبات

الروح، واحتياجات الدنيا واحتياجات الآخرة.

١٠- أن رسالة الإسلام جاءت رحمة للعالمين، وانطلقت من أن بني الإنسان جميعًا مخلوقون من نفس واحدة، وهو مما يوجب التعارف والتعاون والتواصل بين بني البشر أجمعين، وأنها جاءت بصيانة الدين والأنفس والأعراض والأموال والعقول.

الانتماء للوطن قيمة عظمى

ترك الأوطان يعدل قتل النفس: إن الانتماء للوطن قيمة عظيمة، وحسبنا أن الله جعل ترك الأوطان يعدل النفس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1]، فإن الناس يستمسكون بالحياة ويحرصون عليها أشد الحرص، فكذلك الخروج من الديار والأوطان من أشق شيء على النفس وأصعبه، وخطاب القرآن هو خطاب الفطرة السوية، لذا رأينا الناس جميعًا مجبولين على حب الأوطان، وربما تجد بلادًا لا تطيق حرارة جوها ولا العيش فيها ولكنك تجد أهلها يعيشون فيها سعداء؛ لأنهم على أرض وطنهم نشأوا وعلى ترابه تربوا وترعرعوا، وترى أهل الإسكيمو مع البرد القارس يعيشون في وطنهم محبين له، وما أصدق قول الشاعر:

---

(١) النساء: ٦٦.

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنيـــنه أبـــدًا لأول منـــزل

وقال بعضهم:

وكُنا أَلِفْنــاها ولم تَـكُ مَـأْلَفًا وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

كما تُؤْلَفُ الأرضُ التي لم يَطِبْ بها هـواءٌ ولا مـــاءٌ ولكنـها وطـن

وقال عمر ﷺ : عَمَّر اللهُ البلدانَ بحب الأوطان. وقال ابن الزبير: ليس الناس بشيء من أقسامهم - أى: ما قسمه الله لهم من الأرزاق - أقنع منهم بأوطانهم، وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس لبلدها تواقة، وإلى مسقط رأسها مشتاقة، وقال أهل الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك، وقالت الفرس: تربة الصبى تغرس في القلب حرمة كما تغرس الولادة في الكبد رقة (٥).

إن القرآن الكريم حينما أراد إعلاء شأن المهاجرين في غير موضع، صدّر حديثه عنهم بأنهم قد بذلوا في سبيل دينهم أنفس شيء وأعزه، إذ تركوا أوطانهم في سبيل دينهم، وفيه ما فيه من مغالبة الفطرة الطبعية وما جبلت عليه النفوس، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[1].

ومن هنا قدم القرآن المهاجرين على الأنصار حيثما ورد الحديث عنهم في القرآن الكريم، خذ من ذلك قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3].

وكما ترى هم أئمة وغيرهم في الفضل تبع، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾[4]، وذلك لبذلهم أنفس شيء وأعزه، وقوله

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) الحشر: ٨-٩.

(٣) التوبة: ١٠٠.

(٤) التوبة: ١٠٠.

تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)، ولعلك ترى رتبتهم وقعت في الآية بعد رتبة النبي ﷺ.

والحق سبحانه قدّم الهجرة على بذل المال والنفس، وجعلها أدل العلامات على الإيمان، وذلك ليكشف عن فضل الأوطان ومنزلتها في أكثر من آية، من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾(٢).

بل جعل الله حب الأوطان علامة الإيمان الحق بكل صراحة ووضوح، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(٣).

---

(١) التوبة: ١١٧.

(٢) الأنفال: ٧٢.

(٣) الأنفال: ٧٤.

ترك الأوطان في أول الإسلام كان لعلة فلما زالت العلة زال المعلول:

كان ترك المهاجرين للوطن (مكة) في أول الإسلام بسبب ما ناله المسلمون الأوائل من الأذى، وعدم التمكن من إقامة الشعائر، وحينما زال الأذى وقوي المسلمون، وفتح الله مكة لنبيه ﷺ أخبرنا بعدم الهجرة بعد الفتح، وفي فقه الحديث فهم مغلوط يحسن بيان فهمه على الوجه الصحيح:

الحديث رواه الشيخان بسنديهما عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال يوم الفتح: " لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا "، والهجرة في أصل اللغة الترك، ثم غلبت على الخروج من أرض إلى أرض، وقد شاع إطلاقها على هجرتي الحبشة، وهجرة المدينة، أما الهجرة في الشرع فهي ترك ما نهى الله عنه، والهجرة بمعنى ترك الوطن ارتفع حكمها، وبقى بدلها وهو الجهاد والنية.

ولقد كانت الهجرة قبل الفتح فرضًا على من أسلم بمكة، وذلك ليأمن على دينه، ويسلم من أذى الكفار، وقد أعظم الله شأنها، ونعى على من لم يقم بها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ (١)، وظل الأمر على هذا الحال حتى فتحت مكة، فنسخ فرض

---

(١) الأنفال: ٧٢.

الهجرة، بل إن أهل العلم بينوا أن لا حرج منذ الفتح إلى قيام الساعة على من أقام مسلمًا في ديار غير إسلامية مادام قادرًا على إقامة شعائر دينه.

وقد بين الماوردي فضل إقامة المسلم في هذه الديار، فقال: إن إقامة هذا أفضل من رحلته، إذ قد يرجى من وراء إقامته دخول غيره في دين الله، وهو قول حق تؤيده دلائل الشريعة، لكن لمن كان أهلاً لهذه الإقامة بطريقة مشروعة، وكان متمكنًا من إقامة شعائر دينه.

وقصارى القول أنه لا تجب عليه الهجرة ما لم يفتن، وهو ما قاله ابن حجر في شرح الحديث فقد ذكر: أن هذا فيمن خشي الفتنة على دينه، وهو عين ما رواه البخاري في صحيحه في المغازي عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – وقد سألها عبيد بن عمير الليثي عن الهجرة، فقالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه، أما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث يشاء، ولكن جهاد ونية "، ولقد عرف رسول الله ﷺ المهاجر الحق في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه بسنده، قال ﷺ : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه".

هذا فهم سلفنا الصالح للحديث، وما أجل قول القاضي عياض: أجمعت الأمة على تحريم ترك المهاجر هجرته ورجوعه إلى وطنه، وفَرْضُ ذلك عليه، إنما كان في زمن النبي ﷺ لنصرته، أوْ ليكون معه، أوْ لأن ذلك

إنما كان قبل فتح مكة، فلما كان الفتح، وأظهر الله الإسلام على الدين كله، وأذل الكفر وأعز المسلمين؛ سقط فرض الهجرة، فقال النبي ﷺ : " لا هجرة بعد الفتح "، وقال: "مضت الهجرة لأهلها"، أي الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم قبل فتح مكة لمواساة النبي ﷺ ومؤازرته، ونصرة دينه، وضبط شريعته.

الانحراف بالنص عن مراده الحق :

من يدعي العلم بالدين انحرف بالنص عن مراده، ولم يدرك المعنى اللغوي القاطع الذي جاء في النص الشريف، بل إن بعضًا من هؤلاء ذهبوا إلى وجوب الهجرة من دار الشرك، مستدلين بالآيات التي تحث على الهجرة قبل زوال حكمها غفلة منهم عن السياق المقالي والمقامي، ثم استندوا إلى مرويات ضعفها أهل العلم من مثل قول النبي ﷺ: " أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين"، وقوله ﷺ: " لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها"، والحديث الأول رواه أبو داود والترمذى والنسائى، وهو محمول على ما كان قبل الفتح، أو على من يفتن في دينه ويظل باقيًا، والحديث الثانى رواه أحمد في مسنده، وأبو داود والنسائى، وهو حديث ضعيف عند أهل الحديث لأن في سنده أبا هند البجلي الذي جهله أهل الحديث.

والذين نظروا إلى الحديث بعيدًا عن نور سياقه، قسموا الديار في

زماننا إلى دار كفر ودار إسلام، ورتبوا على ذلك وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهجروا على ذلك أوطانهم، والحال أن المسلمين في كل بقاع الدنيا الآن يقيمون شعائر دينهم بكل حرية، ولا يمنعهم من ذلك أحد، والمساجد تملأ أوروبا وروسيا والعالم كله، وقد تغير وجه الدنيا عما كان عليه، والرسول ﷺ نفسه غير المفهوم لمّا تغير الواقع، حين ألغى مفهوم الهجرة الذي كان محدد المعالم واضح القسمات قبل الفتح، وذكر مفهومًا دائمًا مستمرًّا إلى أن تقوم الساعة، حيث بين - كما سلف - أن الهجرة أن تهجر ما نهى الله عنه.

وعلى ذلك فإن حجر المصطلح على فهم واحد هو عدم فقه صحيح لسنة الله في كونه، ولسنة النبي ﷺ ، حيث إن هناك فرقًا هائلاً بين ظروف المسلمين الأوائل في مكة وبين استقرار المجتمعات الآن، فقد غابت تلك الظروف، ولا يجوز الاستدلال بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ﴾ (٢)، وقوله تعالى:

---

(١) الأنفال: ٧٢.

(٢) الأنفال: ٧٥.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[1].

فالهجرة التي هي بمعنى ترك الوطن واستيطان غيره بالنسبة لمسلمي مكة الأوائل هي هجرة دفعهم إليها قومهم، واضطروهم إليها، ويدل على ذلك عطف الإخراج على المهاجرة في آية آل عمران: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾، سواء كان الإخراج بصريح القول أم بالإيحاء من جهة سوء المقالة، ولقد هاجر المسلمون الهجرة الأولى إلى الحبشة لما لاقوه من سوء معاملة المشركين، ثم هاجر رسول الله ﷺ هجرته إلى المدينة، والتحق به المسلمون كلهم لما لاقوه من أذى المشركين ولا يُوجد ما يدل على أن المشركين أخرجوا المسلمين؛ فالهجرة هنا بمعنى الإلجاء إلى الخروج، ومنه قول ورقة بن نوفل : يا ليتنى أكون معك إذْ يخرجك قومك، وقول النبي ﷺ : " أو مُخرجي هم ؟ " فقال: ما جاء نبى بمثل ما جئت به إلا عودي.

والذين يدعون إلى الهجرة إلى بلد آخر، فهل هذا البلد أحسن حالاً من البلد الذي هاجروا منه؟ والبلاد الإسلامية عامة ليست مجتمعات كافرة، وليست دار كفر، وهي ليست مجتمعات منحلة الخلق معوجة السلوك إلى

---

(١) النساء: ٩٧.

الحد الذي يخشى المسلم فيه على دينه وخلقه، إنّ أي مجتمع لا يخلو من معصية ومن أخطاء، حتى مجتمع الرسول ﷺ وصحابته كانت فيه بعض الأخطاء الفردية، ولم يثبت أنّ الرسول ﷺ دعا إلى هجر المجتمع لما فيه من بعض الأخطاء، وإنَّما دعا المخطئ إلى التوبة وحببها إليه، بل ثبت عنه ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه: أنَّه قال: " والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم".

ترك النبي ﷺ مكة وقد أوذي فيها هو وصحبه كان لضرورة:

وفي الحديث الذي أخرجه أبو يعلى الموصلي[1] في مسنده ، عن عبد الله ابن عباس – رضي الله عنهما– قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال: "أمَا والله لأخرج منك، وأني لأعلم أنك أحب بلاد الله إليَّ، وأكرمه على الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منكِ مَا خرجت"، وروى السيوطي[2]: أن النبي ﷺ لما خرج من الغار التفت إلى مكة، وقال : " أنت أحب بلادِ الله إلى الله، وأنت أحبُّ بلاد الله إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك ، فأعتى الأعداء منْ عدَا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحُول أهل الجاهليه" (أى: بعداوة). فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن

(١) مسند أبي يعلى، حديث رقم ٢٦٦٢، ٥/ ٦٩.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور٦/ ٤٨.

قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[1]، وفي روايـــــــة الترمذي[2] أن رسول الله ﷺ قال لمكة: " ما أطيبك من بلـد، وأحبّـك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيرك".

وكان النبي ﷺ كلما تذكر وطنـه أو ذكّـره أحـد بوطنـه أصـابه الحـزن، وارتـج منـه الفـؤاد، وقـد جـاء في ذلـك الحـديث الـذي ذكـره ابـن الأثـير والخطابي[3]، قال: قدم أَصَيْلٌ الغفاريُّ قبل أن يُضرـب الحجـابُ عـلى أزواج النبي ﷺ، فدخل على عائشة - رضي الله عنها- فقالت لـه: يـا أَصَـيْل، كيـف عهدت مكة؟ قال: عهدتها قد أخصب جنابها، وابيضـت بطحاؤهـا، قالـت: أقمْ حتى يأتيك رسول الله ﷺ، فلم يلبث أن دخل عليه ﷺ، فقال: يا أُصَـيْل، كيَف عهـدت مكـة ؟ قـال: عهـدتُها والله قـد أخصـب جنابهـا، وابيضـتْ بطحاؤها (أى: أخصبت ناحيتها)، وأعذق إذخرها (أى: صـار لـه أفنـان، والإذخر: نبت معروف بالحجاز) وأسلب ثُمامُها (الـثمام : نبـت بالحجـاز)، وأمْشـــرَ سَـلْمُها (السـلم: نبـت بالحجـاز، أى: أورق واخضـــر)، فقـال: "حسبك يا أصَيْل لا تُحْزِنَّا "، وفي رواية ابن حجر[4] في الإصابة أنه قال له: " يا أَصَيْل، دع القلوبَ تقَرُّ "، فالحزن لا يجعل القلوب تستقر.

---

(١) محمد: ١٣.

(٢) سنن الترمذى، أبواب المناقب، باب في فضل مكة ٥/ ٦٨٠،٦٧٩.

(٣) أسد الغابة ١/ ١٢١، وغريب الحديث، الخطابي ١/ ٢٧٨.

(٤) الإصابة ١/ ٥٣.

وكان بلالٌ رضي الله عنه إذا أقلعت عنه الحُمَّى يقول:

ألا ليتَ شِعـــرى هل أبيتنَّ ليلةً بـوادٍ وحولى إِذْخَرٌ وجَليل

وهـل أرِدَنْ يـومًا ميـــاه مَجَنَّة وهل يَبْدُوَنْ لىَ شامةٌ وطَفِيـل

وكان ﷺ يسمع كلام أصحابه رضوان الله عليهم في الحنين إلى مكة، فيرق لحالهم، ويقدّر عواطفهم، ويدعو لهم بأن يحبِّب الله إليهم المدينة كما حبّب إليهم مكة.

قالت عائشة – رضي الله عنها–: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرتُه، فقال: " اللهمَّ حببْ إلينا المدينة كحبّنا مكةَ أو أشد، وصحّحْها، وبارك لنا في صاعها ومُدِّها، وانقل حمَّاها فاجعلها بالجُحفة".

مقتضيات الانتماء للوطن

استقر الأمر على أن الانتماء للوطن قيمة شرعية، وهذا يوجب على كل مواطن عدة أمور منها:

١ـ الحفاظ على المرافق العامة: يجب أن يحافظ المواطن على مرافق بلده، ولا يعتدى عليها؛ لأن المرافق العامة من مصالح البلد وأهله، فيحترمها ولا يعتدى عليها، وقد جاء في الحديث: "اتقوا اللاعنين"، قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله، قال:" الذي يتخلّى (أى: يقضى حاجته) في طريق الناس وظلّهم"، فشوارع البلد وطرقات البلد يجب أن تصان، ولا يجعل فيها العراقيل التي تؤذي المارة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[1]، وقال ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه : "اتقوا الملاعن الثلاث البُراز في الموارد (أماكن ورود الماء)، وقارعة الطريق(الطرق التي يمشي فيها الناس)، والظل " (والظل ما يستظل به الناس من الشجر والحدائق والمرافق التي يتنفس فيها أهل البلد ويستريحون فيها ويستظلون بأشجارها، واتقوا الملاعن، أي: التي توجب اللعنة على من اعتدى عليها)، فكيف بمن يدمر المرافق ويخربها، زعمًا منه أنه ينتصر لقضايا الوطن، فما هو والله إلا الضلال المبين، وهو الإفساد في الأرض الذي نهى عنه ربنا تبارك وتعالى.

٢ـ إماطة الأذى عن الطريق : هو من شعب الإيمان، قال ﷺ : "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أعلاها قول لا اله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"، هذا فضلاً عن أنه لا يجوز لأحد أن يقذّره عليهم، فما بالنا بمن يفجر ويخرب ويدمر؟! .

٣ـ الإحسان إلى جميع المواطنين والمعاهدين وكل من حصل على تأشيرة دخول، والدبلوماسيين والسياح أيا كانت دياناتهم : وهو ما تؤيده نصوص القرآن والسنة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

(١) الأحزاب: ٥٨.

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1]، فجعل الجوار له حقًّا من الحقوق العشرة المذكورة في هذه الآية، وقد قال ﷺ: في الحديث المرفوع الذي رواه البزار: " الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق وهو الجار القريب المسلم، له حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام، وجار له حقان وهو الجار المسلم غير القريب، له حق الإسلام، وحق الجوار، وجار له حق واحد وهو الجار غير المسلم، له حق الجوار"، فهذا دليل على أن الكافر إذا كان جارًا لك فإنك تحسن إليه وله حق الجوار ولا تؤذه، هذا من المواطنة الشرعية التي أمر الله جل وعلا بها.

وكذلك لا يجوز الاعتداء على من دخل في كفالة ولي الأمر أو أحد من المسلمين، فإنه يجب أن يحترم دمه وماله وحرمته، حتى يخرج من بلد المسلمين، قال الله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [2]، والنفس التي حرم الله، هي نفس المسلم ونفس المعاهد والمستأمن، فهي نفس حرم الله قتلها بدليل أن الله أوجب في قتل المعاهد الكافر خطأ ما أوجبه في قتل المسلم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن

---

(١) النساء: ٣٦.

(٢) الإسراء: ٣٣.

يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١)، فأوجب في قتل الكافر المعاهد خطأً ما أوجبه في قتل المسلم من الدية والكفارة، أما من قتل المعاهد متعمدًا، فهذا كما قال النبي ﷺ في حقه وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان : "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا " أو كما قال ﷺ.

فالذي دخل بلاد المسلمين بإذن من ولي الأمر أو من خول له الإذن، فإنه يكتسب حرمة النفس وحرمة المال ولا يجوز التعرض له بأذى، فهذا من المواطنة الشرعية، حتى ولو كان المواطن كافرًا وله حق الإقامة في بلد المسلمين ما دام مقيمًا فيها فله حق المواطنة الشرعية.

٤ـ وجوب إعمار الوطن : يجب على جميع المواطنين أن يعمروا بلادهم

---

(١) النساء: ٩٢.

بطاعة الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنع الظلم، فهذا مما يعمر البلاد، واستثمار جميع خيراته وإفلاح أرضه، وتشغيل مصانعه، وصون البيئة، وغير ذلك مما يصدق عليه الإعمار وكل ما يكون به الإصلاح للبلاد، قال تعالى:﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ (١).

وخلاصة القول أنه يجب أن يكون الانتماء ترجمة حقيقية لحب الوطن، فلا اعتداء على محبوب ولا إساءة له بأى مكروه، بل يجب معاملة الوطن كما تعامل من تحب، وكما تحب أن يعاملك من يحبك.

خاتمة البحث

- يجب تدريب الأسر على قيم المواطنة والفهم الصحيح لقيمة الأوطان في الإسلام.

- يجب إنشاء منصات إلكترونية تتولى نشر قيم الانتماء للوطن.

- ينبغى أن تتضمن مناهج التربية الإسلامية قيم الانتماء للوطن.

- إن قيم الانتماء للوطن تعد حصانة للمجتمع المسلم، وضمانًا لسلمه الاجتماعى.

- لابد من تصحيح الأفكار الخاطئة الداعية لهجر الأوطان.

- يجب التكامل بين أعمال المؤتمرات التي ترسخ قيم المواطنة.

* * *

(١) الأعراف: ٥٦.

□

الأسرة ودورها في بناء الشخصية *

الحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد ،،

فإن المولى سبحانه وتعالى كرم الإنسان وجعله خليفة له في أرضه، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، ولا شك أن الإنسان ينشأ في مكان ما، وفي أسرة ما، وفي قرية أو مدينة أو دولة ما، وفق النظم الحالية المستقرة، وسوف يتأثر المولود بالقرية التي ولد فيها، والقرية التي شب فيها، والوسط التعليمى والثقافي الذي شرب منه؛ إذ هو الذي جال فيه بصره وجال فيه عقله وفكره، ومن هنا فإن الشخص يتأثر بكل ما حوله ومن حوله ويؤثر فيهم أيضًا، ومن ثم كان لزامًا أن يتناول التشريع كل ما يحيط بالمرء حتى يشب على معرفة الله سبحانه وتعالى مؤمنًا موحدًا، متفقًا مع الفطرة، مخاطبًا كل راع عما استرعاه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١)، وفي الحديث الشريف عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النبي ﷺ:" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ،

---

* كتب هذا البحث: الأستاذ الدكتور/ سيف رجب قزامل - أستاذ متفرغ بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر - والعميد السابق للكلية- مصر

(١) النحل: ٧٨.

أو يُنَصِّرَانِهِ، أو يُمَجِّسَانِهِ "[1]، وفي الحديث الشريف أيضًا عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:" كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته" [2].

ولقد وفقت وزارة الأوقاف المصرية في عقد هذا المؤتمر بعنوان : "بناء الشخصية الوطنية وأثره في الحفاظ على تقدم الدول والحفاظ على هويتها "، ويسعدنى أن أشارك في هذا المؤتمر ببحث في أحد محاوره، وهو هذا البحث بعنوان: " الأسرة ودورها في بناء الشخصية الوطنية "، سائلًا الله التوفيق لكل من شارك في المؤتمر، وفي كل من أعد للمؤتمر في الوزارة المباركة، وأسأل الله الأمن والأمان لمصرنا الحبيبة، وأن يوفق الله قادتنا لما يحب ويرضى.

ومعلوم أن الأسرة هي أقدم التنظيمات البشرية التي عرفها الإنسان، منذ خلق المولى سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وزوجه، يقول تعالى:﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا

(١) صحيح البخارى: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبى فمات، حديث رقم ١٣٥٨ .

(٢) صحيح البخارى: حديث رقم٨٩٣ .

تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، ويقول تعالى:﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ [2]، ولقد عنى الشرع الشريف بأحكام الأسرة من كل نواحيها: كالخطبة، وهي المقدمة لعقد النكاح، أى الفترة التمهيدية لتكوين الأسرة، وتتسع الأسرة بعد ذلك لتضم الأولاد، وكذا من يقيم مع الزوجين والأولاد، من الأصول كالجد أو الجدة، وربما تتسع الأسرة لبعض الأقارب الذين يعولهم رب الأسرة، ويترتب على ذلك عدة أحكام تدخل تحت المسمى الأوسع، مما يطلق عليه الأحوال الشخصية، ومن أحكام الأسرة: الخطبة، والزواج، والنسب، والرضاع، والحضانة، وحقوق الزوجية، وحقوق الأولاد، وانحلال الزواج... إلخ[3].

وسوف أقتصر على بعض العناوين التي لها علاقة مهمة بموضوع المؤتمر، وذلك في عدة مطالب:

المطلب الأول: التمهيد للزواج بالخطبة وأثره في بناء الشخصية الوطنية.

---

(١) البقرة: ٣٥.

(٢) النحل:٧٢ .

(٣) المدخل للفقه الإسلامي، د/ الزحيلي، نشر دار الفكر،٩/ ٦٤٨٧.

المطلب الثانى: اختيار الاسم الحسن وأثره في بناء الشخصية الوطنية.

المطلب الثالث: العدل بين الأولاد وأثره في بناء الشخصية الوطنية.

المطلب الرابع: حسن العشرة من جانب الزوج وأثره في بناء الشخصية الوطنية.

المطلب الخامس: حسن العشرة من جانب الزوجة وأثره في بناء الشخصية الوطنية.

المطلب السادس: النفقة بالمعروف وأثر ذلك في بناء الشخصية الوطنية.

المطلب السابع: رعاية الوالدين لأولادهما وأثر ذلك في بناء الشخصية الوطنية.

المطلب الثامن: توزيع المهام داخل الأسرة وأثر ذلك في بناء الشخصية الوطنية.

المطلب الأول
التمهيد للزواج بالخطبة

إن الاهتمام بالأسرة واضح في الشريعة الإسلامية من خلال الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تناولت كل نواحي الأسرة من أول نشأتها، ومن ذلك التمهيد الذي يسبق الحياة الزوجية، وهو ما يعرف بالخطبة، وهي الفترة التي تسبق الحياة الزوجية، والتي فيها يلتمس الخاطب من ولي المرأة أن يكون خاطبًا لابنته، فيقبل ولي المرأة بعد مراجعة ابنته، فإذا وافقت تمت الخطبة وترتبت أحكامها، وهي الفترة التي يتعرف فيها كل طرف على الطرف الآخر، وقد أباح الله لكل من الخاطبين أن ينظر للآخر؛ ليكون أدعى أن يكون قراره بالزواج سليمًا ناتجًا عن قناعة تامة، ورضًا نفسي بإتمام عقد الزواج، وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ، قال للمغيرة بن شعبة حين خطب امرأة من الأنصار: " اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما "[1]، إذ بالنظر إلى المخطوبة والكلام معها بحضور محرم، يكون القرار بإتمام الخطبة أو العدول عنها قد بني على دراسة هادئة، ولم يبح الشرع الخلوة بالمخطوبة، إذ مازال كل منهما أجنبيًّا عن الآخر، وإنما أباح النظر استثناءً، ويقاس على النظر الكلام.

---

(١) أخرجه الترمذى حديث رقم١٠٨٧، والنسائى، حديث رقم ٣٢٣٥، وغيرهما، وانظر: الحاوى ١١/ ٥٣، بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد، نشر دار المعرفة- بيروت، ٢/ ٣.

يقول تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]، ومن ثم فإباحة الشرع لكل من الخاطب والمخطوبة النظر والكلام بحضور المحرم يعد تأسيسًا طيبًا لبناء أسرة قوية، تعد لبنة قوية ودعامة طيبة في إنشاء أسرة وطنية تفهم معنى الوطن وتحافظ عليه، إذ هو الذي سوف تعمر فيه الأرض، ويُطبق فيه شرع الله سبحانه وتعالى، وفي هذا تأسيس طيب لبناء الأسرة التي ترعى حق الوطن وتحافظ عليه.

حسن الاختيار مبدأ مهم لتأسيس الحياة الزوجية ومعلم مهم لحب الوطن:

لم ينس الشارع الحكيم أن ينبه كلاً من الزوج والزوجة إلى حسن

---

(١) النور: ٣٠-٣١.

الاختيار، إذ على الزوجة أن ترضى بالزوج الصالح الذي يتقدم لها، وعلى الزوج أن يختار المرأة الصالحة ذات الدين، وألا يغتر بالجمال فقط، أو المال، أو الحسب فقط، بل عليه أن يختار ما يصلح به حياته وهي المرأة التي تحافظ على شرع ربها و سنة نبيها، إذ في السنة الشريفة بيان أحوال الخاطب ومن يريد الزواج منها: فمنهم من يرغب في ذات المال، ومنهم من يرغب في المرأة لحسبها، ومنهم من يرغب في صاحبة الجمال، ومنهم من يبحث عن ذات الدين، فقد قال رسول الله ﷺ: " تنكح المرأة لأربع، لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"[1]، فقد بين الحديث ما عليه حال الناس، وميلهم الفطري حين الرغبة في الزواج، فمنهم من يقدم على الزواج من امرأة لجمالها، دون النظر لشيء آخر، ومنهم من ينظر إلى حسبها، إذ يفتخر بذلك، ولعله يصيبه شيء من متاع الدنيا من هذا الحسب، ومن الناس من يتقدم للمرأة لما عندها من أموال، وينسى في الغالب هل هذه المرأة ذات دين أم لا.

هذه النظرة الضيقة نهى الشرع عنها، إذ هذه أمور عارضة كعرض الدنيا عمومًا، إذ ربما صاحبة المال يفنى مالها ويضيع لسبب أو لآخر فتصبح

---

(١) رواه البخارى ومسلم، انظر: د/ الزحيلي، الفقه الإسلامى وأدلته، ٩/ ٦٤٩٥، وانظر: الحاوى للماوردي، نشر دار الفكر، ١١/ ١٤٠، وانظر: المغنى لابن قدامه،- نشر مكتبة الكليات الأزهرية، ٦/ ٤٤٥ وما بعدها.

بلا مال، من هنا تتحول الحياة الزوجية إلى نكد وربما إلى الانفصال، وكذا من تزوج امرأة لجمالها، فالجمال عارض أيضًا وخاصة مع تقدم السن، ماذا يكون حال الرجل حينما يرى زوجته بدون جمال وأصبحت قبيحة المنظر في عينيه؟ هل تستقيم الحياة الزوجية، أظن أن الإجابة معروفة، ففي الحديث المروى عن عبد الله بن عمرو عند ابن ماجه والبزار والبيهقى رفعه: " لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة سوداء ذات دين أفضل " (١).

والمراد من قوله ﷺ: " تربت يداك " - كما ذكر النووى- أى لصقت بالتراب، وهي كناية عن الفقر، قال الحافظ: وهو خبر بمعنى الدعاء، ولكن لا يراد به حقيقته، ولكن العرب اعتادت استعمالها غير قاصدة حقيقة معناها الأصلى.

من هنا يأخذ الشرع يد الخاطب ومن يريد الزواج إلى الطريق الصحيح، وهو أن يختار صاحبة الدين؛ إذ هي التي تسعد زوجها وتحرص على أن تبني بيتها على أسس سليمة أيضًا، وهي التي ترضى بالزواج إذا علمت أن من تقدم إليها رجل صالح، عملاً بقوله ﷺ " إذا جاءكم من

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى، نشر دار الفكر،٦/ ٢٣٣، ٢٣٤ ، وانظر: لسان العرب، ١/ ٤٢٤.

ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير "[1]، ومن ثم على المرأة وعلى وليها ألا يغتر بصاحب المال أو الجاه أو الحسب للزوج الذي تقدم للزواج من ابنته، إذ المعيار إنما هو صاحب الدين، إذ هو الذي يخاف الله في أولاده وفي زوجته، وينشئ أولاده على طاعة الله وعلى حب الوطن، وعلى التضحية من أجل الوطن والذود عنه، وأن ينفي عنه الخرافات والجهالات، إذ إنه نشأ في بيئة سوية سليمة استوحت نظمها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[2].

* * *

(١) سنن الترمذى: أبواب النكاح، حديث رقم١٠٨٥، سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حديث رقم ١٩٦٧، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) المواطنة وفقه الانتماء، د/ محمد محمود الجمال، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر، ص ٢٠ وما بعدها.

المطلب الثاني
اختيار الاسم الحسن للمولود

حثَّ الشرع على أن يختار الوالد اسمًا طيبًا لابنه وعلى الأب أن يعرضه على أمه حتى ترضى به، وهذا من التشاور الحسن والعشرة بالمعروف، فهي التي حملته في بطنها تسعة أشهر تقريبًا، وهي التي تقوم بإرضاعه وحضانته وغير ذلك مما يلزم الصغير، وقد حفلت السنة الشريفة بأحاديث عديدة حول ما يجب أن يكون عليه اسم المولود وما يجب أن يبتعد عنه، فلا يصح مثلا أن يسمى المولود باسم من أسماء الله تعالى مما اختص به نفسه، أو باسم لا يصدق وصفه لغير الله ﷻ كملك الملوك أو القاهر، إذ يحرم ذلك ويجب تغييره.

يقول الصنعاني: وينبغى اختيار الاسم الحسن للمولود لما ثبت من أنه ﷺ كان يغير الاسم القبيح قال ﷺ : " إن أخنى[1] الأسماء عند الله رجل تسمى شاهان شاه، ملك الأملاك، لا ملك إلا لله "[2]، فتحرم التسمية بذلك، وألحق به تحريم التسمية بقاضي القضاة، وأشنع منه حاكم الحكام، نص عليه الأوزاعي، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، ونحوهما، وأصدقهما

---

(١) أخنى الأسماء: أفحشها، من الخنا وهو الفحش.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة بلفظ "أخنى الأسماء يوم القيامة رجل تسمى ملك الملوك"، ثم حكى عن سفيان أنه قال: يقول غير أبي الزناد تفسير شاهان شاه.

حارث وهمام .

وجعل الشرع تسمية المولود حقًّا من حقوقه، عن سمرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " كل غلام مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم سابعة، ويحلق ويسمى " (١).

وقد غير النبي ﷺ بعض الأسماء، من ذلك أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ، يقال له: شهاب، فقال رسول الله ﷺ: بل أنت هشام، وقد كان اسم زينب بنت جحش أم المؤمنين - رضى الله عنها- برة ، من البر، فغيره ﷺ إلى زينب.

ومن ثم فالواجب اختيار الاسم الذي يحمل المعاني الخيرة التي يحملها هذا الاسم حين ينادى به، إذ الاسم له دلاله عند الناس، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله، وعبد الرحمن لما رواه مسلم: " إِنَّ أَحَبَّ أَسْمائِكُمْ إلى الله (عَزَّ وَجَلَّ) عَبْدُ الله، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ "، ومن ثم يجب تجنب الأسماء القبيحة حتى لا يكون المولود محلاً للسخرية أو الاستهزاء أو الاحتقار في مراحل عمره المتعددة.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يشتكي إليه عقوق ابنه، فأحضر عمر بن الخطاب ابنه، وأدبه على عقوقه، فقال الولد لأمير المؤمنين: أليس للولد حقوق على أبيه، قال: بلى، قال: فما هي؟ قال أن ينتقي

---

(١) رواه أحمد والأربعة، وصححه الترمذي، سبل السلام.

أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب، قال الولد: إنه لم يفعل من ذلك شيئًا يا أمير المؤمنين، فقد اتخذ لي أمًّا زنجية كانت لمجوسي، وسماني جعلاً (حشرة صغيرة كالخنفساء)[1]، و لم يعلمني من الكتابة حرفًا، فنظر عمر إلى الرجل وقال له : جئت تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يعقك، وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك.

من هنا يجب أن نراعي هذه التعليمات النبوية الشريفة لبناء أسرة سليمة، أطرافها بأسماء طيبة تنبئ عن الخير وعن معالم الصلاح والإيمان وخلافة الله في الأرض.

* * *

(١) النهاية في غريب الحديث، ٢٧٧.

المطلب الثالث
العدل بين الأولاد وأثره في بناء الشخصية

العدالة مطلب مهم في الشريعة الإسلامية، وهي مما جبلت عليه الفطرة السليمة، إذ التسوية في الحقوق والواجبات بين الأولاد بما يتفق مع طبيعة الذكر والأنثى، وهو أمر تقره الشرائع السماوية.

إن حب الأولاد أمر فطري، غير أنه قد يحدث أن يميل الأب لحب ولد أكثر من غيره من الأولاد ويختصه بعطية دون الآخرين، مما يوغر صدورهم ويشعل نار الحسد والبغضاء بينهم، وقد قص المولى سبحانه وتعالى علينا ما حدث ليوسف (عليه السلام) وإخوته، فقد رأى إخوته عناية والدهم وحبه ليوسف، فاغتاظوا وكادوا، وحدث ما حدث، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [1]، والذي كان من يعقوب (عليه السلام) أنه اهتم بيوسف لصغره، فأعطاه مزيدًا من العناية والرعايه بما يتلاءم مع سنه، وما

---

(١) يوسف: ٦-٧.

يحتاج إليه من عطف وحنان، غير أن ذلك كان محل كيد من إخوته، وكان ما كان.

ومن ثم كان الواجب التسوية بين الأولاد في العطايا المادية، وكذلك الأمور المعنوية كالاهتمام بهم والسؤال عن أحوالهم والعطف عليهم والعيش معهم وفق ظروف كل ولد ، ولذا كان من هدي الصحابة المساواة بينهم في كل شيء حتى القبل وفقا لهديه ﷺ.

أخرج مسلم عن عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة فقط، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: " إن الله أوجب لها الجنة وأعتقها من النار"(١).

فالعدل بين الأولاد في الحياة ينفي ويبعد عنهم الحسد والضغينة، ويبقى التنافس بين الأولاد في البر بالوالدين، وأداء كل واحد دوره المنوط به في الحياة وفق ما تيسر له، وفي حديث النعمان بن بشير ما يشير ويدل على ذلك، حين أراد أن يشهد الرسول على عطيته التي أعطاها لولده دون إخوته بناءً على رغبة أمه، فقال الرسول ﷺ: " أكل ولدك نحلت مثله " قال: لا

---

(١) باب البر والصلة والآداب، فضل الإحسان إلى البنات ٤/ ٢٧، ٢/ ٢٦٣٠، رياض الصالحين للنووي، حديث رقم ٢٦٩، نشر دار الفكر، ص ٩١.

قال : فأرجعه" [1].

فالمساواة بين الأولاد في النفقة بأنواعها سواء في المصاريف اليومية، أو في الملابس، أو الطعام والشراب، ومصاريف ونفقات التعليم أمر لازم، حسب طبيعة كل مرحلة تعليمية، فطالب الطب تختلف نفقته عن طالب الهندسة، عن طالب الآداب وهكذا، ولا يثير ذلك حسدًا عند الأولاد، وهذا أمر فطري، إذا قام الأب برعاية الأولاد في التعليم منذ الصغر وكان التعليم الجامعى مثلاً مختلفًا لكل ابن، وقد حصل بعضهم على مجموع يؤهله لدخول كليات الطب وبعضهم كان مجموعه يؤهله لدخول كلية الهندسة وبعضهم كان مجموعه يلحقه بكلية التربية، و نفقات كل كلية تختلف عن الأخرى، ومن ثم فلا ضير في ذلك من ناحيه التفاوت في النفقات، إذ هي من الرعاية الواجبة على الوالد للأبناء وفق ظروف كل ولد، ولوجود مسوغ شرعي للتفضيل، وهذا مما يدخل في واجب النفقة على الأصل، يقول تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [2].

---

(١) البخارى، كتاب الهبة، باب الهبة للولد، حديث رقم ٢٥٨٦، ٣/ ١٥٨.

(٢) الطلاق: ٧.

ومما ينبغى الإشارة إليه جواز أن يخص الأب أو الأم بعض أولاده بشيء ما، لظروف تخص هذا الابن أو هذه البنت (عند فريق من الفقهاء)، كما حدث مع أبي بكر ﷺ عن قصة السيدة عائشة - رضي الله عنهما-، حيث خصها ببعض التمر، دون إخوتها، لمكانها من رسول الله ﷺ، حيث إنها أم المؤمنين ويدخل عندها من الضيوف ما لا يدخل على غيرها.. إلخ، غير أنها لم تكن قد قبضته حيث لم يحصده أبو بكر ﷺ، وقد أخبرها لما حضرته الوفاة أن التمر للورثة جميعًا، طالما لم تقبض الكمية، إذ الهبة لا تملك إلا بالقبض.

مما يفهم من ذلك أنه إذا كان هناك سبب شرعي للتفاوت في النفقة أو الهبة، تبقى النفوس هادئة ولا يجد الشيطان مدخلاً لكي يوغر صدور بعض الأولاد على الآخرين، ومن ثم تبقى نفوس هذه الأسرة مستقرة هادئة هانئة عاملة في الأرض، تعرف حق الوالدين والأقارب والجيران، والأرحام، وحرمة الوطن، والدفاع عنه من الأعداء، ومن كل من يسعى في الوطن بأي وجه من وجوه التخريب.

* * *

المطلب الرابع
حسن العشرة من جانب الزوج
وأثره في بناء الشخصية

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[1].

يقول الجصاص: وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أمر للأزواج بعشرة نسائهم بالمعروف، ومن المعروف أن يوفيها حقها من المهر والنفقة والقسم، وترك أذاها بالكلام الغليظ، والإعراض عنها، والميل إلى غيرها، وترك العبوس والقطوب في وجهها بغير ذنب، وما جرى مجرى ذلك، وهو نظير قوله تعالى :﴿ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

ويقول ابن قدامة الحنبلي: ويستحب لكل واحد منهما تحسين الخلق مع صاحبه، والرفق به، واحتمال أذاه، لقوله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ إلى قوله تعالى:﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ ﴾، قيل: هو كل واحد من الزوجين، وقال ﷺ: " استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عوان عندكم

---

(١) النساء: ١٩.

أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله" [1].

إذ العشرة بالمعروف تقتضى الرفق بالزوجة، واللين وعدم الغلظة والشدة في المعاملة حتى لا يؤدي ذلك إلى النفرة ، يقول تعالى في حق رسولنا الكريم ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [2].

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ: " كان عند بعض نسائه، قال: أظنها عائشة، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم لها بقصعة فيها طعام، قال: فضربت الأخرى بيد الخادم فكسرت القصعة نصفين، قال: فجعل النبي ﷺ يقول: غارت أمكم، قال: وأخذ الكسرتين فضم إحداهما إلى الأخرى فجعل فيها الطعام، ثم قال: كلوا فأكلوا، وحبس المكسورة في بيته "[3]، وهذا من الرفق في المعاملة للزوجة، وخاصة إذا كان زوجها له أكثرمن زوجة لما يعتري النساء من الغيرة، والتصرف حينها بما لم تدرك عواقبه، ولذا بعد ما حدث من السيدة عائشة - رضي الله عنها- من كسر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، حديث رقم ٥٢٢٥، وعند الترمذي فيه طعام بطعام وإناء بإناء، وقال: الحديث صحيح .

الإناء ووقوع الطعام على الأرض، فبعد أن هدأت قالت كما عند أبي داود والنسائي: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ قال: " إناء مثل إناء وطعام مثل طعام "(١).

والأولاد في الأسرة حينما يرون حسن معاملة والدهم لأمهم في جميع الأحوال وحسن أدبهما في التعامل مع بعضهما، والتغاضي عما بدر من أحدهما أحيانًا لظروف عارضة، ألا يؤثر ذلك في النشء؟ الأولاد الذين هم عماد المستقبل الذين يأمل منهم الجميع خيرًا في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٢)، حيث عد الله من أوصاف عباد الرحمن أنهم يتوجهون إلى الله سبحانه و تعالى بهذا الدعاء، فكيف يكون الابن قرة عين لوالديه، وكيف تكون الزوجة قرة عين لزوجها أو العكس، وهذا التوجه إلى الله بأن يجعل الأسرة هادية لغيرها، ولا يكون ذلك إلا بعد اتباعها هدي رسولنا ﷺ، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٣).

إن العشرة بالمعروف هي الأساس المتين لإنشاء أسـرة كاملة وذرية

---

(١) النسائي عن عائشة؛ حديث رقم ٣٩٦٨، وأبو داود، حديث رقم ٣٥٦٨.

(٢) الفرقان: ٧٤ .

(٣) الأحزاب: ٢١.

صالحة، تسعد وطنها وتحمي ترابه وتحافظ على مقدساته من الأنفس والأموال والأعراض فضلاً عن الدين، حتى يأمن الناس في منازلهم وفي تأدية أمور حياتهم، لقد كان الإعجاز التشريعي في الخطاب الجامع لأمهات القضايا، الذي قاله ﷺ: " خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي "(١)، وفيه فضل الإحسان إلى الزوجة، ومن ذلك قوله ﷺ: " اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف "(٢).

ومن ثم أوضحت الآية الكريمة هذه النعمة العظيمة وهي الميثاق الغليظ، الذي ينبغي أن نتقي الله فيه ونرعى حقوقه، إذ رتب الشرع حقوقًا وواجبات على كل زوج أن يراعيها حتى تحدث البركة، ومن خلال المودة والرحمة التي ترفرف على بيت الزوجية الذي راعى التعليمات الربانية نجد شبابًا وفتيات أنبتها هذا البيت نجد مواطنًا صالحًا يرعى حق الوطن ولا يتكاسل عن أداء حقوق وطنه وواجباته.

وكما أشرنا أن خير هدي للعشرة بالمعروف من جانب الزوج للزوجة أن يقتدي برسول الله ﷺ في كل نواحي الحياة الزوجية، إذ رأيناه ﷺ كيف

---

(١) رواه الترمذي، حديث رقم ٣٨٩٥، وابن ماجه حديث رقم ١٩٧٧.

(٢) رواه مسلم، حديث رقم ١٢١٨.

عالج حالة الغيرة التي حدثت لإحدى زوجاته، ورأينا من هديه ﷺ أنه يساعد أهله في أمور المعاش، حيث كان يحلب شاته، ويخيط نعله، ويرفأ ثوبه، ويعمل في خدمة أهله.

روى مسلم بسنده عن الأسود بن يزيد قال : سئلت عائشة – رضي الله عنها – ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت : "يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة "[1]، والمراد بمهنة أهله أى في خدمة أهله، فها هو سيد المرسلين وسيد ولد آدم، كما ثبت في السنة الشريفة يعطى الرجال القدوة من نفسه يعمل في خدمة أهله، فدل ذلك على أن العمل في خدمة الأهل، أي مساعدتهم في أعمال المنزل من التنظيف، والكنس، والطبخ، وغير ذلك مما لا يخل بالمروءة وإنما يعد ذلك من الرفق والإحسان إلى الزوجة، وحسن معاملتها، بل إن الناظر في ظروف العصر وما استجد فيه من خروج نسبة كبيرة من النساء إلى العمل، فإن ذلك يقتضي أن يراعي الزوج ظروف زوجته، فكيف يطلب منها أن تقوم بأعمال المنزل كاملة بالإضافة إلى أعباء عملها في وظيفتها، ومن ثم كان الاقتداء بهديه ﷺ وأخلاقه في بيته مع أهله خير علاج، لغلق أبواب إبليس عليه اللعنة الذي يزين للزوج أن الزوجة مقصرة في مهامها في أمور المنزل، وكذا يزين للزوجة أن زوجها لا يراعي ظروفها ولا يهتم بأمرها، ويترك أعباء المنزل بل ورعاية الأولاد وغير ذلك لها، ومن هنا تبدأ المشاكل الزوجية.

---

(١) صحيح البخارى: حديث رقم٦٧٦.

بهذا يكون الزوج صورة حسنة أمام أولاده وأمام الأقارب عمومًا، الذين يرونه بهذه الصورة الطيبة ممتثلاً هدي رسولنا ﷺ في خدمة أهله وحسن عشرتهم، والسمر معهم، ومراعاة ظروفهم في السراء و الضراء.

وانظر إلى قول النبي ﷺ للسيدة عائشة - رضي الله عنها- :" إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى. قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك، فقال: أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد وإذا كنت علي غضبى قلت: لا ورب إبراهيم، قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك" (١).

يؤخذ من هذا الحديث استقراء الرجل حال المرأة من فعلها وقولها، فيما يتعلق بالميل إليه وعدمه، والحكم بما يقتضيه القرآن في ذلك، لأنه ﷺ جزم برضا عائشة وغضبها بمجرد ذكرها اسمه وسكوتها، فيبنى على تغيير الحالتين: من الذكر والسكون تغير الحالتين من الرضا والغضب، ويحتمل أن يكون انضم إلى ذلك شيء آخر أصرح منه لكن لم ينقل، وقول عائشة: أجل يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك، قال الطيبي: هذا الهجر لطيف جدًّا لأنها أخبرت أنها إذا كانت في حالة الغضب الذي يصيب العقل اختياره لا تتوقف عن المحبة المستقرة (٢).

---

(١) صحيح البخارى: كتاب النكاح، باب غيرة النساء، حديث رقم٥٢٢٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، نشر دار الريان للتراث، مجلد ٨/ ٢١٣ وما بعدها، وانظر: د/ الزحيلي، الفقه الإسلامى وأدلته، ٥/ ٦٥٩٨.

المطلب الخامس

حسن العشرة من جانب الزوجة وأثر ذلك في بناء الشخصية

قد رأينا أن الشرع بين في آيات كثيرة وأحاديث نبوية كيف يعاشر الزوج زوجته بالمعروف، بحيث يكون طلق الوجه باشًّا هاشًّا، لا فظًّا ولا غليظًا ولا سيِّئ الخلق، حتى تسعد الأسرة بالجو الهادئ الذي يسوده الألفة، والرحمة، والرفق، والإحسان الذي يتطلب التغاضي عن ما يمكن التغاضي عنه مما لا يؤثر في الحياة الزوجية، والذي يعد من الأمور العارضة التي تعتري البشر، فأولى الناس بذلك هي الزوجة.

نتساءل أيضًا هل هناك واجبات للزوجة تجاه زوجها حول العشرة بالمعروف، مما يؤثر في سير الحياة الزوجية، وما لذلك من أثر فعال حول دور الأسرة في بناء الشخصية الوطنية ؟.

الإجابة عن ذلك نعم؛ فلقد أولى الشرع كما نعلم العلاقة الزوجية اهتمامًا بالغًا من أول نشأتها، بل وقبل انعقاد الزواج كما رأينا وهي فترة الخطبة، إذ مهد الشرع لهذا الميثاق الغليظ، وهو ما عبر به القرآن الكريم عن عقد الزواج، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ

بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾ [1]، لقد بين الشرع ما يتعلق بجميع جوانب هذا الميثاق الغليظ، وإذا كنا قد عرفنا كيف يعاشر الزوج زوجته بالمعروف، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾، واقتداءً بهدى النبي ﷺ في معاملة نسائه (أمهات المؤمنين) وأمره لنا بذلك، نجد أن الشرع قد أشار إلى أن الزوجة يجب أن ترعى حق الزوج وأن تعاشره بالمعروف وأن ترعاه في حضوره وفي غيبته، يقول ﷺ في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر ﷺ: " كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته "[2].

حيث بين هذا الحديث الشريف مسئوليات الرجل تجاه أهل بيته، وكذا مسئولية المرأة في بيت زوجها، من حيث المحافظة على أمواله، ورعاية مصالح الأولاد، فضلاً عن خدمة زوجها، ولا شك أن العشرة الحسنة بهذه الرعاية من جانب الزوجة تنتج المودة والرحمة وتزداد يومًا بعد يوم بمراعاة الحقوق الزوجية، يقول تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ

---

(١) النساء: ٢٠-٢١.

(٢) صحيح البخارى، حديث رقم ٨٩٣.

فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1]، فهذه المحبة المتبادلة بين الزوجين التي تترجم إلى سلوك يظهر للأولاد إنما هي زاد طيب يتزود به الأولاد لبناء الأوطان، إذ تشير الآية الكريمة إلى أن المولى سبحانه وتعالى جعل المودة والرحمة بين الزوجين، ولم يقتصر على المودة فقط بل ضم إليها الرحمة أيضًا، ومن ثم فإذا مرض الزوج كانت الرحمة من الزوجة وكذا إذا كبر الأب، وهكذا إذا مرضت الزوجة أو طعنت في السن كانت الرحمة من الزوج بزوجته، حيث يوفر كل منهما للآخر أسباب الراحة و يقدم ما هو بحاجة إليه من العلاج والعطف وغير ذلك، ومن ثم فإن قيام كل من الزوجين بمراعاة حق الآخر له تأثير طيب على الأولاد ، إذ يتعلم الولد كيف يعامل زوجته بعد أن يتزوج، وأيضًا تتعلم البنت كيف تعامل زوجها بعد أن تتزوج، فضلاً عن الثواب العظيم الذي تحظى به الزوجة أو يحظى به الزوج في مراعاة أحكام الشرع في رعاية الآخر.

* * *

(١) الروم: ٢١.

المطلب السادس
النفقة بالمعروف وأثر ذلك في بناء الشخصية

أوجب الشرع على الزوج أن ينفق على أولاده، وعلى أصوله، يقول تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (٣)، وقد دلت الآيات الكريمة على وجوب النفقة للأولاد على الزوج، ويدخل في ذلك أيضًا النفقة على الوالدين لقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) الطلاق: ٧.

(٣) النساء: ٣٤.

لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [1]، وفي الحديث:"أنت ومالك لأبيك"[2]، وقد وضع بعض الفقهاء ضوابط وجوب نفقة الأب على الابن، غير أنه ونحن بصدد بيان دور الأسرة في بناء الشخصية الوطنية وجب النظر في النفقة وتأثيرها في ذلك، وكان الإعجاز التشريعي في قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[3].

وكان الإعجاز التشريعي أيضًا في قوله تعالى فيما ذكره من أوصاف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [4]، ويضاف إلى ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾[5]، من ثم كان التوسط في النفقة هو الملاذ لنجاة الأولاد من مضار الإسراف، وكذا من مضار التقتير الذي يعود عليهم بالوبال والخسران [6].

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) رواه ابن ماجه، حديث رقم ٢٢٩١، وابن حبان، باب حق الوالدين، حديث رقم ٤١٠ .

(٣) الطلاق: ٧.

(٤) الفرقان: ٦٧.

(٥) الإسراء: ٢٦.

(٦) انظر: الفقة الإسلامى وأدلته للزحيلي، ١٠/ ٧٣٧١ وما بعدها.

إن الجماعات الإرهابية تلتقط أفرادها غالبًا وهم صغار، حتى يشبوا على تعاليمها ويدربوهم على أفكارها ويصيروا آلة في تروسها، لا فكر لهم إلا ما دسوه لهم من أفكار وآراء، فإذا كان الإنفاق على الصغير أو الاهتمام به دون المستوى فإنها الفرصة التي تستغلها الجماعات المتطرفة والإرهابية صاحبة الأهداف البعيدة عن القانون لجذب أفرادها ليكونوا جنودًا لها في المستقبل تنفق عليهم، ومن ثم فالأسرة لها دور كبير في تنشئة أولادها تنشئة سليمة ليكونوا حماة للوطن إذا ما راعى الأب مسئوليته عن الأسرة حق الرعاية، ومن ذلك السير في النفقة على منهج الشريعة الإسلامية التي حثت على التوسط في كل شيء، ومنها الإنفاق بالمعروف، ولا يخفى ضرر التوسع أو الإسراف فيها على الصغار، إذ يغري ذلك الصغار، وربما شدهم إلى شرب المخدرات، وما يفسد العقول عمومًا، بدلاً من أن يكونوا حماة لأوطانهم.

فالنفقة بالمعروف زمام الأمان، وخط دفاع متين؛ للحيلولة دون الوقوع في براثن الشح أو الإسراف، وفيهما الهلكة للنفس والأولاد، ومدخل لعمل الشيطان وإغواءاته للأولاد والزوجة، حيث استخدم المال بعيدًا عن الصواب، وقد أمر الشرع الحنيف بالتوسط فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

مَّحْسُورًا﴾[1]، إذ ينبغى أن تكون النفقة على قدر الوسع والطاقة في حدود التوسط وبالمعروف، فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لحكمة، وقد استخلفنا الله سبحانه وتعالى في هذا المال، وسلطنا عليه، ومن ثم فهذه أمانة بأيدينا، مستخلفين فيها، نتصرف فيها وفق ما نص عليه المنهج السماوى المعجز، سواء في آيات القرآن الكريم أم فيما جاءت به السنة الشريفة [2].

بل مما يزيد الأمر وضوحًا أن الشرع أمر الأولياء والأوصياء بتدريب الصغار بعد سن التمييز على التصرف في الأموال، حتى إذا بلغوا سن الرشد، يسلم لهم مالهم، يقول تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[3]، فالمولى سبحانه وتعالى أمر الوصى باختبار اليتيم في التصرفات المالية قبل أن يعطيه ماله، فإذا أصبح يحسن التصرفات المالية وقد أصبح رشيدًا، فله أن يسلم له ماله، إلى غير ذلك من الأحكام التي

---

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) انظر: الفقه الإسلامى وأدلته، ١٠/ ٧٣٧٥.

(٣) النساء: ٦.

اشتملت عليها الآية الكريمة[1]، ومن ثم فإذا كان الأب مأمورًا بأن يدرب ولده على حسن التصرفات المالية، فهو مأمور شرعًا بأن يتوسط في النفقة حتى يصير ولده – ذكرًا كان أو أنثى- عضوًا صالحًا لوطنه، يحافظ على مقدساته ومكتسباته[2].

* * *

(١) انظر: تفسير القرطبى، ٣/ ١٦٠٤، أحكام القرآن للجصاص، نشر دار الفكر، ٢/ ٦١، ٦٢.

(٢) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد،٢/ ٥٤، ٥٥.

المطلب السابع
رعاية الوالدين لأولادهما، وأثر ذلك في بناء الشخصية

لا يقتصر دور الوالدين على رعاية الأولاد بتقديم الطعام والشراب والكساء، والرعاية الجسدية فقط، بل يعظم دور الوالدين إلى جانب الرعاية البدنية بالرعاية الخلقية، لكي يكون الصغير عضوًا صالحًا في المجتمع ذا شخصية وطنية بناءة.

من ثم تكون الرعاية للصغير بحيث يتربى على مائدة الأخلاق الإسلامية، التي عهد الله بها للوالدين، حتى يكون ذلك قرة عين له، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (١)، ويصدق ذلك الحديث الشريف:"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (٢)، والولد الصالح امتداد لوالديه، إذ بدعائه وصلاحه يصل دعاؤه إلى والده في قبره؛ لأنه امتداد لوالده.

ومن ثم لزم أن يقوم الوالدان بمراعاة حق الله في التربية السليمة للصغار حتى يشب الصغير على آداب الإسلام وأحكامه، ويسعد بذلك في الدارين، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

---

(١) الفرقان: ٧٤.

(٢) رواه مسلم.

نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١)، وفي السنة الشريفة يقول ﷺ: " مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَهُ مِنْ نُحْلٍ أَفْضَلَ من أدب حسن " (٢)، وفي السنة الشريفة أيضًا يقول ﷺ: " من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين "(٣)، وضم أصابعه.

إن الأولاد أمانة يجب الحفاظ عليها، وتربيتها على الفضائل، وآداب الإسلام وأحكامه، حتى ينعم الولد بهذه التربية، كما بينت السنة الشريفة، في الحديث المشار إليه، وهذا أمر سهل طالما كان الوالد ممتثلاً لأمر ربه، وكذا الوالدة، إذ يسهل الاقتداء للصغير بهما في أقوالهما وأفعالهما، يقول ﷺ: " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "(٤).

فإصلاح حال الوالدين أمام أولادهم هو خير أسلوب للتربية، إذ لا يعقل أن ي نهى الأب أولاده عن الكذب وهو يكذب، أو يحث الأولاد على الوفاء بالوعد وهولا يفي، إلى غير ذلك من الصور المتناقضة، فالحسن عند الأولاد هو ما يفعله الآباء والقبيح هو ما يتركه الآباء، يقول تعالى:

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) أخرجه الترمذى، باب البر والصلة، أدب الولد، حديث رقم ١٨٧٥.

(٣) رواه مسلم حديث رقم ٤٧٦٥، انظر: رياض الصالحين، حديث رقم ٢٦٨.

(٤) سبق تخريجه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [1]، ويروى أن عقبة بن أبي سفيان قال لعبد الصمد مؤدب ولده:"ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بَنِى إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت "[2].

ولتكن توجيهات الآباء للأولاد مصحوبة بالرفق واللين حتى تؤتى أكلها، إذ النفوس مطبوعة على حب الرفق، وكره الغلظة والشدة، يقول تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [3] وعن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها– عن النبي ﷺ: " إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه " [4]، وعنها أيضًا أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: " إذا أراد الله بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق"[5].

---

(١) الصف: ٢.

(٢) أوردها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في البيان والتبيين، ط القاهرة ١٣٣٢هـ، ٢/ ٣٥، ٣٦ (موقع الألوكة الاجتماعية).

(٣) آل عمران: ١٥٩.

(٤) رواه مسلم، حديث رقم ٢٥٩٤.

(٥) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم ٢٤٤٢٧.

ولا يمنع أن يكون الأب حازمًا وكذا الأم إذا كان هناك تقاعس من الصغير أو الصغيرة عن الالتزام بالخلق الإسلامي، في شتى نواحي الحياة، كعدم احترام الكبير، أو التعالي على الآخرين، أو إيذاء غيره من الصبيان، أو الأنانية، أو عدم حب الخير لغيره من الصغار، أو إيذاء الجار، أو تعدي الأخ على أخيه... إلخ.

في مثل هذه الصور يكون دور الأب المهم في أن يؤدب الصغير، ويأخذ بيده إلى سيرته الأولى، وهو في هذا يؤدى عبادة يؤجر عليها، يقول النبي ﷺ:" مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عَشْر، وفرقوا بينهم في المضاجع "[1]، وكذا كل آداب الإسلام وأحكامه، نأخذ بيد الصغير إذا تقاعس عن أدائها، أو بدر منه ما يخالف أحكام الشرع، فإذا ما لزم أن يكون ذلك بالجد لزم الجد، وليتبع الأب والأم الطرق الحديثة للتربية ما يدعو الصغير إلى الالتزام حتى يحب الخير والفضائل، ويبتعد عن الشرور والآثام، ويكون ذلك طبعًا له، فلا شك أن الثناء على الطفل إذا ما التزم بطرق الخير وعمل الخير وحسن تعامله مع الآخرين، يزيده ثباتًا وثقة بنفسه، ويحرص أن يكون جادًّا في مدرسته، أو حضانته ..إلخ، وإذا تقاعس فالأخذ بيده مطلب مهم لكي يعود إلى نشاطه المثالى الملتزم بطريق الخير والفلاح، وهذا يحتاج إلى جهاد، والأخذ بوسائل

---

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن، حديث رقم ٤٩٥.

عدة حتى يسهل عليه الاقتداء الحسن، من ذلك: الترغيب والترهيب، واستخدام الوسائل والحيل الذكية لمعالجة ما قد ينشأ من خلل يصاب به الصغير، حتى نأخذ بيده ويصير عضوًا مهمًّا بين بنى وطنه، ولبنة قوية صلبة، وليست هشة، بناءً على ما اعتراها من خلل في طفولتها، ومرجع ذلك إلى عدم الرعاية الأسرية.

إن الأب وهو المسئول الأول عن التوجيه للأولاد وكذلك الأم- بعد أن رأينا أن عيون الصغار معقودة عليهما، إذ يرى الصغار أن الحسن ما يفعله الوالدان، وأن القبيح ما يتركه الوالدان- نذكرهما بأن الصغار لم يكتمل عقلهما بعد، وقد راعى المولى سبحانه وتعالى ذلك فرفع عنهما التكليف، يقول ﷺ : " رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبى حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المعتوه حتى يبرأ "(١)، وأوكل أمرهم إلى الوالدين بحسن الرعاية والعناية، ووعدهما بالثواب الجزيل على هذه الرعاية والعناية، بجعلهم قرة عين لهما في الدنيا، وخلفًا صالحًا لهما بعد الممات، إذ يصل ثواب دعائهم وصدقاتهم للآباء بعد موتهم، ولا يتعارض ذلك مع قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٢)، ولا مع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ

(١) سنن أبي دواد، حديث رقم ٤٤٠٢.

(٢) النجم: ٣٩.

كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[1]، إذ الولد من كسب والديه، كما بين الحديث الشريف.

إن على الوالد - وكذا الوالدة – ألا يعالج ما بدر من الصغير بغضب وعنف بل عليه أولاً أن يبين أن ما فعله الصغير خطأ، وأن على الصغير أن يبتعد عنه، إذ ربما فهم الصغير أن ما فعله لا شيء فيه، وأنه عين الصواب، إذ الإدراك كما بين الحديث الشريف غير تام، فإذا لم يستجب الصغير وما زال مصرًّا على ارتكاب المخالفة، كان الترغيب والترهيب، وهو باب واسع للعلاج، وكفيل بحل أغلب مشاكل الصغار، وهو يشبه الوعظ ، فالصغير إذا ما ارتكب مخالفة ما، فلا يجب علينا أن نعجل بالعقوبة والغضب الشديد في مواجهته، أو ضربه، أو غير ذلك من الوسائل التي تتصف بالعنف، بل علينا أن نتمهل ونتريث في المعالجة، فعقلية الطفل من السهل المعالجة لها باستخدام المحفزات والوسائل الترغيبية، فإذا ما استجاب نشجعه على الثبات والاستقرار والبعد عن تلك المخالفة، بل وشكره على الطاعة، حتى يصير عضوًا نافعًا لوطنه.

ومما ينصح به علماء التربية أيضًا عدم التهديد والوعيد، أو الشتم، أو السب، أو غير ذلك، بل الذي ينصح به في حالات المخالفة هو استخدام

---

(١) فاطر: ١٨.

الوسائل الذكية في دفع الطفل عن المخالفة، وشده إلى طريق الصواب.

ومع الدور المهم للوالدين في رعاية الأولاد، ومع الصبر في توجيههم إلى الصواب ومتابعتهم فيه؛ ينبغى أن يصاحب ذلك الجو الأسرى الذي يسمح بالتشجيع والثناء على العمل الحسن، وأن نقول للطفل أنه لا حرج في أن نُخطئ ونصوّب أخطاءنا، إذ نحن بشر ولسنا معصومين، ولا معصوم إلا الأنبياء عليهم السلام، ولا مانع أن يصحب ذلك طرفة، أو مزاح، ونحو ذلك مما يخفف الجو الحاد ويرفه عن النفس، ويجعلها في فسحة من الراحة.

ويعرف المزاح بأنه كلام يراد به المباسطة بحيث لا يفضى إلى أذى، والمزاح مباح، وقد يراد به التسلية بعد الكلل والملل الذي يصاحب الشخص أثناء عمله، وقد يراد به التعلم، إذ التعلم كما يكون بالجد يكون باللعب، وفي الوسائل التربوية الحديثة ما يؤكد ذلك، وقد يكون المراد بالمزاح إزالة القلق، وقد يكون المزاح من قبيل الملاطفة والملاينة وتطييب خاطر الآخرين[1]، وهو ما يتفق مع قوله ﷺ : " تبسمك في وجه أخيك صدقة "، ومن ثم فعلى الأب والأم ألا يكون أسلوبهما حادًّا دائمًا، بل ينبغي المباسطة أحيانًا، والملاطفة مع الأولاد بما يتوافق مع سنهم.

وإذا وقعت الممازحة من الوالد أو الوالدة لمن يتعامل معهم أمام

---

(1) http://www.alnoor.se/article.asp?id=105471.

الأولاد فلا بأس إذ ذلك يدخل عليه السرور أيضًا، ويجدد نشاطهم، ويحقق الكثير من الفوائد كما عرفنا، وهذا من هديه ﷺ، من ذلك ما رواه الحسن ﷺ قال: " إن امرأة عجوزًا أتت إلى النبي ﷺ فقالت: يارسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال لها النبي ﷺ : أما علمت يا أم فلان أن الجنة لا يدخلها عجوز، فولت وهي تبكي وتولول، فقال النبي ﷺ: " انطلقوا إليها فأخبروها أنها تعود بنتًا بكرًا "، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾[1].

* * *

(١) الواقعة: ٣٥-٣٨.

المطلب الثامن
توزيع المهام في الأسرة
وأثر ذلك في بناء الشخصية

تقتضي الحكمة أن يوزع الأب المهام على الأسرة بجانب مهام دروسهم وعلومهم إذا كانوا في مراحل تعليمية متعددة، إذ نلاحظ أن أعمال المنزل غالبًا تساعد بها البنات مع الزوجة، ولا يقوم الأبناء بشيء من ذلك غالبًا، ومن ثم يترسخ لدى الشباب أن العمل في المنزل خاص بالنساء ولا يليق بكرامة الرجال، وهذا فهم خاطئ عرفناه سابقًا من فعله ﷺ ، حيث كان يعمل في خدمة أهله، فورد أنه كان يخيط نعله، ويرفأ ثوبه، ويحلب شاته.

ومن ثم ينبغي أن يراعي الأب أو تراعي الأم هذا التوجيه حتى يتعود الولد على تنظيف مكان النوم، أو المساعدة في أعمال المنزل عمومًا، وإذا ما تعود على ذلك فإنه سيكون زوجًا ناجحًا في حياته الزوجية، إذ يرفق بزوجته، ويعاونها في أعمال المنزل، ولا يثقل عليها، وهذا من العشرة بالمعروف.

ويشير القرآن الكريم إلى توزيع المهام الإدارية، ولا يفرق في ذلك بين ذكر وأنثى، والمثال واضح في قصة موسى (عليه السلام) ودور أخته في القصة، يقول تعالى : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ

أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

فهذا يبين دور أفراد الأسرة في المهام الأسرية، سواء كانت داخل المنزل أم خارج المنزل، إنما هو التدبير والحكمة، واتخاذ الحيطة، وحسن توجيه الأبناء في تطبيق المهام، وهذا ما رأيناه من أم موسى (عليه السلام) وكذا من أخته التي قامت بدورها خير قيام، والذي يصعب أن يقوم به الفرد الواحد في عصرنا هذا، بل يحتاج إلى مجموعة من المتدربين والمتدربات للقيام بهذا العمل، حيث تتبعت أخاها، وعرفت حال القوم معه، وكان وعد الله حقًّا، حيث عاد موسى لأمه .

ورأينا مثالاً آخر يقصه الله علينا حول توزيع المهام داخل الأسرة يُنبئ عن حكمة رب الأسرة ودوره حول متابعة أولاده، وهذا ما حكاه القرآن الكريم عن شيخ مدين مع موسى (عليه السلام) ، إذ هو شيخ كبير لا يستطيع أن يخرج لسقي الأغنام وأرسل ابنتيه لهذه المهمة، وهذا العمل لا يقوم به إلا الرجال غالبًا، ولذا تعجب موسى (عليه السلام) حين رآهما تزودان عن الأغنام، يقول تعالى:﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ

(١) القصص: ١١ – 13.

كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ (١)، في هذه الآيات الكريمة يتضح الدور القوي للمرأتين، حيث حكمت الظروف وهي كبر والدهما وعجزه عن أن يقوم بسقي الأغنام، بأن خرجتا وعملتا بعمل يقوم به الرجال غالبًا في هذه المنطقة، وكان أدبهما عدم مزاحمة الرجال – تمنعان غنمهما حتى لا تختلط بغنم الناس - والانتظار حتى ينتهي الرعاة من سقيهم لأغنامهم، إذ لا تستطيعان مزاحمة الرجال، غير أن موسى عليه السلام تقدم للمرأتين وسألهما عن حالهما كما يعبر القرآن ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما، ولما أتم السقي لهما، ورجعا سريعًا على غير العادة، سألهما والدهما عند ذلك، ثم طلب من إحداهما أن تذهب وتدعو هذا الرجل الذي سقى لهما ليعطيه أجر السقي (٢).

هذا الدور للمرأتين في سقي الأغنام دور مهم كلف به شيخ مدين

---

(١) القصص: ٢٣-٢٦، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ص ٥١٥٤ وما بعدها .

(٢) انظر : تفسير القرطبي،١٣/ ٢٦٧-٢٦٩.

ابنتيه، ولم ترددا في أداء هذا الدور، ولما حكى موسى (عليه السلام) حاله بأرض مصر، طمأنه شيخ مدين كما حكى القرآن: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أى أنه لا سلطان لفرعون مصر على أرض مدين، وهذا ما يوحى بالحدود الدولية، والاعتراف بها في القرآن الكريم.

ولما اقترحت إحدى البنتين استئجار موسى عليه السلام لكى يقوم بالمهام الموجودة كانت حكمة الشيخ، إذ هو شيخ كبير، وهذا الرجل موسى عليه السلام أجنبى، فكان العرض الطيب الذي يحقق الخير للجميع، كما يحكى القرآن الكريم: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1].

ففي هذه الآيات الكريمة بيان للمهام الموزعة داخل الأسرة، والتي تنبئ عن حكمة رب الأسرة، وهذا ما نحتاجه، ودل أنه لا مانع من عرض الولى ابنته على رجل صالح ليتزوجها..إلخ.

كما استفيد من قصة شيخ مدين أنه اعتد برأى ابنته، ولم يلغ رأيها، وإنما عالج الأمر بحكمة، وهو ما يشعر بأن احترام رأي المرأة مهم ومقصد

---

(١) القصص: ٢٧.

مهم في كل الشرائع السماوية، سواء في المنزل أم في خارج المنزل، مما نحن لسنا بسبيل إلى عرضه الآن[1].

وبعد ، فمصر المباركة التي حظيت بمنزلة كبيرة في القرآن الكريم، حيث ذكرها المولى (عز وجل) مرات عديدة بالنص عليها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]، ويقول تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا

---

(١) انظر في ذلك: أبحاث المؤتمر العلمى الثانى (المرأة ومسيرة التطور التنويرى – كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، القاهرة، جامعة الأزهر، دور المرأة التوعوى والمعرفي في بناء الأجيال ص ٨٠٩ وما بعدها، د/ فاطمة محمد عابد ، احترام رأى المرأة ، د/ أم هاشم حسن عبده ص ٥٩٣ وما بعدها .

(٢) يوسف: ٢١.

(٣) يوسف: ٩٩.

(٤) يونس: ٨٧.

تُبْصِرُونَ ﴾ [1]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[2]، إذ يرى فريق من العلماء بأن المراد: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ في هذه الآية بلدنا الحبيب مصر.

وفضلاً عن ذلك آيات كثيرة تشير إلى أرض مصر، وأحداث كثيرة تحكى أحداثها في مصر، وهذا ما يشعر بعظمة مصر، وقد أوصى بها رسولنا ﷺ، فعن عمرو بن العاص ﷺ قال: حدثنى عمر ﷺ، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: " إذا فتح الله عليكم مصر بعدى فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض"، فقال له أبو بكر: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: لأنهم في رباط إلى يوم القيامة "[3].

---

(١) الزخرف: ٥١.

(٢) البقرة: ٦١.

(٣) فتوح مصر والمغرب: ابن عبد الحكم، مكتبة الثقافة الدينية،١٤١٥هـ.

خاتمة البحث

من خلال المطالب السابقة في هذا البحث، ألا يدعونا ذلك أن نخلص لمصرنا كلٌّ في مجاله، وخاصة في مجال الأسرة، الأب يقوم بدوره وأداء الأمانة التي استودعها الله إياه، من تربية أولاده والإنفاق عليهم من حلال، والأخذ بيدهم إلى طريق الخير، والحفاظ على مقدرات الوطن، والبعد عن دعاوى المخربين الذين لا يريدون استقرارًا للوطن الذي اعتنى به القرآن أيما اعتناء، فقد حمى الله مصر وحفظها، ولن تتحقق لهم أغراضهم، فمصر هي كنانة الله في الأرض، تكسرت على أرضها أحلام المغول والصليبيين وغيرهم(١).

الأسرة ليست زوجًا فقط، بل هناك دور لا يغيب وهو دور الزوجة، أم الأولاد، والتي لها الدور الكبير في هذا البنيان، إذ بدورها في الأسرة تكتمل الحلقة، ويكتمل الدور، وفي هذا الإطار يتنفس الأولاد أريج الأسرة المتوهج بأسرار القرآن وأحاديث رسوله ﷺ.

وحق قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا

(١) انظر: مشروعية الدولة الوطنية، أ.د/ محمد مختار جمعة، وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سنة١٤٣٩ هجرية.

خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾[1].

وعلى الأبناء الذين رعتهم الأسرة والوطن دور مهم في أن يخلصوا لوطنهم، وأن يكونوا حماة ضد من يحاول النيل منه بأى طريق من الطرق، فكل حق يقابله واجب، ومن ثم يكتمل دور الأسرة في بناء الشخصية الوطنية [2].

* * *

□

(١) الليل: ١-٤.

(٢) المواطنة وفقه الانتماء، د/ محمد محمود الجمال، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر.

التعليم وبناء الشخصية الوسطية الوطنية المنتجة القادرة على البناء والتنمية *

يقوم التعليم على صناعة الإنسان عقيدة وفكرًا وتربية وقيمًا وسلوكًا وعلاقات وتفاعلات بينه بين ربه ونفسه والمجتمع، وهو يحتل مكانة كبرى منذ بداية التاريخ وعلى مدى مختلف العصور ولا يزال وإلى اليوم وحتى تقوم الساعة.

التعليم وبداية البشرية وبداية رسالة الإسلام:

بدأت البشرية كلها بآدم (عليه السلام) الذي علمه الله الأسماء كلها وبهذا تفوق على الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]، وبدأت رسالة محمد ﷺ بالتعليم والعلم والقراءة، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2].

---

* كتب هذا البحث: الأستاذ الدكتور/ نبيل السمالوطي- العميد الأسبق لكلية الدراسات الإنسانية وأستاذ علم الاجتماع - جامعة الأزهر- مصر.

(١) البقرة: ٣١-٣٢.

(٢) العلق: ١- ٥.

وإذا نظرنا إلى التعليم وبداية الحضارات القديمة نجد أنها ما قامت ونهضت وتقدمت إلا بالتعليم والعلم، فحضارة مصر القديمة التي هي أقدم وأعرق الحضارات بدأت بالعلم الديني والعلم الدنيوي معًا، وكلاهما علوم إسلامية طالما أنها تستهدف إصلاح الناس والارتقاء بمستوى حياتهم إلى الأجود والأفضل في إطار منظومة من القيم والأخلاق التي تتفق مع الفطرة والعقل وأوامر الخالق عز وجل، وقد كان التعليم في مصر القديمة - كما يشير إلى ذلك أكبر الكتَّاب في الحضارة المصرية القديمة وفي مقدمتهم " برستد " صاحب كتاب (فجر الضمير في الحضارة المصرية القديمة) ، و" نجيب ميخائيل" وغيرهما - متقدمًا شكلاً وموضوعًا بدليل إنجازاتهم العبقرية في الطب والهندسة والنحت والتحنيط وعلوم الفلك .... إلخ، وقد بنيت الحضارة الصينية والهندية واليونانية والرومانية وحضارات الشرق القديم في بابل وأشور على تعليم متقدم بمعايير العصر، وكانت الحضارة المصرية القديمة أقدم الحضارات قاطبة؛ فقد جاء إلى مصر العديد من كبار الفلاسفة والمفكرين والعلماء، جلسوا فيها وتعلموا من علومها مثل أفلاطون وأرسطو وفيثاغورث وعلماء القانون في اليونان والرومان وغيرهم .

كل هذا يعني أن التقدم والحضارة والعقيدة والعلوم والفنون للارتقاء بحياة الإنسان والمجتمع ترتبط حتمًا بالتعليم وأشكاله ومناهجه

وأساليبه وأهدافه المختلفة، ولم نرَ أمة أو دولة تقدمت ونهضت علميًّا أو فكريًّا أو أخلاقيًّا أو أدبيًّا أو فنيًّا إلا بالتعليم، فالمسلمون الأوائل في القرون الأولى الذين فهموا أوامر القرآن والسنة بضرورة التدبر وفهم سنن الله في الكون والمجتمع والتاريخ والنفس الإنسانية ومختلف خلق الله واستوعبوها وطبقوها؛ انطلقوا فأبدعوا علومًا وفنونًا وآدابًا جديدة، وطوروا ما وُجد منها في الحضارات السابقة، وهم لم يحفظوها ويترجموها فقط إلى العربية ولكنهم تعدوها وأضافوا إليها وشرحوها، ويكفي في هذا الرجوع إلى ابن رشد وابن سينا، فابن رشد هو المعلم الثاني بعد أرسطو قد أعلى من قيمة العقل، وأثبت استحالة تصادم العقل السليم مع النقل الصحيح ، ليس هذا فحسب، وإنما امتدت عبقرية علماء المسلمين إلى رفض المنطق الأرسطي على أساس أنه لا يؤدي إلى جديد، وابتدع المسلمون نوعين من المنطق لا غنى للمجتمع عنهما؛ القياس الشرعي: وهو غير القياس الأرسطي، وهو قياس الشاهد على الغائب والاستدلال بالنصوص وتطبيقها على وقائع جديدة بشرط توافر شروط ومكونات ما جاء بالنص الشرعي، أما المنطق الثانى الذي أبدعه المسلمون ولم يعرف قبلهم فهو المنطق العلمي التجريبي: وهو الذي أبدعه علماء أصول الفقه من خلال مفاهيم الدوران وتنقيح المناط أي دوران العلة مع المعلول وجودًا وعدمًا، واستصفاء العلة الحقيقية

للحكم الشرعي أو العلمي بعد استبعاد المسارات الأخرى، فالعلة في تحريم الخمر ليس اللون الأحمر أو الفوران أو الغضب إنما العلة هي الإسكار.

فالمسلمون الأوائل عندما فهموا مقصود الشرع أبدعوا علومًا وفنونًا وآدابًا، وأبدعوا مناهج استقرائية واستنباطية، عقلية وتجريبية، وطوروا التعليم والتعلم والعلم فكانت أقوى حضارة علمية أنتجت قيمة فكرية فنية وأدبية في تاريخ العالم، وكانت هي الحضارة التي استمد منها الغرب من القرن الخامس عشر الميلادي كل المفاهيم التي قضى بها على عصور الظلام والتخلف عنده على مدى أكثر من ألف عام، وهي الحضارة التي أوجدت في الغرب عصر التنوير وعصر النهضة.

التعليم وبداية النهضة الحضارية المعاصرة:

وفي العصر الحديث والمعاصر لم تتقدم الدول إلا من خلال تجديد الخطاب وتطويره في الأنشطة والمناهج التربوية والتعليمية، فاليابان بعد ضربها لأول مرة في التاريخ بالقنابل النووية في هيروشيما ونجازاكي، انصب اهتمامها على التعليم والعلم والبحث العلمي وبناء الشخصية اليابانية المسلحة بالمعرفة والعلم والولاء للوطن، بدون توفر أية ثروات أو إمكانات مادية كبيرة، وهكذا وصلت اليابان إلى تفوقها العلمي والتقني والبشري والاقتصادي والاجتماعي المعاصر.

وإذا انتقلنا إلى الاتحاد السوفيتي بعد ثورة ١٩١٧م نجد أنه ركز

وبشكل كبير على التعليم لبناء الشخصية المتعلمة المبدعة، فركز التعليم السوفيتي على بعض المجالات الاستراتيجية لمواجهة الفكر والمجتمعات الرأسمالية، خاصة في مجال العلوم العسكرية وصناعة السلاح وريادة الفضاء، وكذلك قامت الولايات المتحدة بإعادة النظر في التعليم، سواء من حيث المناهج الدراسية أو إعداد المعلم أو نوعية العلوم المدروسة والبحث العلمي بداخل المعاهد والمؤسسات العلمية، أو إدارة التعليم وإدارة البحث العلمي، أو مناهج بناء الشخصية الأمريكية بفكرها واتجاهها ومعارفها وصولاً إلى الإبداع والابتكار، ومن ثم طوروا وأبدعوا وأنشأوا وكالات بحثية وعلمية متقدمة، وحدَّثوا مراكز الجامعات والمؤسسات العلمية، والحال نفسه هو ما قام به المسئولون في بريطانيا بعد أن أدركوا أهمية التعليم وأثره، وهو ما جعل قادة بريطانيا يؤكدون أن المشروع القومي أو الوطني الأول في الدولة هو التعليم ، وهذا ما فعلته أيضًا الصين بتعزيز ودعم تكامل السياسة مع الاقتصاد استنادًا إلى بناء شخصية الصين الأيديولوجية والسياسية والمعرفية والعلمية المبدعة من خلال التعليم ، والأمر نفسه حدث مع النمور الآسيوية مثل كوريا الجنوبية وفيتنام وسنغافورة ... إلخ، هذه وغيرها وصلت إلى أعلى درجات التنمية الشاملة، وإلى بناء الشخصيات المبدعة الوطنية المنتمية والموالية لوطنها من خلال التعليم والبحث العلمي.

مفهوم التعليم الجيد:

إن التعليم والبحث العلمى هو المدخل الأساسى والإستراتيجى لكل تقدم على كل المستويات الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية والاجتماعية والعسكرية والدينية، والتعليم هو المدخل الوحيد والأساسى لبناء الشخصية الوطنية بجوانبها العقائدية والفكرية والقيمية والمعرفية والجسمية والاجتماعية والانفعالية ... إلخ؛ الشخصية القادرة على الإبداع والابتكار واستيعاب كل المتغيرات والإضافة إليها بما يدعم القيمة الوطنية ورفع مستوى الحياة وتحسين نوعية حياة المواطن.

التعليم هو القادر على خلق الشخصية الإيجابية والمواطن المشارك والمسئول عن مواجهة أزماته وأزمات أسرته ومجتمعه ودولته، والقادر على مواجهة كل أنواع التخلف وتحقيق كل أنواع التقدم والتنمية.

كل ذلك من خلال تعليم وتعلم جيدين قادرين على تنمية التفكير النقدى واستيعاب علوم العصر وفق القدرة الاستيعابية لكل مرحلة تعليمية؛ تعليم قادر على غرس العقيدة الصحيحة ومنظومة القيم العليا ومكارم الأخلاق، تعليم قادر على تنمية روح المواطنة والتسامح واحترام حق الآخر في العبادة وإبداء الرأي وحرية التفكير، تعليم قادر على التفاعل مع الآخر المختلف دينيًّا وعقائديًّا وفكريًّا وعرقيًّا واقتصاديًّا بشكل إيجابي وصولاً إلى مشتركات ثقافية واقتصادية وفكرية مشتركة، يعمل الجميع على بنائها وتنميتها لفائدة الجميع وتقدم المجتمع والوطن المشترك، تعليم ينمي

الحوار العلمى البنَّاء ويعلِّم الطلاب أدب الاختلاف وترك المختلف فيه، إيمانًا بأن التعددية والاختلاف بين الناس سنة وإرادة إلهية، قال تعالى:﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١)، وقال تعالى :﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ (٢)، تعليم يعلم الناس أو الطلاب التركيز على كل ما يحقق التقدم العلمي والتكنولوجي والمعرفي والفكري والاقتصادي والسياسي والاجتماعي للوطن المشترك، تعليم يركز على السمو على سفاسف الأمور والاهتمام بعظائمها، تعليم يعلى من قيمة الوطن والمواطن ويسهم في تحسين مستوياته المعيشية، ويحقق للمواطن جودة الحياة على كل المستويات التعليمية والصحية والمادية والاقتصادية والنفسية والاجتماعية .. إلخ.

إن التعليم الجيد القادر على تشخيص عوامل التخلف ورسم سبل مواجهتها، هو الذي لا يقوم على التلقين فقط وجعل المتعلم كائنًا سلبيًّا متلقيًا لا دخل له في الوصول لمصادر المعرفة، إنما هو التعليم الذي يعلم الطالب كيف يفكر، وكيف يتواصل بنفسه مع مصادر المعرفة، وهو الذي

---

(١) هود : ١١٨- ١١٩.

(٢) الشعراء : ٣- ٤.

يدرب الطالب على نقد ما يصل إليه من معارف من مصادرها المختلفة، وهو الذي يمكّن الطلاب من المقارنة بين المعارف على أساس معايير علمية موضوعية، كما يمكنهم من استبعاد بعض المعارف وإعلاء شأن أخرى بناء على هذه المعايير، وهو الذي يمكِّن الطلاب من حل المشكلات، ليس فقط المشكلات العلمية والمعرفية والفكرية، ولكن حل مشكلات الواقع الذي يعيشونه، سواء أكانت أسرية أو اقتصادية أو اجتماعية أو بيئية.

التعليم الجيد لا يكتفي بالمعلومات سواء التي توجد في الكتب والمراجع أو التي يصل إليها الطلاب بأنفسهم من مصادرها الورقية أو الإعلامية أو الإلكترونية أو الحياة الواقعية .. إلخ، وإنما يجب أن يزاوج بين المناهج المعرفية والأنشطة الواقعية التي تسهم في بناء الشخصية وغرس القيم والأخلاق وتنمية روح المواطنة، وتدرب الطلاب على ممارسة ما يتلقونه نظريًّا، فحين نتحدث عن الحوار والتسامح وحقوق الغير وأدب الاختلاف، نتحدث عن أهمية وقداسة الوطن والمواطنة، وعن أهمية تاريخ البلد وضرورة الاعتزاز به، وحين نتحدث عن مشروعات عملاقة تقوم بها الدولة – في مصر مثلاً- مثل مشروعات الطاقة والكهرباء والطرق والإسكان والقضاء على العشوائيات، ومحور قناة السويس، وتنمية سيناء، وتنمية الصعيد من خلال إنشاء قناطر أسيوط وغيرها، وإنشاء مصانع للأسمنت والأدوات الكهربائية والبترولية وغيرها، نتحدث عن كل هذا

وغيره نظريًّا؛ فإن هذا لا يكفي لبناء الشخصية المنتمية الموالية المحبة لمجتمعها؛ إذ لابد من تنظيم رحلات إلى بعض هذه المناطق ليراها الطلاب بأعينهم.

نحن حين نتحدث عن عمق الحضارة والتاريخ المصري وأنها أول حضارة، وأول دولة، وأول مجتمع عرف الزراعة واستئناس الحيوان، وأول دولة عرفت التوحيد وآمنت بالبعث والحساب والعقاب والثواب في اليوم الآخر، وأول دولة أبدعت في علوم الطب والكيمياء والألوان والتحنيط والهندسة والعمارة والزراعة ... إلخ ، وأول دولة حققت قيم العدالة الاجتماعية والرخاء بين أبناء الشعب؛ فإنه لا يكفي للإيمان بهذا أن تحفظ فقرات في كتب فقط، وقد تنسى ولا يبقى لها أثر على الرغم من اعتزاز الطلاب بتاريخهم وحضارتهم وبلدهم، بل إن الأمر يتطلب ضرورة وجود رحلات إلى الأماكن الأثرية والتاريخية المتميزة في مصر لتثبت هذه المعلومات، ورؤية ما كتب على الآثار التي يرجع عمرها إلى سبعة آلاف سنة من إنجازات نعجز عنها نحن اليوم في حضارة القرن الحادي والعشرين؟ فيجب علينا في مصر أن نصحب طلابنا إلى المتاحف والمناطق الأثرية لنرى بأعيننا عظمة حضارتنا ومجتمعنا، وأذكر عندما كنت في الثانوية العامة، كانت هناك رحلة شبه إجبارية للاطلاع على حضارتنا العظيمة في الأقصر وأسوان.

كل هذا يعني أن التعليم المعرفي فقط لا يكفي لتنمية المهارات ولغرس الأفكار والقيم وصناعة سلوكيات مخططة وأساليب فعالة للتفكير والعلاقات والمعاملات، وبناء الشخصية الوطنية المسئولة المشاركة في قضايا مجتمعها، وأن الأمر يتطلب أجندة وأنشطة وفعاليات متعددة كالمعامل والمكتبات الورقية والإلكترونية، وأنشطة ثقافية ورياضية وفنية، ورحلات وزيارات للمواقع الأثرية والصناعية والزراعية والجغرافية التي تتحقق فيها تنمية متميزة.

التعليم وصناعة الإنسان الوطني العصري:

يعد التعليم المقترن بنموذج متقدم من التربية الفكرية والروحية والمعرفية والعقلية والجسمية والصحية والاجتماعية والأخلاقية والقيمية .. إلخ، هو المدخل الأساسي - إن لم يكن الوحيد - لصناعة الإنسان الوطني العصري بالمعايير السابقة، وقد تبنى أستاذي المرحوم الدكتور/ أحمد أبو زيد شيخ الأنثربولوجيِّين العرب مشروعًا في جامعة الإسكندرية يدور حول إعادة بناء الإنسان المصري، وقد أوضح المشروع أبرز الخصائص الاجتماعية والثقافية التي يجب غرسها وبناؤها داخل الإنسان المصري وقت إطلاق البرنامج، وظهرت محاولات أخرى من جانب بعض الجامعات والمراكز العلمية، لكنها توقفت عند مرحلة الوصف والتشخيص، وأهمية التغيير في بعض جوانب الشخصية.

ويهمنا هنا التطرق لمفهوم بناء أو إعادة بناء الإنسان، فالبناء أسهل كثيرًا لأنه يغرس الخصائص المطلوبة منذ الطفولة المبكرة، ويستمر في غرسها حتى التخرج من الجامعة، أما إعادة البناء فهو عمليًّا أصعب لأنه يتضمن عملية نزع الخصائص غير المطلوبة أولاً، أو ما يطلق عليه Dis learning، ثم غرس الخصائص للشخصية المستهدفة Learning، وكلاهما عمليتان بالغتا الصعوبة، ومن جهة أخرى فإن التصور المقترح المستقبلي سواء للبناء أو إعادة البناء يقتضي وضوحًا كاملاً لأركان الشخصية المطلوبة مستقبلاً، بما فيها الأركان أو الأبعاد العلمية المعرفية، أو الأركان الأيديولوجية العقدية، لأنه لا يوجد مجتمع في التاريخ أو في العالم قديمًا وحديثًا يقتصر تركيزه على الجوانب المعرفية العلمية فحسب، فهناك بالضرورة الجوانب الأيديولوجية أو العقائدية أو الأخلاقية أو التوجهات الفكرية والمذهبية التي يؤمن بها المجتمع أو قادة المجتمع أو الأمة، والتي يجب غرسها في النشء أو المطلوب إعادة بناء شخصياتهم من المراهقين وصغار الشباب على أساسها.

وبالرجوع إلى مختلف الأيديولوجيات الكبرى، كالماركسية والرأسمالية والمختلطة، أو إلى المعتقدات والأديان سواء السماوية، أو الوضعية كالبوذية والهندوسية والشنتوية، نجد أن لكل منها تصورًا حول نوعية الخصائص والسمات الشخصية المطلوب من برامج التعليم غرسها في الأطفال أو النشء أو الشباب.

إن بناء الإنسان المصري في إطار : التنمية المستدامة ، والعلم، والتعددية، والحوار، وقبول الآخر قد ورد في تكليف الرئيس المصري عبد الفتاح السيسى للحكومة للعمل على إعادة بناء الإنسان المصري، وقد تم تكليف كل أعضاء الحكومة بذلك، وهنا يجب أن يكون لدى المسئولين منظومة محددة من السمات والخصائص الشخصية المستهدف غرسها في الأطفال والنشء والشباب ، حتى يكونوا مواطنين صالحين منتجين ومتعاونين، ومزودين بمنظومة قيم تمكنهم من قبول التعددية، وقبول الآخر، وقبول الاختلاف، وقبول الفكر الجديد والإبداعات والابتكارات المختلفة، ومزودين بفكر وقيم وأخلاقيات تمكنهم من التواصل مع مصادر المعرفة والإبداع، ومحاولة تغيير الواقع إلى ما هو أفضل، بشرط أن يكون كل ذلك في إطار المنظومة القانونية الحاكمة للبلاد، ويمكن القول : إن نموذج الشخصية المطلوب بناؤها في رياض الأطفال والمدارس والمعاهد والجامعات ومؤسسات الثقافة والمؤسسات الدينية والمؤسسات الاجتماعية يتمثل في أمور، أهمها :

(أ) الإيمان بأن التعددية والاختلاف بين البشر في العقيدة والآراء والسلوك والمستويات الاقتصادية والاجتماعية إرادة إلهية لابد من قبولها.

(ب) قبول التعددية باعتبارها سنة الله في الخلق، وهذا يتطلب التعايش السلمي بين المختلفين.

(ج) التعايش السلمى بين المختلفين دينيًّا وعرقيًّا وفكريًّا واقتصاديًّا .. إلخ، يتطلب البعد تمامًا عن الواقع الشخصي المختلف فيه، والتعاون على المشتركات الوطنية والاقتصادية والاجتماعية التي تحقق الخير للجميع بصرف النظر عن الاختلافات الشخصية .

(د) التعاون بين كل المواطنين يعني أن هناك مشتركات أهمها وأعلاها أننا نعيش في وطن واحد، وعلى أرض واحدة، ونعاني من مشكلات مشتركة، ولنا آمال وطموحات أو تطلعات مشتركة، أهمها امتلاك مفاتيح العلوم والفنون وتكنولوجيا العصر، وأن نوظفها في مواجهة أزمات المجتمع والأسر والتجمعات المصرية، وتحقيق التنمية المستدامة التي لا تلوث البيئة، ولا تعتدي على حقوق الأجيال المقبلة، والتي يعود ناتجها المادي والأدبي على جميع الطبقات والفئات، والتي تحقق الاستمرار في الزمان والعمومية لكل أنحاء المجتمع أو الدولة.

(هـ) برامج التعليم من مراحله الأولى إلى أعلى الدرجات يجب أن تركز على السلام والوسطية والمواطنة، وعلى تحصيل أعلى درجات العلوم وتكنولوجيا العصر، على حسب القدرة الاستيعابية لكل مرحلة دراسية، كذلك يجب أن تركز على الإنجاز وتحسين مناخ الاستثمار، وتحسين المستويات الاقتصادية، وتحقيق صور الحياة الكريمة لكل من يعيش على أرض الوطن دون النظر إلى الاختلافات الحتمية بين المواطنين في العقيدة

والرأي والتوجه والمستويات الطبقية والفكرية.

العوامل المرتبطة ببناء وإعادة بناء الشخصية الوسطية المعتدلة:

لعل أهم العوامل أو العمليات المطلوبة لبناء شخصية الأطفال والنشء ما يلي:

أولاً: بناء النظام التعليمي من مراحله الأولى إلى الجامعة مرورًا بالمراحل المختلفة، بحيث يجمع في عمق وتكامل بين التعليم والتربية، يعلم الطلاب كيف يفكرون ويتواصلون مع مصادر المعرفة، وكيف يحلون المشاكل العلمية (مسألة حساب أو أسئلة في النحو ... إلخ) والمدرسية (العلاقة مع الأقران والمدرسة) والأسرية والحياتية، وهذا لا يتحقق إلا من خلال خلق منظومة متكاملة من العوامل أهمها وجود بناء مَدرسي صالح توجد فيه ملاعب وأماكن للأنشطة الفنية والثقافية والترفيهية إلى جانب فصول الدراسة ووسائل الإيضاح للدروس، بحيث تكون جيدة ومشاهدة من كل التلاميذ، وأيضًا يجب أن يكون مقعد التلميذ مريحًا حتى يكون قادرًا على استيعاب الدروس، وعلى الحوار والمناقشة مع المدرس والطلاب.

وإلى جانب المبنى المدرسي الصالح للتربية والتعليم هناك العمود الفقرى للعملية الدراسية وهو إعداد المعلم القادر على التعامل مع النشء والشباب، والذي يجمع بين المعرفة العلمية بالمادة التي يدرسها وبين المهارات التربوية وطرق التدريس التي تنمي التفكير والإبداع والتواصل

مع مصادر المعرفة.

وهناك جانب المناهج الدراسية والكتب المدرسية التي يجب ألا تقل في مستواها العلمي في مجال العلوم التطبيقية والرياضيات عن الكتب المدرسية في الدول المتقدمة، أما في مجال العلوم الاجتماعية والدينية فيجب أن نركز على تعليم صحيح الدين وتاريخ مصر وجغرافية الوطن، على أن يكون التدريس المعلوماتي مقترنًا بأنشطة مختلفة ورحلات لبناء شخصية وسطية متسامحة قادرة على التفكير والحوار، معتزة بوطنها ولديها الولاء والفخر بتاريخ بلادها بوصفها أقدم حضارات العالم، وعاش بها عدد كبير من أنبياء الله، ولها العديد من الأفضال بذكرها في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية.

هذا الفخر والولاء لمصر، وهذا البناء لشخصية وطنية وسطية مشاركة متفاعلة منجزة منتجة، يحتاج لمعلم جيد ومدرب صالح متفائل يتسم بشخصية انبساطية محبة للتلاميذ.

وإلى جانب المبنى والمناهج وإعداد المعلم هناك الأنشطة المدرسية، وهناك الإدارة التربوية العلمية، وهناك الأجهزة التربوية والتعليمية، كالخدمة الاجتماعية والمكتبات والمعامل، والتفاعل مع البيئة المحيطة، وخدمة المجتمع والملاعب وغرف التربية الفنية والمسرحية والهوايات المختلفة... إلخ، مع الاسترشاد بالدول التي سبقتنا في تقدم التعليم مثل كندا وفنلندا واليابان

والنمور الآسيوية، وبما أننا لنا خصوصيتنا الدينية والقيمية الأخلاقية، فإنه يجب أن تُراعَى هذه الخصوصية من خلال المناهج الدينية والتاريخية والاجتماعية، ومن خلال الأبنية المدرسية.

ثانيًا: بناء الإنسان وصياغة شخصيته يعتمد بالدرجة الأولى على نوع التنشئة والتربية الأسرية، باعتبار أن الأسرة مؤسسة مسئولة عن الإنجاب والتربية، لكنها مؤسسة غير مخططة، أما المؤسسة المخططة التي لها المسئولية الأولى والأساسية في بناء الشخصية المصرية التي تتسم بالوسطية والقيم العليا وتتسلح بأحدث علوم وفنون وتكنولوجيا العصر والممارسة العليا للحرف والمهن والفنون الراقية (طب – هندسة – قانون – زراعة – ... إلخ) فهي المؤسسات التعليمية بجميع مراحلها حتى الدرجات الجامعية العليا.

لكن مع المؤسسة الأسرية والتعليمية هناك مجموعة من المؤسسات مسئولة عن صياغة وبناء فكر وقيم وأخلاق وسلوك وعلاقات النشء والشباب، من خلال أنواع كثيرة من الخطابات – التي يجب أن تتكامل مع الخطاب التربوي والتعليمي الذي فصلنا بعض الشيء في مكوناته – تقوم بها مؤسسات الدين والإعلام والثقافة ... إلخ. وهذه المؤسسات والخطابات هي التي تؤسس للشخصية الوسطية.

يقصد بالخطاب في هذا البحث كل ما تقدمه المؤسسات الأسرية

والتعليمية والتربوية والإعلامية والدينية والثقافية والرياضية والشبابية وأجهزة المجتمع المدني، سواء جمعيات أو منظمات غير حكومية، إلى جانب ما يقدم للنشء والشباب من خلال أجهزة التواصل الاجتماعي من توجهات ومعلومات ومهارات مخططة أو غير مخططة، فالخطاب يمثل في نظرى مجموعة من الجهود التعليمية والدعوية والعبقرية والقيمية والفكرية والسلوكية التي تستهدف غرس قيم، أو تنمية فكر، أو تعليم علاقات وأساليب تفكير وسلوك وعلاقات مع الله (عز وجل)، ومع النفس، ومع الآخرين، ومع المجتمع الذي نعيش فيه .

فالخطاب يتضمن معلومات ومهارات وتوجيهات وسلوكيات وقيمًا ومعايير، ويعد قوله (عليه الصلاة والسلام) : " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[1] خير أهداف التربية الوسطية، وخير مثال للشخصية الإسلامية المعتدلة المتسامحة التي تتعامل مع كل الناس دون تمييز وباحترام، وتقبل الآخر باعتباره إنسانًا، وتقبل وتتفاعل إيجابيا مع الرأي المخالف، ومستعدة للتنازل عن آرائها إذا وجدت الحق والخير والصلاح لدى الطرف المعارض، الشخصية التي تميل للعفو كلما أمكن ذلك، الشخصية التي ترى أن التعليم والتعلم وطلب العلم والعمل المنتج والإنجاز من الفرائض الدينية الواجبة بقدر الطاقة الممكنة،

---

(١) سنن الترمذى، حديث رقم ١٩٨٧ .

الشخصية التي ترى الوطن والحفاظ على ترابه وأرضه ومن يعيشون عليه من المواطنين والحفاظ على مؤسساته وكيانه فريضة دينية، الشخصية القادرة على استيعاب كل علوم ومعارف ومستجدات العصر، والقادرة على فرزها في ضوء معايير الشرع وفي ضوء معايير صالح الشخص وأسرته ومجتمعه ووطنه، والتعامل معها بإيجابية، الشخصية القادرة على الإسهام في الإضافة إلى المعارف والعلوم بكفاءة، الشخصية القادرة على التعامل بإيجابية مع وسائل التواصل الاجتماعي والشبكة الدولية، حيث تستطيع توظيفها للحصول على معارف ومهارات وعلوم في كل المجالات الفكرية والمهنية، وأيضًا توظيفها للترفيه المحترم دون ابتذال أو إسفاف أو انحراف.

وحديث الرسول ﷺ السابق الإشارة إليه يتضمن كل ذلك وأكثر، فهو يؤكد على تقوى الله في كل زمان ومكان، وعلى ضرورة ترك السيئات فورًا واستبدالها بأعمال وطاعات وقربات إلى الله، دون إبطاء، وعلى مخالقة الناس، كل الناس دون تمييز، بخلق حسن.

هذه الجوانب المتعددة المتفاعلة من الشخصية المطلوب غرسها في النشء والشباب تتحقق من خلال مجموعة من الخطابات كما سبق الذكر، ولكن أهم هذه الخطابات وأكثرها تأثيرًا الخطاب التعليمي والتربوي الذي يتحقق ابتداءً من فترة الحضانة وحتى الجامعة، مرورًا بمراحل التعليم قبل الجامعي، والعمود الفقري هنا هو المعلم التربوي المعد بشكل جيد لأداء هذه المهام.

والخطاب التعليمي التربوي يتضمن بالضرورة كل أنواع الخطاب الأخرى، فالخطاب الديني يتحقق من خلال حصص التربية الدينية، ومناهج التربية الدينية، والأنشطة المرتبطة بها داخل المدرسة أو خارجها، والخطاب الإعلامي أيضًا متضمن بالضرورة في الخطاب التربوي من خلال طابور الصباح وما يلقى فيه من كلمات، ومن خلال تحية العلم، ومن خلال الصحافة المدرسية وغيرها، والأمر نفسه بالنسبة للخطاب الثقافي، حيث يتحقق داخل المدرسة من خلال الندوات واللقاءات مع قادة ورموز المجتمع والمسئولين، ومن خلال الرحلات، ومن خلال المسرح المدرسي وغيره من الأنشطة .

الآليات التربوية المدرسية لبناء الشخصية الوطنية :

وإذا ما وصلنا للخطاب الوطني أو القومي أو تنمية الولاء للوطن وتنمية مفهوم المواطنة لدى التلميذ، فأرى أن المدرسة من أهم المؤسسات المؤهلة لذلك، ولا يمكن تنمية حب الوطن والمواطنة إلا من خلال عدة آليات لابد من توافرها:

١- دراسة تاريخ مصر وكيف أنها أول وأقدم دولة وحضارة، فإذا كانت الكتابة في مصر عمرها سبعة آلاف سنة، فإن الحضارة المصرية تمتد إلى بداية البشرية.

٢- دراسة وفهم أهم إنجازات المجتمع المصري القديم والوسيط والحديث، وأبرز الإنجازات والانتصارات التي حققتها الحضارة المصرية

على مدى هذه العصور.

٣- دراسة أهم الانتصارات التي حققتها مصر قديمًا وحديثًا وأهمها حديثًا انتصارنا على إسرائيل في حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣م واستعادة عزتنا وكرامتنا وأرضنا، وانتصارنا على بعض صور الإرهاب والتطرف في ثورة الثلاثين من يونيو ٢٠١٣م.

٤- دراسة أهم رموز المجتمع المصري وقادته وأهم إنجازاتهم قديمًا وحديثًا، وهذا يشمل عددًا من الأنبياء، وكذلك الرموز الوطنية وصولاً إلى الرئيس / عبد الفتاح السيسي الذي أنقذ مصر من براثن التطرف والإرهاب بأشكاله المختلفة.

٥- زيارة أهم المواقع المصرية العالمية، سواء على المستوى الأثرى أو السياحي، سواء السياحة الترفيهية أو العلاجية أو الثقافية أو العلمية ... إلخ.

٦- زيارة أهم المشروعات الكبرى أو العملاقة الحديثة التي تنقل مصر إلى مصاف النمور الآسيوية، سواء في مجال قناة السويس أو الإسكان أو الطرق أو الكباري أو الغاز أو الجامعات والمدن العالمية الحديثة ... إلخ.

٧- ضرورة الاهتمام بدراسة اللغة العربية فهي لغة القرآن الكريم ووعاء الحضارة العربية الإسلامية وعلومها.

٨- شرح أهداف محاولة النيل من مصر واستقرارها من خلال آليات الجيل الرابع والخامس من الحروب، وهي الإشاعات والتشكيك في كل

أجهزة الدولة، ونشر أخبار كاذبة، وإحداث الفتن بجميع أنواعها، ومحاولة إشعال حروب أهلية بين المواطنين على أسس دينية أو مذهبية أو عرقية أو اقتصادية ... إلخ، ومحاولة نشر التطرف والإرهاب، واستلاب عقول الشباب، وتوظيف الكتائب الإلكترونية على الفيس بوك والتويتر والواتس وغيرها من آليات التواصل الاجتماعي؛ لتزييف وعي الشباب وتجنيدهم لتبنى التطرف والفساد وممارسة الإرهاب والقتل وسفك الدماء وترويع الآمنين، والتشكيك في المؤسسات والمسئولين، كل هذا باسم الدين، وهذا أخطر الأسلحة الإرهابية لتفكيك وتدمير الدول والحضارات.

ولا شك أن الإسلام الحقيقي وكل الرسالات السماوية تعادى هذه التوجهات؛ لأن جميعها يدعو للسلام والأمن والتعايش السلمي والتقدم وتحسين مستويات المعيشة وتحقيق جودة الحياة للجميع.

وهنا لابد للمدرسة من خلال المناهج والأنشطة المختلفة أن توضح حرب الدولة ضد التطرف والإرهاب في مصر عامة وفي سيناء خاصة، وعلى المدارس توضيح انتصار الجيش والشعب والمؤسسات المصرية على كل أشكال الإرهاب، وأن الجيش المصري المكون من كل أطياف المجتمع هو مؤسسة حامية للشعب وللوطن وللأرض وللعرض، وأنها توظف كل إمكاناتها لمواجهه أزمات المجتمع المختلفة، دون أن يؤثر ذلك على قدرتها على حماية مصر بحدودها المختلفة، وتأمين مصر برًّا وبحرًا وجوًّا.

٩- الاهتمام بدور التعليم في تحصين الطلاب ضد آليات الجيل الرابع والخامس من الحروب ، وفي مواجهه الكتائب الإلكترونية للجماعات المتطرفة والإرهابية التي تحاول احتلال عقول الشباب.

بهذا وغيره من الأنشطة والآليات التربوية والتعليمية والثقافية تسهم المدارس بشكل جاد وعميق في بناء الشخصية الوطنية التي لها ولاء قوى وحقيقي للأرض والوطن والتاريخ والحاضر، وبهذا تنشأ الشخصية الوطنية المحصنة ضد كل حملات التطرف والفساد والإرهاب والعنف، الشخصية المسلحة بحب العلم والتفكير النقدي، المسلحة بالحرف والمهن والعلوم والتكنولوجيا، الشخصية القادرة على الإبداع والابتكار والإنتاج وإتقان العمل والإنجاز، الشخصية القادرة على استيعاب كل مستجدات العصر وتحويل مصر إلى كيان اقتصادي قوى يتغلب على الكيانات الأخرى.

التعليم الأجنبي وخطورته على الشخصية الوطنية:

أوضحنا أن المدارس بما تقدمه من مناهج وأنشطة ومهارات وقدوة حسنة، وما تطبقه من استراتيجيات- بالشكل السابق بيانه- تسهم بلا جدال في بناء الشخصية الوسطية الوطنية المنتجة المسلحة بالعلم والقيم العليا، وقبل هذا المسلحة بالولاء لله ثم الوطن، وبالمواطنة المسئولة، وبالمعرفة والمهارات والقدرة على التفكير الإبداعي والتفكير النقدي،

والذي يجعلها محصنة في مواجهه كتائب الإرهاب الإلكترونية الآتية من الشرق والغرب بأرقام فلكية .

وإذا فحصنا بعض المدارس والجامعات الأجنبية، نجد أنها في غيبة مجموعة من الضوابط والأبعاد قد تصبح خطرًا على بناء الشخصية الوطنية، وما ذاك إلا لأنها تفشل في خلق شخصيات لديها ولاء وانتماء إيجابي لبلدها، فبعض هذه المؤسسات الأجنبية لا تعير اهتمامًا لدراسة اللغة العربية أو التاريخ الوطني أو رموز الوطن، ابتداءً من الفرعوني إلى المسيحي فالإسلامي وحتى وقتنا الحاضر، فتهمل التعليم الوطني لغة وتاريخًا وحضارة وواقعًا.

وقد سجل العديد من المعيدات في قسم الاجتماع جامعة الأزهر رسائل علمية تحت إشرافي حول مدى دراسة المدارس الأجنبية للغة العربية والتاريخ الوطني وتنمية الولاء الوطني، وللأسف اتضح أن بعض هذه المدارس يركز على لغة المدرسة وتاريخ تلك الدولة ورموزها وحضارتها بشكل يفوق اللغة والتاريخ والحضارة والواقع الوطني في مصر.

إن التعليم والتربية داخل المدارس بالشكل الذي سبق توضيحه يسهم بلا جدال في تحصين الطلاب والخريجين ضد هذه السلبيات، حيث يضبط بالضوابط التربوية والثقافية والدينية والوطنية التي سبق ذكرها .

□

الخطاب التربوي والخطابات الأخرى :

وإذا كانت المؤسسات التربوية والتعليمية قادرة بشكل مخطط ومدروس على أداء أهداف كل الخطابات الإعلامية والدينية والثقافية والفكرية بشكل جيد متوازن، فإن هذا لا يعني عدم أهمية المؤسسات الدينية والإعلامية والثقافية والشبابية؛ ذلك لأن هذه المؤسسات لها أدوار بالغة الأهمية في غرس الأمل والتفاؤل ورفع الروح المعنوية عند الناس، هذا إلى جانب تعليم صحيح الدين من خلال المؤسسات الدينية الإسلامية والمسيحية، وغرس القيم الدافعة للتقدم والعلم والتعايش السلمي والإنجاز، ومواجهة كل أشكال الفساد والتطرف والعنف والإرهاب والجرائم المختلفة، هذا إلى جانب الأهداف الإخبارية والترفيهية والقيمية والفكرية .... إلخ، وهنا يجب التأكيد على ضرورة توظيف كل الخطابات التربوية والدينية والإعلامية والثقافية والفنية .... إلخ لتحقيق نوع واحد من الشخصية الوطنية الإيجابية، وان يكون هناك اتساق في الرؤية والتوجه.

الفنون وبناء الشخصية الوسطية المعتدلة :

تحدثنا عن أهمية التكامل والتنسيق بين معطيات كل الخطابات مع الخطاب التعليمى التربوي المدرسي، وعن أهمية عدم التصادم بين أهدافها ومخرجاتها، وفي هذه الفقرة نركز على الفنون، فالإسلام اهتم بالعديد من الفنون، فهو دين جميل، يحب الجمال ويدعو إليه في كل مجال، ويكفي قوله

(عليه الصلاة والسلام) : "إن الله جميل يحب الجمال" [1]، والفن أمر أقره الإسلام ولا يعاديه، ولكن بشروط وضوابط، هذه الضوابط تتمثل في التزام الفنون بمكارم الأخلاق وقيم الإسلام، وقد لفتنا القرآن الكريم في أكثر من آية إلى جمال الكون وما فيه من إبداع وإتقان، وما يحققه ذلك من سرور وبهجة للناظرين، والإسلام يقبل الفنون الأدبية الراقية الهادفة كالشعر والنثر والقصص، وكذلك العمارة والزخارف والصوت الحسن بشرط التزامها بمنظومة الأخلاق، وبشرط أداء وظيفة الارتقاء بذوق وفكر الإنسان ووجدانه ومشاعره .... إلخ.

ومن المهم داخل المدارس استخدام الفنون مثل الشعر والآداب والتمثيل وغيرها من خلال الإذاعة المدرسية والمسرح المدرسي، وعرض أفلام وثائقية عن آثار مصر التي تمثل ثلث آثار العالم، وعن المشروعات العملاقة التي تقام في مصر، وعن انتصارات مصر على مدى التاريخ، وآخرها انتصار السادس من أكتوبر المجيد ١٩٧٣م الذي أنهى مأساة الهزيمة في ١٩٦٧م، وحرر الأرض والعرض، ولقن إسرائيل بأساطيرها المتعددة هزيمة نكراء اعترفت بها إسرائيل صراحة يوم ٩ من أكتوبر ١٩٧٣م، هذا الانتصار الذي أثبت أن الجيش المصري ومعه الشعب عصي

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم٩١.

على الانكسار، وأنه حقق معجزة عسكرية باجتياز الحاجز المائي الصعب، والساتر الترابي المنيع، وخط بارليف الحصين، محققًا بذلك معجزة عسكرية على أي مقياس عسكري، وهناك انتصار الشعب في ثورة الثلاثين من يونيو المجيدة ٢٠١٣م التي أنقذت مصر من براثن التطرف والإرهاب.

هذه الفنون وغيرها من الفنون الراقية هي التي يجب استخدامها في المدارس لدعم القيم العليا الراقية، ولا شك أن السينما والمسرح والدراما التليفزيونية وكرتون الأطفال داخل المدارس وخارجها يمكن أن تلعب دورًا مهمًّا في بناء الشخصية الوسطية المحبة للعلم وللوطن وللإنجاز، القادرة على المشاركة في معركة البناء والتنمية ومحاربة التطرف والإرهاب في مصر، ويكفي هنا أن نستشهد بالأغاني الوطنية الرائعة أيام حرب الاستنزاف وحرب ١٩٧٣م، وما كان لها من آثار إيجابية عميقة في تأجيج وشحن الروح الوطنية في نفوس الشعب والمحاربين، مما أدى إلى الانتصار على الاحتلال الإسرائيلي واسترداد الأرض المغتصبة والكرامة الوطنية.

* * *

□

خاتمة البحث

التعليم في دولنا الإسلامية وفي مصرنا الحبيبة يستهدف خلق الشخصية الوسطية، والوسطية منهج أصيل في الإسلام يعنى العدل والخير والاستقامة، والوسطية تعني الحق بين باطلين، أو تعني كما أشار الإغريق قديمًا فضيلة بين رذيلتين، أو وسط بين طرفين هما إفراط وتفريط وكلاهما رذيلة، والوسطية تعني القصد والاعتدال والحكمة، قال تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ (١) والقصد في الفقه يعني الاعتدال وعدم التطرف إسرافًا وتنفيرًا، وأيضًا العقلانية التي تجمع بحكمة بين العقل والنقل، بين علم الغيب والمشاهدة، والوسطية تحقق التوازن بين الثوابت والمتغيرات، أو بين أصول الإسلام الثابتة وبين متغيرات العصر – كل عصر – وهذا يعني أن الوسطية تعني التوازن الحكيم بين فقه الشرع وفقه الواقع، يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٢).

والشخصية الوسطية العادلة الحكيمة هي التي تأخذ بمتغيرات العصر (العلوم والفنون والتكنولوجيا والمعلومات الرقمية ...) بما لا يتناقض مع ثوابت الدين وهي قليلة، لكنها حاكمة وضابطة وموجهة، والوسطية تؤكد على حقوق وحريات وكرامة الإنسان دون تمييز، وعلى

---

(١) لقمان : ١٩ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

المواطنة المسئولة، وعلى الشورى، وعلى البناء دون الهدم، وعلى الجمع دون الفرقة، وعلى التقارب دون التباعد، وعلى تحقيق التوازن بين ثوابت الدين وعقلانية المتكلمين وروحانية المتصوفين وانضباط الفقهاء والأصوليين، الشخصية الوسطية هي التي تنطلق من ثوابت الدين لتعايش الحاضر وتستشرف المستقبل .

وقد حاولنا في هذه الدراسة ربط التعليم ببناء الشخصية الوسطية العادلة العاملة المهنية المنتجة، الشخصية الوطنية التي تؤمن بالمواطنة الشخصية القادرة على التسلح بثوابت الدين، وأحدث متغيرات العصر العلمية والتكنولوجية، والقادرة على البناء والتنمية ومواجهة الأخطار والمعوقات، وعلى مواجهة كل أشكال الاستقطاب من العناصر الإرهابية والكتائب الإلكترونية.

* * *

دور المعلم القدوة وأثره المباشر في بناء شخصية طلابه *

إن القدوة الحسنة هي من أهم المبادئ التي أرساها ديننا الحنيف، وقد كان رسول الله ﷺ وما زال قدوتنا الحسنة ونبراسنا المنير الذي نهتدي بهديه في كل خطوات حياتنا، يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١)، كما تدعونا عقيدتنا السمحة إلى الاقتداء بالصالحين والسير على دربهم إعمالاً لقول ربنا جل وعلا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢).

ولقد فطن المسلمون دائمًا لأهمية المعلم القدوة، فأوصوا مربي أبنائهم بالانتباه إلى ذلك؛ لأن المعلّم الذي يمثل سلوكه قدوة لطلابه يملك القدرة على الإسهام في بناء شخصية الطالب وتوجيهه، ويكون كالشعلة التي تضيء لطلابه دروب حياتهم في المستقبل، وتسهم في نشأته على التمسك بدينه وقيمه،

---

* كتب هذا البحث: الأستاذة الدكتورة / عزة محمد أبو الهدى - أستاذ علم الاجتماع - كلية الدراسات الإنسانية ـ جامعة الأزهر - مصر .

(١) الأحزاب : ٢١.

(٢) الأنعام : ٩٠.

والاعتزاز بهويته، مما يساعد على تنمية مهاراته، ويزيد قدرته على تحصيل العلم.

ويكمن سر نجاح المعلم في تأدية دوره في قدرته على التفاعل مع طلابه، وتواصله مع أفراد وجماعات المجتمع الذي يعيش فيه، وكذلك في ثقته بعلمه ومهاراته؛ حتى يتمكن من ترسيخ القيم الأخلاقية المرغوبة في نفوس الطلاب، و كسب ثقة مجتمعه التي تساعده في أداء هذا الدور الذي تتعدد مهامه ويعظم أثره في بناء شخصية الأجيال والنهوض بالمجتمع.

ولقد برزت أهمية دور القدوة الذي يمثله المعلم في بناء شخصية الطلاب الذين يكونون مستقبل وطننا؛ نتيجة لحالة التردي الأخلاقى التي باتت تشكل ظاهرة تهدد حاضر مجتمعاتنا العربية ومستقبلها، وكذلك حالة التخلف الحضاري التي أصبحت تثقل كاهل شعوبنا.

وبما أن التعليم يعد أساس النهضة، يظل المعلم العامل الرئيس في نهضة أى بلد ودفعه إلى الرقي، وتربية أجياله وإعدادهم والارتقاء بهم روحيًّا وعقائديًّا ووجدانيًّا وخلقيًّا بصورة مستمرة في ضوء أهداف المجتمع وطموحاته؛ لذلك يركز هذا البحث على دور المعلم القدوة في بناء شخصية طلابه من خلال التركيز على نظريات علم الاجتماع ورؤاه التي أولت التغيرات التي طرأت على الممارسات التربوية والتعليمية في عصرنا الحالي اهتمامًا كبيرًا.

المعلم ودوره في العملية التعليمية:

يؤكد أبو حامد الغزالي على: أن للمعلم دورًا كبيرًا في العملية التعليمية، فيعتبر حجر الزاوية في هذه العملية، ولا يمكن أن تحقق العملية التعليمية النجاح إلا بجهود المعلمين الأتقياء المخلصين، فالمعلم هو المثل والقدوة لتلاميذه، يؤثر في أنماط سلوكهم وتفكيرهم وبالتالي يؤثر في تكوين شخصيتهم، فهو صاحب رسالة يجب أن يؤديها بكل أمانة وإخلاص(١).

وقد كان لعلماء التربية المسلمين الأوائل نظرة خاصة للمعلم، وحددوا له سماتٍ وخصائص نستطيع التعرف عليها من خلال النصوص التي وردت في كتبهم، وكذلك في كتابات علماء التربية الحديثة من عرب وأجانب، وقد كان رسول الله ﷺ هو المعلم الأول الذي رباه رب العالمين على أعلى مراتب التربية، وخلقه الحق سبحانه وتعالى بأعظم الأخلاق وأجل الصفات، حيث قال في كتابه الذي لا يأتيه الباطل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

ويرى ابن خلدون أن المعلم ينبغي أن يكون ملمًّا بمجموعة من الصفات والمميزات والمهارات التي تمكنه من إتقان عملية التعليم، باعتبارها من الصنائع المتميزة في المجتمع وفي حياة الإنسان، ومن أبرز هذه الصفات: الإلمام بفن التدريس من حيث الجمع بين الطريقة والمادة؛ وذلك أن الحذق في العلم

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالى، دار المعرفة، بيروت، ١/ ٥٥.

(٢) القلم: ٤.

والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله، وقلما تحصل هذه الملكة إذا لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً.

كما أن: من أهم ما يلزم المعلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة، والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التعليم.

ويرى ابن خلدون أن استخدام المعلم للشدة والقسوة والعقاب مع المتعلمين يولد لديهم الإحباط والضيق والضجر، ويسبب لهم الكسل، ويحملهم على الكذب؛ وذلك لأن: من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق عن النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث ... ولا تمر بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقوَّمه ما استطعت بالقرب والملاينة "[1].

وإذا كان قد جرى تعريف المعلم الجيد بأنه المعلم الذي يساعد الطلاب والطالبات على التعلم، إلا أن دور المعلم يتعدى المنح المجرد للمعلومات إلى مجموعة من الأدوار المحورية التي يلعبها في العملية

---

(١) ديوان المبتدأ والخبر(المقدمة) ، ابن خلدون ، تحقيق/ خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ط الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٩٨م، ١/ ٧٤٣، ٧٤٤.

التربوية؛ ويعتمد إدراكنا لجودة أداء المعلم على الكيفية التي ننظر بها إلى العملية التعليمية [١]، حيث يوجد مفهومان لهذه العملية ؛ أولهما : يُبنى على استراتيجيات التعلم التي تتبنى دور المعلم، وثانيهما: تلك الاستراتيجيات التي تتبنى دور الطالب[٢].

وتركز استراتيجيات التعلم التي تتبنى دور المعلم على المعلم باعتباره ناقلاً للمعلومات التي تنتقل من المعلم الخبير إلى المتعلم المبتدئ كما تحدد ستة أدوار للمعلم، هي:

١- المعلم باعتباره مقدمًا للمعلومات.

٢- المعلم باعتباره قدوة لطلابه (Role Model).

٣- المعلم باعتباره منظمًا للعملية التعليمية.

٤- المعلم باعتباره مقومًا لأداء طلابه.

٥- المعلم باعتباره مخططًا للعملية التعليمية.

٦- المعلم باعتباره مطورًا لمصادر التعلم.

في حين أن الإستراتيجيات التي تتبنى دور الطالب تركز على تطور التعلم لدى الطلاب، وكذلك ما يفعله هؤلاء الطلاب لتحقيق هذا التطور،

---

(1) BIGGS، J. (1999) What the student does: teaching for enhanced learning، Higher Education Research & Development، 18، p1.

(2) HARDEN ، R.M.، SOWDEN، S. & DUNN، W.R. (1984) Some education strategies in curriculum development: the SPICES model، ASME Medical Education Booklet No. 18، Medical Education، 18، pp. 284–297.

على اعتبار أن دور الطالب أكثر أهمية من دور المعلم في تحديد مدى قدرة الطلاب على التعلم والاستيعاب [١].

الممارسات التعليمية بين الماضي والحاضر :

ناقش "سايمونز" و"فان دير لينـدن" و"دوفي" [٢] الرؤى الجديدة للتعلم التي ظهرت على مدار العقد الأخير من القرن الماضي، وقاموا بتلخيصها تحت مصطلح التعلم الجديد (New Learning)، ويشمل هذا التعلم الجديد ثلاثة عناصر هي:

١ - نتائج التعلم الجديدة.

٢ - أنواع جديدة من عمليات التعلم.

٣- طرق تعليمية جديدة مطلوبة من قبل المجتمع، ويتم التأكيد عليها حاليًا في النظرية النفسية والتربوية.

وقد ذكر أندرسون[٣] الأبعاد التي تختلف فيها الرؤى الجديدة للتعلم عن غيرها من الأساليب التقليدية في التعليم، ولخصها فيما يلي:

أ- تطوير الخبرة الماهرة المرنة لدى المتعلمين و التي لا تتقيد بالأطر التعليمية السائدة ، بدلًا من التركيز على استدعاء الحقائق وتطبيق المهارات

---

(1) HARDEN، R.M.، CROSBY، J (2000) The good teacher is more than a lecturer- the twelve roles of the teacher، Medical Teacher، Vol. 22، No. 4، 2000.

(2) Simons، R. J.، Van der Linden، J.، Duffy، T. (Eds.) (2000). New learning. Dordrecht، The Netherlands: Kluwer Academic Publishers.

(3) Anderson ، C. W. (1989). Implementing instructional programs to promote self-regulated learning. In J. Brophy (Ed.)، Advances in research on teaching: Teaching for mean- ingful understanding and self-regulated learning، Vol. 1 (pp. 311–343). Greenwich، CT: JAI meaningful، Press

من خلال التقيد بالسياق السائد.

ب- التأكيد على دور المعلم باعتباره وسيطًا (Mediator) في عملية التعلم، بدلاً من التركيز على قيامه بنقل المعلومات إلى الطلاب.

ج- التأكيد على دور الطلاب بوصفهم مكونين نشطين للشبكات المعرفية عوضًا عن كونهم مجرد مستقبلين للمعلومات.

د- التركيز على تحديد المشكلات وتمييزها ومحاولة إيجاد حلول مختلفة لها، بدلاً من التركيز على تطبيق الإجراءات من خلال القواعد الثابتة والإجابات عن الأسئلة التي تحتمل إجابة صحيحة واحدة.

هـ- التركيز على أهمية تهيئة البيئات الاجتماعية التي يتم فيها قبول الفشل باعتباره جزءًا من عملية التعلم، وإعلاء قيمة التعلم الذاتي، واعتبار الطالب الطلاب الآخرين أنهم موارد للتعلم، في مقابل البيئات الاجتماعية التي تمثل الفشل بدلالات سلبية، وتركز على التعلم الذي يوجهه المعلم، ويرى فيها الطالب الطلاب الآخرين أنهم عوائق للتعلم الفردي.

ويؤكد لونينبرج (Lunenberg) أن ترجمة هذه الأبعاد الخاصة التي تُستخدم في الممارسات التعليمية يمنحنا القدرة على تحسين جودة التعليم إذا واكبها التغيير المنشود في تعليم المعلمين، وأن الانتقال بنجاح بهذه الرؤى الجديدة إلى داخل الفصول الدراسية سوف يتطلب العديد من التغييرات التي يجب أن تطرأ على معارف المعلمين، ومعتقداتهم، وطرق ممارستهم.

لقد بين البحث السوسيولوجي مدى أهمية المكـون التعليمـي الـذي يترسخ لدى الطلاب نتيجة لسلوك المعلم بوصفه مثالاً يُحتذى به [١].

ويؤكد كثير من علماء الاجتماع أن الرؤى الجديـدة التـي سـادت منـذ العقد الأخير من القرن الماضي يجب أن تؤدي إلى تغـيرات مهمـة في العمليـة التعليمية، مما يعني إيجاد مداخل جديدة في تعليم المعلمين وتـأهيلهم تـؤدي إلى مـنح القـدرة للمعلمـين عـلى ترجمـة الـرؤى والنظريـات الجديـدة إلى ممارسات تعليمية حقيقية داخل المدارس والجامعات[٢].

ويمتلك المعلمون الفرصة التي تجعلهـم قـادرين عـلى التـأثير بشـكل كبير في حياة طلابهم، من خلال مساعدتهم على أن يتعلموا: كيف يفكـرون وكيف يتصرفون وكيف يتعاملون مـع الآخـرين خـلال المراحـل المختلفـة لتطور بناء شخصياتهم ؟ حيث يستمر الطالب في اسـتيعاب مبـادئ معلمـه بينما يستمر في النضج [٣].

ويؤكد لورانس كولبرج أن المتعلمين يستوعبون ضمنيًّا القيم اسـتنادًا إلى كيفيـة قيـام المعلمـين بتحديـد الموضـوعات التـي تُطـرح للمناقشـات واستبعادها، وكيف يشجعون الطلاب على البحث عن الحقيقـة مـن خـلال

---

(1) Walton H (1985). Overview of themes in medical education ، in Education for the Professions، ππ49- 51، Ed S. Goodlad. The Society for Research into Higher Education& NFER-Nelso.

(2) Lunenberg، M.، Korthagen، F.، & Swennen، A. (2007). The teacher educator as a role model. Teaching and teacher education، 23(5)، 586–601 .

(3) Al Taher، R (2015)The Roles Teachers Playin a Learner'Moral، Emotional، and Social Development. https://www.academia.edu/The_Roles_Teachers.

تحليل الشخصيات أو سرد القصص، وكيفية تنظيم الممارسات داخل الفصل الدراسي، حيث يشكل المعلمون حياة اجتماعية داخل الفصول الدراسية، مما يؤثر في إدراك المتعلم لمجتمعه وكيف يفسر السلوك ويستقبل القيم [١].

إن بناء الشخصية واكتساب القيم الأخلاقية يبدأ بوجود علاقة تتميز بالرعاية والاهتمام، حيث تنشأ هذه العلاقة أولاً في البيت، ثم تنتقل إلى المدرسة التي يضع فيها المعلم أسس علاقته بطلابه.

إن الطالب الذي تحيطه الرعاية ويكون دائمًا موضع اهتمام تتشكل شخصيته على رعاية الآخرين والاهتمام بهم، وتترسخ لديه القيم الأخلاقية المرغوبة، ومن هنا تبرز أهمية العلاقات المبكرة بين المعلم والطالب والتي يمكن أن يكون لها تأثير قوي في النتائج الأكاديمية والاجتماعية للعملية التعليمية[٢].

يؤكد ليف فيجوتسكي (lev Vygotsky). في نظرية التطور الاجتماعي (Social Development Theory) أن التفاعل الاجتماعي بين المعلم والمتعلم يلعب دورًا أساسيًّا خلال تطور المعرفة، ويجادل فيجوتسكي بأننا نتعلم من ثقافتنا وأن التطور المعرفي يختلف عبر الثقافات وينبع من

---

(1) Kohlberg، L. (1974). Education، moral development، and faith. Journal of Moral Education، i' 5–16.

(2) ALTERNATIVES FOR TEACHER EDUCATION. The Teacher Educator Narvaez، D.، &Lapsley، D. K. (2008). TEACHING MORAL CHARACTER: TWO doi:10.1080/08878730701838983

التفاعلات الاجتماعية التي توجه هذا التطور، كما يعتقد فيجوتسكي أن الأقران مصادر مهمة للتطورات الاجتماعية؛ حيث يعزز التفاعل بين النظراء تبني المنظور الاجتماعي [١].

سوسيولوجيا التعليم والتعلم :

يمكن تلخيص عناصر العملية التعليمية بكل أبعادها في ثلاثية أساسها: المعلم، والمتعلم، والمؤسسة التعليمية وما تشمله من أبعاد ومكونات كالمناهج، والكتاب المدرسي، والبرنامج الدراسي الخاص بالمادة، ومختلف الوسائل التي تستخدم لدعم عملية التعليم.

والمتعلم بكل خصائصه ومميزاته هو ذلك العنصر الذي يسعى أو يأمل في الحصول على المعرفة وبالتالي النجاح، أما المعلم فهو حجر الزاوية في نجاح العملية التربوية، ومدى تحقيقها للأهداف والغايات المرجوة منها مستقبلاً، ضمن ما يسمى بالمؤسسة التعليمية التي يقصد بها الوسط الذي تتم فيه التفاعلات المتضمنة للعملية التربوية، والتي تقوم بها العناصر الأساسية المشكلة لها من أجل تحقيق الأهداف التربوية [٢].

---

(1) Vygotsky، L. (1978). Social development theory. Instructional Design

(٢) مهنة التعليم، أخلاقياتها وأدوار المعلم القدوة، نادية دشاش، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، العدد٨، مجلد ٤، سنة ٢٠١٤، ص ٢١٨ - ٢٣٧.

وعلم اجتماع التربية هو مجال بحث متطور، وقد ركز هذا العلم منذ نشأته على طبيعة التحصيل في المدارس، وكذلك على الطرق التي أثرت بها خلفية الطبقة الاجتماعية على التجربة التعليمية وفرص الطلاب في مستقبل حياتهم(١)، وبالنسبة لعلماء علم الاجتماع فإن «الطبقة» تعني في الغالب الطبقة الاجتماعية، وليس الطبقة في الفصل الدراسي، وهذا يشير إلى الخاصية المميزة لعلم اجتماع التربية حيث إن مستوى تحليله يركز على المستوى المجتمعي الكلى، وبذلك يكون علم اجتماع التربية هو علم اجتماع النظم التعليمية والتفاعل بين الاقتصاد والثقافة والمجتمع.

وقد كان تركيز هذا العلم في بدايته على الجانب المادى، أي على السكن غير الملائم والظروف المادية، وسوء التغذية، ونقص الموارد، وعدم القدرة على إعطاء الأولوية للتعليم، وكذلك مواقف الآباء تجاه التعليم والتوجهات المختلفة للطبقات الاجتماعية، وعلى ذلك فإن «علم اجتماع التربية» هو في الواقع رمز لمنظور شامل حول القضايا التعليمية، كما يقول ويتنى(٢).

ويؤكد "ترولر" أن الثغرة الموجودة في علم اجتماع التربية هي غياب نظرية اجتماعية للتعلم مضاءة بعلم الاجتماع، بالإضافة إلى نظرية الإدراك

---

(1) Trowler، P.R (2005) A Sociology of Teaching، Learning and Enhancement: improving practices higher education ،Lancaster University. .in ، United Kingdom ،Papers 76، 2005 13–32.

(2) Whitty،G. (2002). Making Sense of Education Policy. London PCP

التي ينيرها علم النفس، ويرى أن هذا العلم ما زال يغفل نقطة التفاعل الاجتماعي بين المجموعات الصغيرة، مثل: مجموعة الفصل الدراسي، أو قسم الجامعة، أو فريق التخطيط القائم بالمهام ضمن المستوى الأعلى للنظام التعليمي، وأن ما نحتاج إليه هو فهم عملية التعليم والتعلم ضمن سياقها الاجتماعي(١).

وقد عبر "كوفيلد" عن هذا المعنى بقوله: إن النظرية الاجتماعية يجب أن تُبنى على أن التعلم ينبع من المشاركة الاجتماعية والحوار، وكذلك من رؤوس الأفراد، كما يجب أن تنقل التوجه من التركيز على العمليات المعرفية الفردية إلى الترتيبات والعلاقات الاجتماعية التي تشكل هويات المتعلمين الإيجابية والسلبية، التي قد تختلف من وقت إلى وقت آخر، ومن مكان إلى مكان آخر(٢).

كما يؤكد "ترولر" أن هذه النظرية يمكن أن تساعدنا على الآتي:

- تصور المواقف الحالية بطرق أوضح، بحيث يمكن تقديم تخطيط أفضل لتعميم هذه المواقف.
- تحديد الأخطاء المحتملة والمزالق في التخطيط إلى التغيير وتنفيذه، وإيجاد طرق أفضل للمتابعة.

---

(1) 13–32. Trowler، P.R (2005) A Sociology of Teaching .

(2) Coffield ، F. (1999). «Breaking the consensus: Lifelong learning as social control.، British Educational Research Journal، 25 (4) : 479 - 499.

- التمييز بين الطرق العقيمة والطرق الفعالة في تصور القضايا، وإمكانيات الاستجابات المختلفة.

- التعرف بدقة بما لا يعمل أو بما لن يعمل، ولماذا، وبذلك يمكن أن نحسن من تشخيص العلات وتحديد المشكلات.

- تقديم أفضل تقويم للنتائج المحتملة للإجراءات التي يمكن تنفيذها، مما يساعد على الوصول إلى علاج أفضل للعلات وحلول أكثر فاعلية للمشكلات[1].

لذلك ينبغي أن تتناول النظرية الاجتماعية للتعلم العناصر الآتية:

١ - الديناميكيات الاجتماعية (The social dynamics) للفصل الدراسي؛ من حيث لماذا وكيف أن الفصول الدراسية تُكون شخصية متميزة خاصة بها، ولها نتائج مهمة على عملية التعليم والتعلم؟.

٢ - الديناميكيات الاجتماعية للتعلم غير القائم على الفصل؛ مثل: التعلم الإلكتروني، ومجموعات التعلم العملي، والتعلم المبني على المجتمع (community-based learning).

٣- الديناميكيات الاجتماعية لمجموعة الموظفين؛ من حيث التعرف بالعمليات التي تتم بين فرق الموظفين وماهيتها، والتي تؤدي إلى ممارسات متكررة ومجموعات منتظمة من المواقف والمعاني المتعلقة بعملية التعليم

---

(1) Trowler، P.R (2005) A Sociology of Teaching 13-32.

والتعلم.

٤- التفاعل بين السياق الاجتماعي والبيئة التعليمية؛ ببيان ما الذي يدفع إلى تبني بعض التقنيات أو تكييفها أو تجاهلها بدرجات مختلفة في مختلف البيئات الاجتماعية؟.

٥- أهمية المصطلحات؛ وكيف تُظهر هذه المصطلحات " إشارات " مختلفة (على سبيل المثال "التحصيل"، "الامتحان") للحصول على دلالات مختلفة واستجابات مختلفة في مختلف البيئات الاجتماعية؟.

٦- أهمية السياسة التعليمية؛ وكيف تؤثر في التعليم والتعلم، وكيف تؤثر في المناهج الدراسية والتقويم؟.

٧- أهمية السياق التنظيمي؛ وكيف يؤثر السلوك المؤسسي- في أبعاده الثقافية والموارد المتاحة لعلمية التعلم؟.

٨- أهمية السياق الاجتماعي؛ وكيف تؤثر الترتيبات والعلاقات الاجتماعية في التعليم والتعلم؟.

إن الثقافة القائمة تتسم بمقاومتها للتغيير وميلها إلى الإبقاء على الوضع الراهن، كما أن القصور الذاتي (Inertia) أمر قوى بشكل لا يصدق في البيئة التعليمية، لذلك تصبح الحساسية الثقافية (cultural sensitivity) أمرًا مهمًّا للغاية في وضع إستراتيجيات التغيير، وهذا يجعل إيجاد الابتكار وتنفيذه، في عملية التعليم والتعلم أمرًا صعبًا للغاية ؛ لأن مقترحات التغيير

تمس الممارسات المتكرّرة القائمة على علاقات القوة والهوية، كما أنه من المحتمل أن تكون الأنواع المختلفة من البيئات الاجتماعية التي تُطبق عليها هذه التغييرات منفتحة بحيث تتقبل تنفيذ هذه التغييرات، أو معادية بحيث ترفضها، وذلك بدرجات متفاوتة؛ مما يجعل محاولة أخذ ذلك في الاعتبار أثناء عملية التخطيط أمرًا صعبًا ومرهقًا، حيث يغيب عن كثير ممن يشاركون في التخطيط للتغيير تفاصيل القيود والقضايا السائدة في البيئة الاجتماعية، لذلك يجب على من يتولى مهمة التخطيط أن يفكر بشكل منفصل وإبداعي، أن يعزل تفكيره عن التحيز الاجتماعي والثقافي السائد حتى يتمكن من تمييز الإجراءات التي يمكن تنفيذها والتي تساعد على إحداث التغيير المرغوب.

ويؤكد "ترولر" أن الابتكارات دائمًا ما تظهر محملة بعدة معانٍ محتملة كما أنها من الممكن أن تبرز استجابة للتغيرات والتأثيرات العالمية؛ لذلك قد يتم الترحيب بها بحرارة أو النظر إليها بشبهة أو باعتبارها تهديدًا اعتمادًا على السياقات الثقافية والاجتماعية السائدة ، لذلك يصبح التنبؤ بالتجاوب مع هذه الابتكارات أمرًا بالغ الصعوبة، ولكن يجدر بذل الجهد لمحاولة استشراف نتائج تطبيق تلك الابتكارات [1].

---

(1) Trowler، P.R (2005) A Sociology of Teaching 13-32.

لقد اتجه علماء الاجتماع التربوي وعلماء النفس التربوي اتجاهات مختلفة في دراسة التعليم والتعلم، حيث درس علماء الاجتماع المدرسة باعتبارها منظمة (organization)، وركزت الدراسات النظرية والتجريبية على الفصول الدراسية باعتبارها نظامًا اجتماعيًا (social system) يعتمد على نوعية التفاعل بين المدرسين والطلاب، وكيف يؤثر المدرسون في الطلاب من خلال ما يقولونه، وكيف يسألون، وكيف يشرحون، ومن خلال استخدام مواد المناهج الدراسية حيث يؤثر المعلم في الطلاب، ويؤثر الطلاب في المعلم الذي يؤثر بدوره في تعلم الطالب، كما أن الطلاب لديهم تأثيرات في بعضهم البعض.

ويحاول علماء الاجتماع التركيز على معرفة لماذا يؤثر التفاعل بين المعلمين والطلاب على الإنجاز الدراسي وكيفيته، ولقد أكد السوسيولوجيون على أنه لا يوجد خلاف على وجود تباين كبير بين المعلمين في الأنشطة التعليمية لعدم وجود هيئة متخصصة في علم أصول التدريس تقوم بتدريب جميع المعلمين من خلال معايير قياسية، وأن المعلمين الجدد يصبحون معزولين تمامًا عن التفاعل المهني مع بعضهم البعض بمجرد أن يبدأوا في ممارسة عملهم، وبالتالي فإنه من غير المرجح أن يتعلموا طرق التدريس من خلال التفاعل الاجتماعي أثناء العمل، لذلك فإن خصائص شخصية المعلم تصبح أكثر أهمية من أي معرفة أو مجموعة من

المهارات التي يمتلكها المعلم في تحديد النجاح في التعليم.

وقد اهتم علماء السلوك بخصائص الأفراد باعتبارها محددات للنجاح أو الفشل في الأداء داخل الصف الدراسي، مثل: الذكاء أو الخلفية الطبقية والاجتماعية، بينما يرى بعض العلماء أن الخصائص الاجتماعية في العديد من الفصول الدراسية، مثل: الاختلاف في الجنس والطبقة الاجتماعية والعرق والمجموعة العرقية قد تؤثر في تعلم الأفراد من خلال بعض وسائل التنشئة الاجتماعية المبكرة، ولكن المحدد الأهم هو كيفية تأثيرها في التفاعل الاجتماعى داخل الفصل الدراسي، وبالتالى على التحصيل الدراسي باعتباره نتيجة لهذا التفاعل.

وقد أكد علماء الاجتماع باستمرار على أهمية ممارسة المعلم للسلطة، كما أكدوا على الطبيعة الإشكالية للتحكم في الفصل الدراسي، حيث أفاد كثير من السوسيولوجيين أن هناك بعض الفصول الدراسية يكون فيها تقويم سلوك الطلاب أكثر أهمية بكثير من التركيز على التحصيل الدراسي[1].

(1) McCauley، B (1972). Evaluation and authority in alternative schools and public schools. Technical Report No. 23. Stanford: Stanford Center for Research and Development in Teaching.

المعلم القدوة وبناء شخصية طلابه:

تعتبر تنمية شخصية الفرد وإكسابه اتجاهات إيجابية نحو المجتمع وثقافته، وتحقيق تكيفه الشخصي والاجتماعي، وتزويده بالخبرات والمهارات التعليمية التي تمكنه من أداء دوره الوظيفي الذي يتوقعه مجتمعه أهم أهداف العملية التعليمية.

ومما لا شك فيه أن قدرة المعلم على الوفاء بمسئولياته تجاه المجتمع والطلاب ترتبط بمدى استيعابه لأهداف العملية التعليمية وتوجهات المجتمع والتغيرات العولمية، كما أن أداءه لدوره التربوي والتعليمي يرتبط أيضًا بمدى إتقانه للمهارات والمعارف المرتبطة بتخصصه، وقدرته على الانتقاء والاختيار من خبراته بما يؤثر به على خبرات ومهارات الآخرين، واستجابته واستيعابه للمستحدثات التربوية ووسائل التعليم والظروف المتغيرة بالنسبة للمجتمع ومتطلباته وتوقعاته المتجددة من دوره باعتباره معلمًا[1].

وينظر علماء" التنمية البشرية " للمعلم على أنه يشكل المصدر الأول للبناء الحضاري الاقتصادي والاجتماعي للأمم، وذلك من خلال إسهاماته الحقيقية في بناء البشر وتكوينهم، والحجم الهائل الذي يُضَاف إلى مخزون المعرفة، الذي عبرت عنه نظرية " رأس المال البشري بأنه كلما نجح المعلم في زيادة المستويات التعليمية لأبناء الأمم، ارتفعت معها مستويات المعرفة،

---

(١) مهنة التعليم، أخلاقياتها وأدوار المعلم القدوة ، نادية دشاش، ٢١٨ – ٢٣٧.

ومن ثم ترتفع مستويات الإنتاج القومي العام، والذي بدوره ينعكس على زيادة مستويات دخل أبناء الأمم وتحقيق الرفاهية الاجتماعية" [1].

إن الأخلاق تنبع من الدين ومن القيم الإنسانية العالمية، وتلعب التأثيرات الاجتماعية دورًا مهمًا في تشكيل وجهة النظر الأخلاقية، فما يمكن أن يشكل تعليمًا أخلاقيًا ليس أمرًا واضحًا دائمًا، وهي حقيقة تكمن في تصميم المناهج، حيث لا توجد هذه المشكلة في مجالات مثل الرياضيات أو الفيزياء، ولكن القضية تصبح أكثر صعوبة في مناهج الأدب والتاريخ وعلم الاجتماع؛ حيث تحتوى هذه المناهج على محتوى أخلاقي يؤثر على المتعلم بطرق مختلفة.

إن التطور الأخلاقي للطلاب هو أمر ضمني ولا مفر منه في الممارسة التعليمية، لذلك يجب على المعلمين التأكيد لطلابهم على أهمية اختيار الصحبة المناسبة، كما يجب عليهم أن يسلكوا سلوكًا يمثل مثالاً طيبًا للمتعلمين، حيث إن الأخلاق يتم تعزيزها بالمثال الجيد كما أن الشر يرعاه المثال السِّيئ.

وتشجع الرعاية المدرسية- التي يقع العبء الأكبر منها على كاهل المعلمين- على الترابط الاجتماعي والعاطفي وتعزيز التجارب الإيجابية بين

---

(١) القيمة الاقتصادية للتعليم في الوطن العربى" دراسات وبحوث "، متولى محمد غنيمة، الدار= =المصرية اللبنانية، القاهرة سنة١٩٩٦م.

الأشخاص، مما يوفر الحد الأدنى اللازم لتشكيل الشخصية وبنائها ، ويعتبر تعزيز تنمية المهارات الاجتماعية والعاطفية للمتعلمين من أفضل الممارسات التي يمكن للمعلمين استخدامها باعتبارها وسيلة لتعليم الأخلاق لطلابهم، كما أنها تمهد الطريق لتعلم أكاديمي أفضل، و تشير كثير من الأبحاث إلى أن النضوج العاطفي له تأثير أكبر في حياة الطلاب ونتائجهم المدرسية أكثر من التحصيل الأكاديمي.

كما يجب على المعلمين ابتكار الطرق وتوفير الظروف والمناسبات والفرص التي يمكن من خلالها أن يمارس الطلاب هذه المهارات الشخصية الأخلاقية حتى يمكن تطويرها، ومن هنا تنبع أهمية مساعدة المعلمين وتدريبهم على تعلم كيفية إنشاء مناخ داعم داخل الفصل الدراسي، وهو أمر مهم لتحقيق الشخصية الأخلاقية وتطويرها.

لقد جعل الانفجار المعرفي وتعدد وسائل الاتصال ودخولها كل بيت مهمة المربين أمرًا بالغ الصعوبة، حيث " يتميز العصر الحالى بثورة عظيمة في مجال العلوم والتقنية، وقد ساعد هذا في تدفق المعلومات وسرعة انتقالها من مكان إلى آخر بشكل لم يسبق له مثيل، حتى أضحت الثقافة الغربية تغزو كل بيت في المجتمع الإسلامي، ونتيجة لذلك ظهرت طائفة من أبناء المسلمين لا يفكرون إلا بعقول غربية، ولا يبصرون إلا بأعين غربية[1]. إن

---

(١) مجلة جامعة الملك سعود ، محمد بن سليمان المشيقح، المجلد ٢، العلوم التربوية ١، الرياض، ١٩٩٠م.

انـدفاع الشـباب المتزايـد باتجـاه تغريـب ذواتهـم، والـذي يـأسر فكـرهم وسلوكهم؛ يؤدي بالضرورة إلى انقطاع صلتهم بهويتهم التي تحدد أسـلوب حياتهم حتى على مستوى المظهر الشخصي، و"يسهل على كل متابع منصف أن يرصد الكثير من المؤشرات السلوكية الدالة على ذلك عـلى مسـتوى لغـة الحياة اليومية وطريقة التفكير بل طريقة ونوع الملابس"، فضلاً عـن الانـدفاع باتجاه القيم المادية والاستهلاكية، والابتعاد عن القيم الروحيـة والإنسـانية التـي تمثل ماهية الإنسان وحقيقة وجوده[1].

ويؤكد تراثنا الإسلامي أن اهتمام الإسلام بالعلم والتعليم هو الـذي أنتج للمسلمين حضارة عظيمة متميزة، نعمت بها البشـرية لقـرون طويلـة، وحققت لأصحابها ولغيرهم من الشعوب التقدم العلمـي والرقـي، لـذلك فإن حاضر هذه الأمة لن يشهد الصلاح إلا بما صـلح بـه أولهـا عـن طريـق استقراء أسباب نهضة الحضارة الإسلامية وشروط ميلادها، "حينها تظهـر أهمية الاقتداء بقيم الكتاب والسنة وتطبيقات السيرة النبوية في بعـث الأمـة المسلمة من جديد ".

ومن هنا تعد القدوة الحسنة من أرقى أساليب التربية التي تؤثر بشكل فاعل في تكوين اتجاهات الشخصية الفكرية وتحديد أنماط سلوكها في كل

---

(١) التمكين الأخلاقى للمعلم ، محمد سعيد أبو حـلاوة، الكتـاب العربـى لعلـوم وطـب الـنفس، العدد٤٧، سنة ٢٠١٦م.

مرحلة من مراحل تطورها، لهذا فقد نبهت التربية الإسلامية إلى أهمية التوافق بين المبادئ النظرية التي يعتقدها المؤمن ويقول بها، وبين سلوكه العملي"[1]؛ إعمالاً لقول العلي العظيم في كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[2].

وقد كان رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) القدوة والمثل الأعلى لنا في تربيته الربانية، ونقل هذه التربية الحسنة إلى صحابته الكرام، فَخَرَّجَ جيلاً متميزًا حمل راية الإسلام جيلاً بعد جيل بفضل التربية الصحيحة القائمة على الأخلاق الحميدة، فهو الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق ويبني الجيل وينشر العلم بين الناس، من هنا كان لابد من التربية الإسلامية التي تعد وسيلة فاعلة لبناء الإنسان المسلم القادر على عمارة الأرض بكفاءة، والقيام بواجباته، وهي التي تشكل العامل الأقوى في إحداث التغيرات الجذرية المنشودة في واقع الأمة المسلمة على جميع المستويات، فهي تعني بإعداد الجيل المسلم إعدادًا متكاملاً من جميع النواحي في جميع مراحل نموه

---

(١) الفضائل الخلقية الإسلامية ودرجة اعتقاد طالبات إحدى الجامعات الأردنية بها وممارستهن أو استعدادهن لممارستها، وائل عبد الرحمن التل، مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، العدد ٤، سنة ٢٠٠٢م، ص ٦٣ - ١٠٦.

(٢) الصف: ١-٣.

في ضوء مبادئ وقيم وطرق التربية الإسلامية [١].

ويعدد "نبيل زايد" الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المعلم من "حسن الخلق، والطباع الحسنة، والالتزام بقواعد السلوك الأخلاقى، والإحساس بالقيم والاعتراف بالخطأ، والاستقامة، والبعد عن المحرمات، وإتقان القول والعمل، وأن يتصف بالعدل والإنصاف وعدم التحيز في معاملته لمن يحبه ومن يكرهه؛ حيث إن بناء الأخلاق والقيم هو أساس العملية التعليمية والتربوية، ولا يتأتى هذا الأمر إلا من خلال التنمية المهنية الأخلاقية التي تهدف إلى تنمية الكفاءة الأخلاقية والتمكين الأخلاقى للمعلم [٢].

ويتفق التربويون على أن المعلم هو الطاقة المحركة لكل فعاليات التعليم والتعلم، مما يوجب التركيز على التنمية المهنية الأخلاقية مع ما تقترن به من توجه نحو التمكين الأخلاقى للمعلم (Moral Enablement & EthicalEmpowermen) على اعتبار أن أى نظام تعليمي يهمل الجوانب الأخلاقية والروحية فإن كل منجزاته تصبح عديمة القيمة مهما بلغت؛ وأن نظم التعليم والتعلم التي تهمل الجوانب الأخلاقية والروحية إنما تحكم على نفسها بالفشل، وعلى منتجها باللا جدوى مهما كانت جودة مدخلاتها، ونقطة البداية الحقيقية هي الاهتمام بالجوانب الأخلاقية والروحية من خلال

---

(١) مقدمة في التربية الإسلامية، محمود أبو دف، مكتبة آفاق، عزة، سنة ٢٠٠٤م.

(٢) مقياس الذكاء الوجدانى المعدل لطلبة الثانوى، نبيل محمد زايد، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ٢٠٠٩م.

التنمية المهنية الأخلاقية للمعلم [١].

ويؤكد "نارفيز" على أن المعلم يمثل النموذج والأسوة الخلقية أمام المتعلمين، وأن أي خلل وظيفي في سلوكه الأخلاقي ينعكس بصورة مباشرة على السلوك الأخلاقي للمتعلمين، كما تمكن من رصد بعض مظاهر القصور في السلوك الأخلاقى للمعلمين خلال البحث، مثل: التناقض بين القول والفعل، وعدم الالتزام بالمعايير الأخلاقية للمجتمع، والغلظة والجفاء والبرود الانفعالى العام، وأرجع هذا القصور إلى نقص الكفاءة الأخلاقية للمعلمين[٢].

وفي دراسة قام بها كل من " تاى يول كيم " و" مينسو كيم" عام ٢٠١١م، أكد الباحثان على أن الكفاءة الأخلاقية ومستوى اللياقة والتعامل الأخلاقى يرتبطان ارتباطًا إيجابيا ذا دلالة بالإثمار الوظيفي والأداء الفعال لمهام العمل وتزيد في الوقت نفسه من مستويات الالتزام والمواطنة لدى من يشرفون عليهم[٣]، وتفيد هذه الدراسة أن الكفاءة الأخلاقية للمعلم تمكنه من القيام بدوره القيادي في توجيه المتعلمين نحو الاقتداء الأخلاقى الذي

---

(١) التمكين الأخلاقى للمعلم، محمد سعيد أبوحلاوة، الكتاب العربى لعلوم طب النفس، العدد٤٧، سنة ٢٠١٦م.

(2) Narvaez، D. (2007). How cognitive and neurobiological sciences inform values education for creatures like us. In D. Aspin & J. Chapman (Eds.)، Values Education and Lifelong Learning: Philosophy، Policy، Practices (pp. 127-159). Springer Press International.

(3) Tae-Yeol Kim and Minsoo Kim، 2013

يمكنهم من التوجه نحو الاختيارات الإيجابية للبدائل السلوكية، بحيث يتبنون السلوك الاجتماعي الذي يتوافق مع القيم الإيجابية والمرغوبة، وترسخ فيهم الالتزام بالهوية والمواطنة، في الوقت الذي تتيح لهم فرصة التحصيل الدراسي بشكل أفضل.

كما خلص " بانتك " و" وبلز " في دراسة بعنوان " قيم المعلمين الأخلاقية وعلاقاتهم الشخصية مع الطلاب والكفاءة الثقافية " إلى وجود علاقات ارتباطية إيجابية بين تبنى المعلمين لاعتقادات أخلاقية أبوية الطابع، وإدراكهم لعمليات إدارة التفاعل بإيجابية وود وتفهم وبما يجسد مستوى راقيًا من الكفاءة الأخلاقية[١].

وقد قام " كروسنو " وزملاؤه بدراسة أثر العلاقات الإيجابية التي تتسم بالرعاية والاهتمام بين الطلاب والمعلم وارتباطها بالأداء الأكاديمي للطلاب، ووفقًا لنظرية الرابط الاجتماعي (social bond theory) لهرشي[٢] والتي تفيد أن الروابط القوية مع المؤسسات الاجتماعية تعزز المسارات التقليدية، فإن تعزيز تواصل الطلاب مع النظام التقليدي للمدرسة وتوفير الروابط الإيجابية بين الطلاب والمعلمين يؤدى إلى تحسين الأداء الأكاديمي للطلاب من خلال نقل رأس المال الاجتماعي، وخلق بيئة

---

(1) Pantić، N.، & Wubbels، T. (2012). Teachers' moral values and their interpersonal relationships with students and cultural competence. Teaching and Teacher Education، 28(3)، 451-460.

(2) Hirschi. T.(1969) Causes of Delinquency. Berkeley: University of California Press

التعلم المجتمعية التي تعزز التكيف والتعلم لدى الطلاب [1].

إن رأس المال الاجتماعي الأكثر وفرة يتدفق من خلال الروابط الإيجابية مع المعلمين، وقد أظهرت الأبحاث ذات الصلة أن الروابط الإيجابية مع المعلمين لها تأثير أكبر في التحصيل الأكاديمى للطلاب الذين يعانون من الحرمان الاجتماعي والاقتصادي، ويؤكد "كروسنو" أن المدارس الخاصة تتمتع ببيئة اجتماعية داعمة لنمو الروابط الإيجابية بين الطلاب والمعلمين بخلاف المدارس العامة؛ نظرًا لعدم وجود تفاوت طبقي بين طلابها، وتمتع بيئة المدرسة بالحميمية مما يسمح باتصال واسع النطاق ووثيق بين الطلاب والمعلمين، كما أن المدارس التي يشعر الطلاب فيها بالأمان يكون لديهم مستويات أعلى من الروابط مع المعلمين من خلال وجود مناخ يدعم العمل الجماعي[2].

ويركز البحث السوسيولوجي على الوظائف الكامنة في النظام التعليمى ويوليها الكثير من الاهتمام، ويمثل لذلك، بالعوامل غير الأكاديمية، مثل أثر شخصية المعلم وسلوكه في سلوك شخصية طلابه وتطورها، على اعتبار أن المدارس تؤدى وظيفة مهمة لإيكولوجيا التنمية

---

(1) Crosnoe. R.، Johnson. M.K.، and Elder، Jr. G.H (2004) Intergenerational Bonding in School: The Behavioral and Contextual Correlates of Student-Teacher Relationships، Sociology of Education 2004، Vol. 77 (January): 60–81

(2) Crosnoe. R. (2002) "High School Curriculum Track and Adolescent Association with Delinquent Friends." Journal of Adolescent Research 17:144–68.

البشرية، وقد أفادت الدراسات أن الطلاب الـذين لـديهم آراء إيجابيـة عـن معلميهم يتسم سلوكهم بالإيجابية، وتقـل المشـكلات التـي يتسـببون بهـا، وكذلك التي يتعرضون لها، خلافًـا للطـلاب الـذين لـديهم وجهـات نظـر سلبية عن معلميهم [1].

وتؤكد نظرية التعلم في السلوك الأخلاقي عـلى " أن الطالـب يـتعلم السلوك الأخلاقي كأي خبرة تعليمية أخرى"، ولـذلك فـإن المعلـم يحقـق الضبط الاجتماعي من خلال ممارساته التعليمية التي توجه الطلاب وتحـثهم على التمسك بالمعايير والقيم المقبولة اجتماعيًّا، ويقول ابن خلـدون في تـأثير القدوة في الطلاب : " يتأثر الطالب بالتقليد والمحاكـاة والمثـل العليـا التـي يراها أكثر مما يتأثر بالنصـح والإرشـاد "، فـالمعلم القـدوة يـؤثر في طلابـه بالضبط الداخلي والذي يعتمـد عـلى الـدين والقـيم والأخـلاق والعـادات والتقاليـد، ممـا يحقـق لـه ترسـيخ ذلـك في نفوسـهم والإسـهام في بنـاء شخصيتهم، فضلاً عن تقويم سلوكهم، ويختلف ذلك عن محاولة السـيطرة عليهم باستخدام الضبط الخـارجي الـذي يعتمـد عـلى القـوانين والأنظمـة واللوائح، والذي ثبت عدم جدواه في تحسين سلوك الطلاب.

---

(1) Sanders. M. G.، and Jordan W.J. (2000) Student-Teacher Relations and Academic Achievement in High School. Pp. 65–82 in Schooling Students Placed at Risk: Research، Policy، and Practice in the Education of Poor and Minority Adolescents، edited by Mavis G. Sanders. Mahwah، NJ: Lawrence Erlbaum.

المعلم والمجتمع

تتعدد مهام المعلم بحيث لم تعد مقصورة على التدريس، ويؤثر الوضع الاجتماعي الممنوح للمعلم في قيمة أدائه في المدرسة وسلوكه خارج نطاق المدرسة، ويعتمد هذا الوضع على المجتمع الذي يؤدي فيه المعلم دوره، كما يعتمد على تفسير ما يجب أن يشمله دور المعلم، فالمعلم ليس له دور محدد مقارنة بالمهن الأخرى مثل الطبيب أو المحامي، حيث تتحدد أدوارهما من قبل المريض أو الموكل على التوالى، بينما يقع على المعلم واجب أساسي في توجيه التلاميذ وتعليمهم ضمن المنهج الدراسي الموجه لهم كما أنه يحمل على عاتقه مهمة تعزيز السلوك الاجتماعي المسئول لدى طلابه، ونتيجة لذلك يضع المجتمع معايير لسلوك المعلمين لا يتوقعها من المهن الأخرى، حيث إن المعلم هو ممثل المجتمع، ويتصرف نيابة عن مجتمعه في تكوين الجيل التالي وتطويره.

وينظر المجتمع إلى المعلم باعتباره الشخص الذي يجب عليه:

- أن يسعى جاهدًا لتطوير نفسه وتعزيز التفكير النقدي والتحليلي والإبداعي لدى الآخرين.
- وضع التعليم الرسمي في سياق أوسع بحيث يتم استكماله في المنزل والمجتمع.
- اعتبار المعرفة والفهم والتقدير بمثابة شيء يتم تطويره من خلال التفاعل الفعال مع الطلاب.

- تنظيم فرص التعلم للطالب الفرد وطلاب الفصل مجتمعين، وتوجيه عملية التعلم، وتقويم النتائج.

- تبني مجموعة من القيم، والالتزام بالإطار الأخلاقي في العمل المهني.

- تعزيز الاحترام للحياة البشرية، والاهتمام بالآخرين، والرغبة في تحسين المجتمع.

- السعي لتعزيز الشعور بالمسئولية والمبادرة والتعاون بين طلابه.

- تقدير التراث الوطني وتعزيزه.

- أن يرسخ في الطلاب احترام كرامة الفرد وحرياته، والتسامح إزاء آرائه.

- تقدير وتعزيز الحاجة إلى الحفاظ على التوازن البيئي في البيئة المحيطة [1].

إن مهام المعلم اليوم أصبحت أكثر تعقيدًا من الماضي، فلقد أصبح المجتمع ينتظر من المعلمين الاستجابة لرغبات الآباء فيما يتعلق بالنتائج التعليمية والاحتياجات الاجتماعية لأبنائهم، وقد حدد جوبل - نقلاً عن التقارير المقدمة إلى الدول الأعضاء في اليونسكو- الاتجاهات التالية في دور المعلم:

- التغيير نحو وظائف أكثر تنوعًا في العملية التعليمية، وقبول المزيد من المسئولية عن تنظيم محتوى التعلم والتعليم.

---

(1) Banda، M. and Mutambo ، P.P (2016) Sociological Perspective of the Role of the Teacher in the 21st Century، International Journal of Humanities Social Sciences and Education، Volume 3. ،Issue 1، January 2016، PP 162-175

- التحول من التركيز على نقل المعرفة إلى تنظيم تعلم الطلاب، مع الاستفادة القصوى من مصادر التعلم الجديدة في المجتمع.

- تشجيع مزيد من التفرد (individualization) في التعلم، وتغيير بنية علاقات المعلمين والطلاب.

- الاستخدام الأوسع لتكنولوجيا التعليم الحديثة، واكتساب المعرفة والمهارات اللازمة.

- قبول التعاون بشكل أكبر مع المعلمين الآخرين في المدارس، وتغيير بنية العلاقات بين المعلمين.

- قبول ضرورة العمل بشكل وثيق مع أولياء الأمور وغيرهم من أفراد المجتمع، والمشاركة في الحياة المجتمعية.

- قبول المشاركة في الخدمات المدرسية والأنشطة اللا صَفِّيَّة.

- تناقص السلطة التقليدية للمعلم فيما يتعلق بمعاملته مع الطلاب وأولياء أمورهم [1].

وتتوافق الأفكار السابقة مع التغييرات التي تحدث في نظام التعليم في أجزاء كثيرة من العالم، وعادة ما يشار إلى هذا باسم التحول الديمقراطي (democratization) في المدارس، والتي يتناقص فيها تدريجيًّا الدور

---

(1) Goble، N.M.(1997) The Changing Role of the Teacher- International Perspectives، Paris UNESCO: 1997

الاستبدادي (autocratic role) للمعلم مع إضفاء الطابع الديمقراطي على المدارس وأساليب التعليم والتعلم الجديدة، بحيث يصبح التعلم أكثر عملية ومرونة وذاتية بالنسبة للطلاب، وهذا يمنح الأمل في حصول الجيل القادم من المتعلمين أثناء تعليمهم المعرفة والمهارات اللازمة التي تساعدهم في حياتهم المستقبلية، وفي الوقت الذي أصبح فيه دور المعلمين أكثر تعقيدًا مع إضفاء الطابع الديمقراطي على المدارس، فإن الطلاب أصبح لديهم فرصة أفضل لاكتشاف عالمهم والتعامل معه[1].

الصورة العامة للمعلم

هناك عدد من المجموعات خارج المدرسة، بما في ذلك أولياء الأمور، لديهم توقعاتهم الخاصة بدور المعلم ولا شك أن الدرجة التي تؤثر بها هذه التوقعات على المعلم وتشكل مفهومه لدوره تختلف من مجتمع إلى آخر، حيث إنه في بعض المجتمعات يكون المعلمون أكثر عرضة لسيطرة المجتمع من غيرهم، إذ يتقيد سلوك المعلم في حياته بتوقعات المجتمع الذي يعمل فيه، وتولي المجتمعات بشكل عام للمعلم مهمة ترسيخ الأخلاق الفاضلة في طلابه، وبالتالى يتوقعون منه أن يجسد كل الفضائل الأخلاقية للمجتمع في سلوكه وطريقة حياته باعتباره الوسيط بين عالم الكبار والأطفال، كما يعتبر دور المعلم وسيطًا بين سوق العمل و فترة التعليم عن طريق الإسهام

---

(1) Banda ، M. and Mutambo PP 162–175.

في إعداد الطلاب للمشاركة في هذه السوق.

إن الصورة العامة للمعلم في معظم المجتمعات تخضع لمشاعر مختلطة من قبل الجمهور وحتى من قبل الأفراد ؛ حيث يتم خلط الاحترام بالسخرية، والمودة بالخوف، والإعجاب بالازدراء، وتختلف المفاهيم الأبوية لدور المعلم طبقًا لعدة عوامل، مثل : الطبقة الاجتماعية، عندما يكون الوالد من الطبقة العاملة فإنه يكون غير مبالٍ بالمعلم أو معاديًا له على الأرجح بسبب الفشل في مساعيه التعليمية، وبالتالي قد يكون لديه تصور سلبي للمدارس والمعلمين، مما يجعله يرى المدارس على أنها مؤسسات معادية وغير فعالة[1]، أما الآباء الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى فإنهم يتقبلون المعلم بشكل أفضل في معظم الأحوال، لكن قد تنشأ المشكلات حينما يعتبر بعض أولياء الأمور أنهم أفضل من المعلم، وأنه يمكنهم التلاعب به لضمان نجاح طفلهم[2] وفي بعض الأحيان يساور الآباء والأمهات الشك حول دوافع المعلم، ويتساءلون عن أهدافه وينتقدون أساليبه نتيجة لضعف إنجاز أبنائهم الدراسي[3].

هناك العديد من المشكلات التي يواجهها المعلم أثناء أدائه لدوره في

---

(1) Grace.G.(1972). Role Conflict and the Teacher London: Routledge And Kegan Paul.

(2) Brown. C. (1979). Understanding Society London: Methuen.

(3) Data. A (1984) Education and Society: A Sociology of Education, London: Macmillan.

المجتمع، وقد أكد علماء الاجتماع أن هذه الأمور شائعة في جميع المجتمعات على الرغم من الاختلافات في التقاليد والتاريخ والثقافة؛ نتيجة للصراع الذي ينشأ لعدم توافق الأدوار، أو عدم توافق التوقعات، أو عدم توافق دور المعلم مع سياق اجتماعي أو ثقافي معين، أو عدم توافق دور المعلم مع طبيعة شخصيته أو توجهه الأيديولوجي[1] ويؤكد السوسيولوجيون على أن المعلم يواجه الكثير من الصراعات داخل المدرسة باعتبارها كيانًا اجتماعيًّا وخارج المدرسة، بما في ذلك المجتمع الذي يعلّمه أو المجتمع الكبير الذي يعيش فيه.

إن أحد الصراعات التي يواجهها المعلم هو الصراع بين دوره وبين الثقافة السائدة (role–culture conflict)، ويظهر هذا الصراع جليًّا في حالة وجود تنافر جوهري بين الالتزامات الأساسية لدوره وبين السياق الثقافي السائد في مجتمعه، حيث تواجه الأدوار التي لها توجه أخلاقي والتي تهتم بترسيخ القيم صراعًا كبيرًا في ثقافات المجتمعات الصناعية المتقدمة، وينشأ هذا النوع من الصراع بسبب غياب الإجماع على هذه القيم.

الصراع التنظيمي هو النوع الثانى من الصراعات التي يواجهها المعلم، و يتضمن هذا النوع من الصراع متغيرات، مثل : نمط القيادة لإدارة المدرسة التي يقوم بالعمل فيها، وتحديد الأهداف وتحقيقها، ومناخ العمل،

---

(1) Grace.G.(1972). Role Conflict and the Teacher، London: Routledge And Kegan Paul.

والتنسيق والالتزام التنظيمي والتوجه المهني، وينشأ هذا الصراع نتيجة لبيروقراطية المدارس، وعندما يكون لدى المعلمين الجدد في المدرسة رؤية جديدة يرغبون في تطوير مدرستهم من خلالها، كما ينشأ هذا الصراع مع المعلمين الذين لا يشاركون بشكل مباشر في أولويات الإدارة.

وينشأ النوع الثالث من الصراعات بين المعلم و المجتمع عندما تكون توقعات المجتمع لدور المعلم قوية ومحددة، وتتعارض مع توقعات المعلم الخاصة لدوره، ويصبح هذا النوع من الصراع قويًّا جدًا عندما يتطرق إلى الحياة الخاصة للمعلم في المجتمع، وحياته المهنية في المدرسة، وكذلك عندما يتعلق بمتغير الطبقة الاجتماعية، حيث يعارض المجتمع أن يقوم المعلم بإحضار نمط حياة إحدى الطبقات الاجتماعية إلى مجتمع مدرسي ينتمي معظم أفراده إلى طبقة اجتماعية أخرى، كأن يمارس هذا المعلم نمط حياة الطبقة الوسطى في مجتمع مدرسي ينتمي معظم أفراده إلى طبقة العمال الحرفيين أو الفلاحين، أو في مجتمع مدرسي ينتمي معظم أفراده إلى الطبقة الثرية أو الأرستقراطية حينها يفترض المجتمع أن المعلم يحاول تغيير أنماط الحياة والمعايير والقيم والطموحات المتضمنة في المجتمع، وهذا يسبب الكثير من المشكلات نتيجة طريقته في الحديث والتعليق على المواقف المختلفة، وسلوكه في التعامل مع الأفراد، وتنظيمه للنشاط التعليمي داخل الفصول الدراسية، فضلاً عن الشكل الذي يظهر به وطريقته في اختيار

ملابسه [1].

ويواجه المعلم نوعًا رابعًا من الصراع هو الصراع بين دوره ومنظومة الأدوار (role–role set conflict) التي يقوم بها بعض الأشخاص بحكم احتلال مركز اجتماعى معين، وبالتالي يمكن اعتبار دور المعلم جزءًا من شبكة يكون فيها دور الطالب، ومدير المدرسة، ورئيس القسم، والزملاء، والمعلمين الآخرين، وأولياء الأمور وغيرهم من أفراد المجتمع التعليمي جزءًا من منظومة الأدوار التي تتعلق بالعملية التعليمية. ونشأ هذا النوع من الصراع نتيجة للتوقع الخاص الذي ينتظره كل جزء في هذه المنظومة من الدور الذي يقوم به المعلم فإذا كانت هذه التوقعات لا تتفق مع النتائج المنتظرة لدور المعلم ، تنشأ حالة الصراع ضد الشخص المحوري الذي هو المعلم في هذه الحالة.

على سبيل المثال: قد يجد المعلم نفسه في صراع بين توقعات أولياء الأمور التي تفرض عليه التركيز على الموضوعات الأساسية وتدريب الطلاب على النجاح في الامتحانات، وبين قناعته التي تفرض عليه أن يركز على بناء شخصية الطلاب وتنميتها وترسيخ قيم المجتمع الثقافية الأوسع لديهم؛ مما يؤدي في نهاية المطاف إلى الصدام مع أولياء الأمور.

---

(1) M Banda. and Mutambo PP 162-175.

ولهذا يؤكد " ويلسون " أن جميع الأدوار التي يوجد فيها التزام كبير تجاه الآخرين تخضع لصراعات داخلية كبيرة وانعدام للأمان، وأن الصراعات في مهنة التدريس هي جزء لا يتجزأ من دور المعلم [١].

وهناك نوع آخر من الصراعات في مهنة التعليم، والذي ينشأ من طبيعة دور المعلم التي تتسم بتعدد المهام، فدور المعلم ليس محددًا؛ حيث يشمل دمج الطلاب في المجتمع، وتحفيزهم، وإلهامهم، وتشجيعهم، ونقل القيم إليهم، وترسيخها فيهم، وزرع الاحترام للأشخاص والممتلكات وقيم وطنهم وتراثه ورموزه ، وتربية التفكير النقدي وروح الابتكار لديهم، لذلك فإنه من المرجح أن يوجد إنجاز هذه الأدوار المتعددة صراعًا داخل المعلم بسبب غياب الخطوط الواضحة التي تحدد دورًا واضحًا له، حيث يعرف كل فرد الدور الذي عليه أن يقوم به في عمله، كما يحتاج الفرد إلى رؤية نتائج أدائه لدوره، الأمر الذي يغيب عن مهنة التدريس، حيث لا يمكن للمعلمين أن يروا نتائج أدائهم لدورهم مثل المحامين والأطباء الذين يمكنهم رؤية نتائج هذا الأداء بسهولة [٢].

ويرى السوسيولوجيون أن جوهر العلاقة بين المعلم والوالدين ينبغي أن يركز على تعزيز الخبرة التعليمية، عن طريق تهيئة مناخ داعم لتعلم

---

(1) Wilson. B.(1962) The Teacher"s Role: A Sociological Analysis، British Journal . of Sociology. Pp 39-41

(2)Lacey. C. (1977) The Socialization of Teachers، Suffolk: Methuen

الطلاب، وعدم محاولة تصيد الأخطاء في كل جانب منهم، وكما قال "جيسى جاكسون"، الناشط الأمريكى في مجال حقوق الإنسان: " يجب على الآباء إفساح المجال في قلوبهم ثم في منازلهم ثم في تنظيم أوقاتهم لأطفالهم؛ حتى يسهل على المعلمين أداء أدوارهم"[١].

إن توفير المناخ الداعم لتعلم الطلاب يوجب تعزيز التعاون بين المنزل والمدرسة والمجتمع من خلال تمكين الوالدين من المشاركة في تعليم أطفالهم، وتعزيز الشراكة بين الآباء والمدرسين، وتوفير فرص التفاعل بين الآباء والمعلمين من خلال تحديد احتياجات الآباء والاستجابة لها، ومن خلال زيادة وعي المدرسين بالمهارات التي يمكن أن يسهم بها الآباء في تعليم أبنائهم، وتشجيع العمل المشترك في التخطيط وصنع القرار والتقويم، وبالتالي الاستمرارية في تطوير العملية التعليمية بين المنزل والمجتمع والمدرسة[٢].

إن دعم المؤسسات التعليمية للمعلم، والتركيز على تدريبه وإكسابه المهارات اللازمة وتطبيقها من خلال الممارسات التعليمية يمنح المعلم الشعور بالأمان والكفاءة واحترام الذات، والثقة في قدراته ومهاراته وإبداعه باعتباره معلمًا، وعندئذ لن ينظر المعلم إلى مشاركة الوالدين في

---

(1)Huberman.M. (1993) The Lives of Teachers، New York: Teachers College Press.

(2)Conaty. C. (2002) Including All، Dublin: Veritus Publictions

تعليم أبنائهم على أنها تهديد لمكانته وتشكيك في قدرته على أداء دوره، وسوف يرى أن الارتباط بعلاقات إيجابية مع أولياء الأمور ينبع من تقدير عميق للثقافات والتقاليد والتاريخ[١].

الفصل الدراسي من المنظور السوسيولوجي

يتعامل علم الاجتماع مع المؤسسات والثقافات والأنظمة الاجتماعية التي أنشأها الناس، والتي تؤثر بالتالي على سلوكهم، من خلال ثلاثة أنواع من الاتجاهات السوسيولوجية وفقًا لـ" ميجان" [٢].

١- الاتجاه الأول هو المنظورات الكلية (Macro-perspectives) والتي تبدأ برؤية المجتمعات والثقافات والمؤسسات باعتبارها واضعة أنماطًا للقواعد والسلوكيات، حيث يُنظر إلى الأفراد على أنهم مجبرون أو مقتنعون أو مخدوعون أو محتوون اجتماعيًا للامتثال لهذه الأنماط، بمعنى أن الفرد لا يملك أى خيار سوى الالتزام بالمعايير التي وضعها المجتمع، وتفحص المنظورات الكلية العلاقة بين التعليم والمجتمع من خلال تحليل كيفية قيام المناهج بإنشاء الدولة القومية الحديثة وترسيخها، كما تحاول فهم العرض والطلب على التعليم من خلال تأثير الحركات الاجتماعية والضبط

(1) Rallies. K. (1995) The Sub-Roles of a Teacher ,1995 Http: Www.Asanet.Org/Soe/. .

(2) Meighan. R.A (1981) Sociology of Educating، London: Holt Rinehart And Winston

الاجتماعى وأنماط التغيير الاجتماعي المختلفة.

ويؤيد هذه المنظورات الكلية منظرو البنائية الوظيفية ومنظرو الصراع البنائى.

يعتمد منظرو البنائية الوظيفية على افتراض أن المجتمع عبارة عن بنية أو إطار عمل يتكون من أجزاء ترتبط ارتباطًا وثيقًا ببعضها البعض، وأن كل جزء من هذه الأجزاء مثل الاقتصاد والأسرة والتعليم يؤدى وظيفة في الحفاظ على استمرار المجتمع.

ويرى منظرو الصراع البنائى (structural conflict) أن جميع جماعات المجتمع تستفيد بشكل جيد من خلال هذا الترتيب البنيوي، ويؤكدون على فكرة تضارب المصالح التي تمنح بعض الناس مزايا وفرصًا أكثر من غيرهم.

٢- ويتبنى الاتجاه الثاني منظرو المنظورات الدقيقة (Microperspectives) أن الأفراد ليسوا مجبرين على الالتزام بالمعايير التي وضعها المجتمع، وأن هذا المجتمع لا يقيد أفراده بأغلال تشدهم إليه، وإنما يقوم الأفراد بصنع مجتمعهم من خلال أفعالهم الاجتماعية (social actions) التي يقومون بها كل يوم، وبهذا يتم تفسير المعانى وقبولها من خلال التفاوض عليها من قِبل الجهات الفاعلة الاجتماعية بدلاً من فرضها عليهم.

٣- أما ثالث هذه الاتجاهات فهو المنظورات التفاعلية

(Interactionist perspectives) التي ترى أن المجتمع عبارة عن شبكة فضفاضة وغير محكمة من الأجزاء ذات الصلة التي تستمر في حالة من التدفق والتفاعل، مما يعني أن المجتمع يمكن في بعض الأحيان أن يكون متناغمًا ومفتوحًا ومرنًا، وفي أحيان أخرى يكون لديه بعض التناغم والانفتاح والمرونة ، أو قد يمر بحالة من التناقض.

وتبدو المنظورات السابق ذكرها واضحة جدًّا في علم اجتماع التربية (Sociology of Education)، الذي يتناول القضايا التي تربط التعليم بالمجتمع، والانتقال الرسمى المنهجى للمهارات والمعرفة والمعتقدات والقيم والمواقف والمعايير[1].

حيث يتعامل علم اجتماع التربية مع العديد من الروابط بين التعليم والمجتمع على جميع مستويات النظام التعليمى، بما في ذلك التعليم الابتدائي والثانوي وما بعد الثانوي.

وقد أكد بعض العلماء مدى قدرة قيام المدارس والكليات والجامعات بتنظيم المؤسسات، في حين يركز آخرون على تأثير المؤسسات التعليمية، والطرق التي تؤثر بها هذه المؤسسات على التدرج الاجتماعي (social stratification)، والحراك الاجتماعي (social mobility)، والنجاح الاجتماعي والاقتصادي للكبار، كما يدرسون تدرج التطور داخل المدرسة

---

(1) Meighan. R.A (1981) Sociology of Educating، London: Holt، Rinehart And Winston

وبين المدارس المختلفة، وتأثير ذلك على نواتج التعليم[1].

وينظر علم الاجتماع إلى المدارس على أنها جزء مهم من عملية الاندماج الاجتماعي، وتمييز الثقافات والثقافات الفرعية المختلفة، ونقل المواقف والأيديولوجيات وتشجيعها وتنميتها، كما أن للمدارس دورًا كبيرًا في إحداث التغيير الاجتماعي من خلال الروابط التي تربطها بالمؤسسات الأخرى داخل البنى الاجتماعية، مثل: الأسرة والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والدينية.

ويسهم علم الاجتماع في إحداث التغيير الاجتماعي المرغوب عن طريق توجيه المعلمين لاستخدام مواقف وظروف مجموع الطلاب (group situations) لمحاولة تغيير سلوكهم، كما يساعد المدرسة في التغلب على المشكلات الإدارية عن طريق تطوير اللوائح والطقوس المدرسية والروتين.

* * *

□

(1) M .Banda and Mutambo P.P162-175.

خاتمة البحث

ويخلص هذا البحث إلى أن الدراسات الحديثة قد أتت ببعض ما رسخ في التراث الإسلامي منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا استنادًا إلى ما جاء به خالق البشر، وهو الأعلم بما يصلحهم ويقوم سلوكهم، ثم سيرة الرسول الكريم ﷺ، ثم ما حوته متون علماء وفقهاء المسلمين والتي تؤكد على أهمية دور المعلم في بناء شخصية طلابه من خلال التحلي بالأخلاق الكريمة، وعلى أن يكون سلوكه نابعًا ومتفقًا مع ما يقبله مجتمعه ودينه، وأن يتقن المهارات التي تمكنه من غرس القيم المرغوبة في طلابه من خلال بناء علاقة تتسم بالود والرعاية والاهتمام مع من يتولى تربيتهم، وأن يربي في طلابه تقدير العلم ويساعدهم على تحصيله وفهمه والبحث عن مصادره، ويرسخ فيهم احترام الآخرين وتقبل الاختلاف في الرأي، كما وجه الإسلام المجتمع والوالدين إلى أهمية توقير المعلم واحترامه، ومعرفة فضله وأثره على النهوض بالمجتمع وتربية أجياله.

وترى الباحثة أن دور المعلم في بناء شخصية طلابه هو أهم أدواره التي ينتظر المجتمع منه أن يؤديه على خير وجه، وحتى يقوم المعلم بهذا الدور فإنه في حاجة إلى أن يتلقى الدعم من مجتمعه بدءًا من تغيير نظرة المجتمع إلى ما يتوقعه من نتائج تعليم أبنائه، بحيث تتحول تلك النظرة من مجرد اجتياز أبنائهم للامتحانات إلى السعي نحو بناء شخصية أبنائهم

وبناتهم، وترسيخ القيم الأخلاقية المرغوبة، وتربية التفكير النقدي، وإيقاظ روح الابتكار والاختراع فيهم، مرورًا بتسليح المعلم بالمعرفة، وتنمية قناعاته بقيم وأخلاق دينه وتطوير مهاراته من خلال تدريبه على كيفية إدارة الممارسات التعليمية داخل المدارس والجامعات، بحيث تتولى هذه المهام هيئة موحدة تضم الخبراء الذين لا يعدمهم وطننا حتى تسير العملية التعليمية بخطى محددة وثابتة في جميع مدارسنا وجامعاتنا نحو تحقيق أهداف واضحة تسعى إلى بناء شخصية الأجيال القادمة.

ويتطلب تحقيق هذه الغاية ترسيخ احترام المعلم داخل مجتمعنا وتحسين صورته الاجتماعية، ووضعه الاقتصادي، ومنحه الفرصة للإبداع والابتكار عن طريق توفير الاستقلالية والمرونة في طرق ووسائل الممارسة التعليمية ضمن المعايير التي تضعها الهيئة السابق ذكرها، حتى يتمكن المعلمون من أداء أدوارهم، وإبراز هويتنا من خلال إنجازاتنا ومشاركتنا في نمو الحضارة الإنسانية وتطورها.

* * *

المؤسسات الوطنية ودورها في بناء الشخصية
القوات المسلحة المصرية نموذجاً *

انطلاقًا من مبدأ علاقة الفرد بالمجتمع، يمكن تعريف سمات الشخصية والعوامل المؤثرة فيها من خلال تمييز الآتي:

- علم نفس الشخصية: هو الخصائص النفسية عند الفرد كالطبع والمزاج ونمط السلوك والنشاط العصبي العالي والدوافع والقدرات وغيرها، بالإضافة إلى العوامل المؤثرة فيها.

- علم النفس الاجتماعي: ويهتم بالظواهر النفسية التي تنشأ خلال تفاعل الإنسان مع الآخرين، سواء أكان الآخر فردًا أم جماعة مثل : " الأسرة، أو الجماعة المنظمة، أو الجماعة غير المنظمة، ويتولى هذا الفرع أيضًا دراسة الرأي العام والإشاعة والقيم والمعتقدات والتقاليد الاجتماعية، وأثر ذلك كله في سلوك الفرد.

- علم النفس العسكري: ويُعنى بدراسة سلوك المقاتل، وعلاقة الرئيس بالمرؤوس في ظروف السلم والحرب، وطرق تكوين الصفات الإرادية الإيجابية والمهارات والقدرات الضرورية عند أفراد القوات المسلحة، وكذلك دعم القرار العسكري ، وتقع " العمليات النفسية "

---

* كتب هذا البحث: لواء أركان حرب / بهاء الدين على الحريشي- لواء دكتور / حسام الدين أنور على- مصر.

ضمن اهتمامات هذا الفرع، وهو يهتم كذلك برفع الروح المعنوية للجنود والقادة، وأساليب تدريب القادة، والتعامل مع الإصابات النفسية الناجمة عن المعارك.

مفهوم السلوك الإنساني:

هو مجموعة الأنشطة المتعددة التي يقوم بها الإنسان في حياته لكي يتكيف مع متطلبات البيئة والحياة المحيطة به، وهذه الأنشطة هي محصلة التفاعل بين العوامل الشخصية والعوامل البيئية، وقد توصلت الأبحاث والدراسات في مجال العلوم السلوكية إلى مجموعة من النتائج التي تفسر السلوك الإنساني (الفردي – الجماعي) كالآتي :

أ – السلوك الإنساني مُسَبَّب؛ بمعنى أن السلوك الإنساني لا يكون من فراغ، بل إن هناك سببًا لكل سلوك قد يكون مصدره تكوينه الداخلي، أو المثيرات الخارجية من البيئة المحيطة به.

ب – السلوك الإنساني مُوَجَّه نحو هدف يسعى إلى تحقيقه.

ج – السلوك الإنساني محفز له دوافع محركة؛ أى أن هناك دوافع تحرك هذا الإنسان، والتي تنتج عن حاجات معينة لديه، والتي قد تكون حاجات فسيولوجية أو نفسية أو اجتماعية، ينتج عنها توتر أو قلق في حالة عدم إشباعها.

د – هناك ثلاثة مبادئ أساسية لتفسير السلوك الإنساني، وهي:

السببية، والدافعية، والتوجه نحو الهدف، وتنطبق هذه الفروض الثلاثة على سلوك الأفراد في كل المجتمعات، وفي ظل أنواع مختلفة من الثقافات، وفي جميع مراحل السن، وفي كل الظروف، وهو ما يتطلب إشباعها، وعلى الرغم من ذلك تؤثر الفروق الفردية الناتجة عن الخصائص الشخصية للأفراد في كيفية أدائهم لأعمالهم؛ لأن سمات الفرد وخصائصه تؤثر على سلوكه في العمل، وعادة ما يكون سلوك الفرد في العمل محصلة التأثير المشترك لخصائص كل فرد مع الموقف الذي يعيشه.

السلوك التنظيمي:

هو علم يحاول أن يقدم إطارًا لكيفية تفسير السلوك الإنساني وتحليله، وذلك بغرض التنبؤ به مستقبلاً والسيطرة عليه أو التحكم فيه، ويقصد بالسلوك الاستجابات التي تصدر عن الفرد نتيجة لاحتكاكه بغيره من الأفراد، أو نتيجة لاتصاله بالبيئة الخارجية من حوله، ويتضمن السلوك بهذا المعنى كل ما يصدر عن الفرد من عمل حركي، أو تفكير، أو سلوك لغوي، أو مشاعر، أو انفعالات، أو إدراك.

خلفية تاريخية عن الشخصية المصرية:

نشأت دراسات الطابع القومي للشخصية بفعل عوامل سياسية في المقام الأول، ومن أهم المفاهيم التي استخدمت في دراسات الطابع القومي للشخصية مفهوم الشخصية القومية، ولقد بدأ العلماء المصريون في الاهتمام

بدراسة الشخصية القومية المصرية بتأثير من التراث العالمي الذي أدخل المفهوم إلى دائرة الضوء أثناء الحرب العالمية الثانية، لكن دخول المفهوم إلى دائرة الاهتمام في مصر قد تأثر ولا شك بعوامل سياسية محلية، فبداية دخول المفهوم تأثر بالنهضة المصرية في الستينيات؛ حيث كان الدافع وراء الاهتمام بشخصية مصر دافعًا تنمويًّا، وكانت الدراسات التي ظهرت في هذه الفترة أقل بكثير من سيل الدراسات التي بدأت في الظهور بعد عام ١٩٦٧م، وكان الدافع وراء تدفق الدراسات بعد عام ١٩٦٧م هو محاولة الدفاع - بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر- عن مصر بعد الهزيمة، أو محاولة إيجاد تفسير للهزيمة التي لحقت بالعرب عام ١٩٦٧م.

وقد سبق العدوان الإسرائيلي على مصر عام ١٩٦٧م دراسات مستفيضة عن الوطن العربي عامة، والشعب والجيش المصري بصفة خاصة، ولا تزال البحوث والدراسات تجرى علينا حتى الآن، عن الطابع القومي للشخصية، وهدفها كلها واضح وهو دراسة الشعب المصري للتعامل معه مستقبلاً.

وفي دراسة لمدير المخابرات الإسرائيلية عام ١٩٦٧م للحصول على درجة الدكتوراه من الجامعة العبرية عن الشخصية المصرية بعنوان : العوامل الأساسية في هزيمة العرب في حرب الأيام الستة، ذكر فيها عنا: أننا اعتدنا أن نتشاءم، ونكره أن يُنقل لنا خبر سيئ وبالتالي فإن المصري يتردد

كثيرًا قبل أن ينقل للآخرين خبرًا سيئًا، والسمة المهمة الثانية التي ظهرت في دراسته عن الشخصية المصرية هي الخوف من الوقوع في خطأ التجربة، أو الدخول في مواقف جديدة، فإذا صادفنا موقفًا جديدًا نسأل الآخرين عن كيفية التصرف، وهاتان السمتان السلوكيتان هما الأساس الذي بنى عليه خبراء إسرائيل فكرة ضرب المطارات المصرية بجميع طائرات إسرائيل في ساعة واحدة، وهي التي حددت مسار حرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧م.

وتمر مصر حاليًا بمرحلة معقدة من تاريخها تتحالف فيها العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية – قومية كانت أو إقليمية أو عالمية – ضد مصالح الشعب المصري، ولذا كانت صيحات المفكرين والسياسيين والاقتصاديين تتراوح ما بين تركيز اللوم على العوامل الخارجية التي تحاصر مصر والمصريين، وما بين صب اللوم كله على الشخصية المصرية وسلبياتها واستسلامها للأمر الواقع، ولا شك أن الفصل بين وجهتي النظر غير ممكن؛ لأن الظروف الخارجية وكذلك الشخصية القومية المصرية مترابطتان متداخلتان متفاعلتان، لذا فإن كل محاولة لدراسة الشخصية المصرية تقتضي محاولة فهم تاريخ شعب مصر.

وفيما يلي سوف نتعرض لتلك المراحل التاريخية وتأثيرها في الشخصية القومية للشعب المصري، فمازال الجدل مستمرًّا حول ما إذا كانت هناك

شخصية مصرية واحدة ومستمرة منذ بداية التاريخ القديم وحتى الآن، أم أن تاريخ مصر يعبر عن مراحل متعاقبة ولكنها منفصلة حضاريًّا وثقافيًّا، وتكون إذًا لكل مرحلة تاريخية شخصية، وعلى هذا فشخصية مصر الفرعونية ليست هي شخصية مصر القبطية، وكلتاهما تختلف عن شخصية مصر الإسلامية.

الشخصية المصرية عبر العصور الفرعونية:

أ- تطورت الشخصية المصرية عبر العصور الفرعونية المتباينة، وولدت بعد أن تجمع بعض المصريين في الوادى وعلى ضفاف النيل وقرروا صنع مستقبلهم بأيديهم، فاتحدوا وتحدوا الطبيعة وقاموا بزراعة الأرض، وانتظموا في مجتمع، وأقاموا الدولة، وكونوا أول أمة في تاريخ البشرية.

ب - لقد اتضح أن سيكولوجية الشخصية المصرية الفرعونية تدور حول محور رئيس هو "الدين"، ومن ثم تكون القيمة الدينية بمثابة القيمة المصرية لسلوكها العام، ومع اختلاف آلهة مصر الفرعونية إلا أن المصريين جميعًا آمنوا بفكرة البعث بعد الموت من أجل الحساب على ما كان في الحياة الدنيا، فتكون الحياة الآخرة الأبدية إما نعيمًا أو عذابًا، ومن هنا انبثق التكامل بكونه مبدأً أصيلاً في العقلية المصرية؛ فالحياة الدنيا تتكامل مع الحياة الآخرة، ومن ثم فإن الدين هو مفتاح الشخصية المصرية، وهو الدافع الأساس لسلوكيات الشخصية المصرية الفرعونية.

ج – لقد استطاعت الشخصية المصرية الفرعونية من خلال أسلوب المواءمة أن تتعايش قرونًا مع المتناقضات دون أن تتمزق، فتناقض أسلوب الحكم أحيانًا مع العدل المنشود، وتناقض تواجد المستعمر لفترات مع الاعتزاز بالقومية، لم يؤثر كثيرًا على الشخصية المصرية في ذاتيتها واستمراريتها.

هـ – الجدير بالملاحظة أن مصر كانت تُبعث قوية بعد كل ضعف، بل أكثر قوة، فالدولة الوسطى أكثر رخاء من الدولة القديمة، والدولة الحديثة أكثر امتدادًا من الدولة الوسطى.

و – ظهر خلال هذا العصر استعداد الشخصية المصرية للتفكك والانحلال والفوضى إذا فسد الحكم وانتشر الظلم، ولكن لا يسلب ذلك استعدادها للوحدة والانضباط والبناء إذا ما قادها الحاكم القوى العادل.

الشخصية المصرية في العصر القبطي:

أ – حافظت الشخصية المصرية في هذا العصر على لغتها ومعانيها، أى على الجوهر، ولكنها كستها بثوب الحاكم الأجنبي فعرضتها بالحروف اليونانية، لقد كان لدى المصريين قناعة بأن أى مستعمر لبلادهم سوف يرحل إن عاجلاً أم آجلاً، وأن عليهم أن يتواءموا معه حتى يحين أجله.

ب – لقد سهل على المصريين أن يعتنقوا المسيحية باعتبار أنها شريعة سماوية، فهي تؤكد مفاهيم البعث والحساب والآخرة كما أدركوها، وتؤكد قيم الحق والخير والجمال كما تعلموها، وتؤكد المساواة بين كل البشر كما

تطلعوا إليها، وأخيرًا تؤكد سبل السلام كما تمنوها.

ج - اجتمع التاريخ والفن على تأكيد بعض السمات في الشخصية المصرية المسيحية، ولعل أولها أنها امتداد للشخصية الفرعونية، فتوجهها الرئيس نحو الدين، كما أنها اعتنقت المسيحية بحسب سيكولوجية إدراكها التي طبعت عليها، والتي يبرز فيها أسلوب التكامل والوحدة، فنادت بالطبيعة الواحدة للمسيح، كما تأكدت قوة الشخصية المصرية وقدرتها على الاستقلال الذاتي، وقد تجلت تلك القوة في تحملها للاضطهاد الروماني، وفي نفوذ الكنيسة المصرية وسيطرتها على أنحاء شتى في الشرق وفي الغرب، كما أن الحضارة المصرية قد عايشت الحضارة الهيلينية والحضارة الرومانية دون التأثر بجوهرها، مضطرة أو راضية بالشكل الخارجى بوصفه أسلوبًا للتوافق مع المستعمر أو السلطة الحاكمة التي لا ترضى عنها.

الشخصية المصرية في العصر الإسلامي:

أ - القيمة العليا في الإسلام التي وافقت سيكولوجية الشخصية المصرية وتوحدت مع مقصدها العام ، هي " العدالة "؛ ففي الإسلام نجد قيمة العدل عالية متألقة تتصدر كل القيم الأخرى التي يدعو إليها الدين، فهو من المقاصد العامة والأولى للشريعة ، وكل السبل التي تكفل تحقيقه هي سبل إسلامية شرعية ، هكذا نتبين أن الشخصية المصرية قد وجدت في الإسلام منهجًا تمثل في "التوسط والاعتدال" ، كما وجدت مقصدًا وهو " الحق والعدل ".

ب – الإسلام إذًا لم يغير من الطبيعة السيكولوجية للشخصية المصرية، بل منحها الطرق التي تمارس فيها ذاتيتها ، لقد اختبر المصريون المذاهب المختلفة في الإسلام وعايشوها ولكنهم اختاروا مذهب أهل السنة بعد أن هجروا مذهب الشيعة وعقيدة الخوارج منذ بداية الطريق، وهكذا صار المصريون من أهل السنة بما يتوافق مع سماتهم النفسية التي اكتسبوها عبر آلاف السنين، وهي التوسط، والمحافظة، والوضوح، والسلام.

ج – ويتضح مما سبق أن شخصية مصر واضحة القسمات، جلية المعارف، تعبر الأجيال، وتمضي في التاريخ بخُطى ثابتة وطيدة منسقة.

د – وفي العصر الإسلامي نجد ما يؤكد سمة بارزة في الشخصية المصرية تتعلق بموقفها من الغزو الأجنبي، فهي إن عاشت أزمة معينة، أزمة اقتصادية على الأخص، من مجاعة أو فقر، وضاع معها الأمن، أو قاست ظلم حاكم وصاحبه العنف والقهر؛ تطلعت إلى مبادرة بطل قوي عادل من أبنائها لتسير خلفه من أجل التغيير والخروج من تلك الأزمة.

هـ – ومن الملاحظ أن تحمل الأزمات الاقتصادية الحادة، والقدرة على تحمل استمرارية حياة متواضعة وهادئة إنما ينتج عن طبيعة نفسية محبة للاستقرار وكارهة للتقلبات الحادة المفاجئة.

و – ولقد وجدت مصر في الدين الإسلامي تلك الخاصية الأساسية في شخصيتها، وهي القدرة على الجمع بين الأشياء وإن بدت متعارضة،

والقدرة على التكامل والوحدة بين المادة والروح، والدنيا والآخرة، وبين موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام)، ووجدت فيه التوحيد الذي ظلت تبحث عنه؛ فتوحدت معه ودافعت عنه وأبدعت من أجله .

ز – ولم يتغير ولاء الشخصية المصرية في العصر الإسلامي، فهي دائمًا تهب ولاءها الأول للدين الذي تعتنقه وللشعب الذي تنتمي إليه، وتحارب من أجل الدفاع عن الدين؛ فكانت حروبها مع الصليبيين والتتار، وتبتدع أساليب للتوافق مع الغرباء ليظل شعبها نقيًّا موحدًا مستمرًّا ولو كان فقيرًا مظلومًا.

ح – إلا أن الشخصية المصرية اكتسبت مكسبًا عظيمًا في بنائها النفسي- خلال العصر الإسلامي، حيث اكتسبت الشعور بالانتماء إلى الأمة العربية، سواء من خلال الولاء إلى الدين نفسه وهو الإسلام، وممارسة العبادات وبناء المساجد، أو من خلال المشاركة في الخضوع إلى سلطة سياسية واحدة، أو الاشتراك في الحرب للدفاع عن الأخطار الخارجية، كما اكتسبت أيضًا الشعور بالانتماء إلى الأمة الإسلامية.

ط – لقد تراجعت الشخصية المصرية في العصور المظلمة للحكم العثماني، وانسحبت إلى ظلمات الجهل والبطالة بافتقادها إلى القيادة الحكيمة، ولقد كان حالها خضوعًا وضعفًا وكسلاً ولا مبالاة، فإذا بها تصحو لتحارب نابليون دفاعًا عن أراضيها، أو قل دفاعًا عن إسلامها، وإذا كانت الشخصية المصرية قد استيقظت على يد الحملة الفرنسية، فإن جسدها قد

قوي على يد محمد علي، بما يسمح لشخصيتها أن تنهض وتتطلع إلى الخلاص وإلى الحرية والرفاهية.

تطور الشخصية المصرية في العصر الحديث :

أ - إن الشخصية المصرية في الثورة العرابية اتصفت بالقوة في الجانب الانفعالي مع قصور أو ضعف في الجانبين الإدراكي والسلوكي، ثم هي بعد الاحتلال وفي عهد مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ومحمد فريد اتصفت بقوة الإدراك، ولكن مع الأسف قد صحبه ضعف في الجانب الانفعالي وزيف في الجانب السلوكي ولذلك لم يتحقق الهدف ، وحين تحقق لها قدر لا بأس به من التوازن في نمو كل من الإدراك والانفعال والسلوك تحقق لها قدر لا بأس به من الاستقلال.

ب - أما عن ثورة ١٩١٩م فلقد كانت ثورة سياسية وطنية بكل معاني الكلمة، ولم يشبها التعصب الديني ولا اتخذت طابعًا دينيًّا ولا انحدرت إلى الصراع الاجتماعي بين الطبقات، بل كان رائدها الوحدة الوطنية سواء بين المسلمين والأقباط، أو بين طبقات المجتمع المختلفة، ومن مظاهر التقدم الاجتماعي عام ١٩١٩م مساهمة المرأة في الثورة، واشتراك النساء بأقلامهن وأفكارهن في إذكاء روح الوطنية.

ج - وبناء على ما سبق يمكن القول بأن الشخصية المصرية أيًّا كانت مرحلة التطور التي تعيشها، تعي هويتها بدرجة أو بأخرى، ولكنها درجة

كافية لأن تحدد لها استجابات ملائمة رشيدة، وهي راسخة في اللاشعور الجمعي المصري، ولكن المطلوب أن يتم إظهار صورة الهوية في مستوى الوعى إظهارًا واضحًا يكفي لأن يوجه سياسة مصر وشعبها إلى اتخاذ القرارات التي تتناغم مع طبيعتها.

الرؤية الحالية للشخصية المصرية:

للإحاطة بسمات الشخصية المصرية والوصول إلى مفاتيحها كان ثمة احتياج إلى منهجية شاملة ومُحكمة للوصول إلى رؤية علمية بعيدة قدر الإمكان عن التحيزات العاطفية الإيجابية أو السلبية، خاصة في موضوع يمس الذات الشخصية والوطنية.

والرؤية الحالية للشخصية المصرية تشكل أولوية، بمعنى أننا في هذه الدراسة نهتم أكثر بما هو كائن وليس بما كان، ولو تكلمنا عن شيء في الماضي فإنما يكون بهدف شرح أو تفسير سمة قائمة، وبيان جذورها وتطورها.

ولقد تميزت الشخصية المصرية على مر عصور طويلة بسمات كانت أقرب إلى الثبات، ولذلك يعتبرها العلماء سمات أصيلة؛ وذلك لتمييزها عن سمات فرعية أو ثانوية قابلة للتحريك مع الظروف الطارئة، فالمصري تميز بكونه : ذكيًّا، متدينًا، طيبًا، ساخرًا، عاشقًا للاستقرار؛ وكان هذا يشكل الخريطة الأساسية للشخصية المصرية في وعي المصريين ووعي غيرهم، وقد

أدى إلى الثبات النسبي لهذه السمات ارتباطها بعوامل جغرافية ومناخية مستقرة نسبيًّا.

وهناك شبه اتفاق على تلك الخصائص الأساسية التي تُعد أركانًا أو أقطابًا في الشخصية المصرية، وهي: التدين، والمحافظة، والاعتدال، والواقعية، وأحيانًا السلبية، وبهذا الشكل تبدو السلسلة متوالية تنازلية إلى حد ما، من القوة إلى الضعف، ولأن خاصية الاعتدال بالذات تمثل نقطة الوسط والارتكاز بين تلك الخصائص اتخذ الباحثون منها المظلة الجامعة والعنوان الرئيس العريض الشامل لخصائص الشخصية المصرية.

إن ميل المصري للوداعة والطمأنينة والاستقرار يفوق ميله للثورة والتغيير، وابن خلدون لما رأى المصريين قال: " أَهْلَ مِصْرَ كَأَنهَمٍّ فُرِغُوَا مِنْ الحِسَابِ" ، وتبعه في ذلك تلميذه المقريزي، حيث إنهم حين كانت تشتد بهم الهموم نتيجة تعسف الحاكم الأجنبي المستبد والمستغل كانوا يستعينون بالنكات اللاذعة والسخرية لتخفيف إحساسهم بالمرارة مما يعانون، وكان سلاح السخرية يؤجل الثورة وربما يجهضها؛ لأنه يعمل على تنفيس الغضب الكامن، فذلك لأن مصر بحجمها جسم ضخم ثقيل الوزن، لا يتحرك باندفاع متهور، بل باندفاع محسوب، ولذا فإن ثوراتها الشاملة قليلة العدد نسبيًّا ولكنها فاعلة ومحطِمة حين تقع، لذا فإن المصري يتحرك ويثور في حالات الدين والعرض والأرض كالآتى:

(١) عند المساس بعقيدته الدينية.

(٢) عند التعرض قولاً أو فعلاً لما يمس عرضه، أو حين تجرح كرامته بشكل مهين.

(٣) حين تهدد لقمة عيشه بشكل خطر .

وقد كان الطغاة والمستبدون من الحكام الأجانب الذين حكموا مصر يعرفون حدود هذه الأشياء، فيحفظون له الحد الأدنى منها حتى يضمنوا استمرار هدوئه، أو يحاولون خداعه حتى لا يصل إلى حالة الشعور بالمهانة أو العوز المحرض على الثورة.

السمات العامة للشخصية المصرية:

أ – التدين :

نشأ الإنسان المصري القديم على الطيبة والمودة وحب الخير، ومثَّل الدينُ في حياته قيمة كبيرة منذ القدم، حيث كان دائمًا متمسكًا بالدين ومقيمًا لشعائره، ويخشى الحساب في الآخرة .

ب – التسامح :

كان ولا يزال المصري قديمًا وحديثًا شخصية متسامحة تقبل الآخرين وتتحاور معهم، وتبتعد عن كل ما يجرح مشاعر من يعايشها، بصرف النظر عن اختلافه معها دينيًّا أوعرقيًّا أو فكريًّا.

ج - العدل :

تَمسُّك المصريين بالدين جعلهم ينشدون العدالة ويقدرون العدل ومن يطبقه، لذلك نشأ المصري عادلاً في حياته ينشد الحق، ودليل ذلك ما قام به المصريون على مدار تاريخهم الطويل لمواجهة الظلم وإقامة العدالة والحق بين الناس.

د - الصبر والجلد وتحمل الصعاب :

تتسم شخصية المصري بالصبر وتحمل الصعاب والأزمات التي مر بها على مر العصور، وربما يرجع ذلك إلى ارتباط المصري الوثيق بالدين، وبالبيئة الزراعية التي عاش فيها منذ فجر التاريخ على ضفاف نهر النيل، والتي علمته أن يضع البذرة في الأرض وينتظر الحصاد .

هـ- المرح :

يوصف المصريون بأنهم شعب محب للحياة وعاشق لها على الرغم من الضغوط والظروف المحيطة التي يعانى منها على مر العصور، فالمصري ذو شخصية مرحة تحب التواصل مع الآخرين والاندماج معهم، وتتقن فنون الدعابة.

و- الانفتاح :

يمتلك المصري شخصية منفتحة على ثقافات وحضارات العالم الأخرى، فلم يكن أبدًا شخصية متجمدة منغلقة على نفسها، بل كان

متجددًا يرغب في التواصل مع الثقافات الأخرى والاستفادة منها، ومعرفة كل ما هو جديد في جميع المجالات، وعلى الرغم من ذلك ظل متمسكًا بهويته، ومعتزًّا بتراث وطنه.

ز- العاطفة :

وهي عبارة عن اتجاه نفسى إيجابي "محب" أو سلبي "كاره" نحو موضوع معين، مثل: شخص أو جماعة أو شعب أو شخصية تاريخية أو مذهب أيديولوجي أو كتاب... إلخ، حيث إن العاطفة هي المحرك والدافع للشخصية المصرية ومن أهم مكوناتها.

ح - الشعور بالمسئولية (مسئولية ذاتية) :

وهي عبارة عن شعور ذاتي لدى المصري، حيث إن الفرد الذي يتوفر لديه إحساس عميق بالمسئولية لا يخشى ولا يتردد في الاختيار؛ لأنه مستعد لتحمل مسئولية اختياره.

ط - التكيف السريع والقدرة على التأقلم مع الموقف ونقيضه :

إِنَّ الإنسانَ المصري قادر على أن يعيش في أى ظروف ويتعامل مع أى شخصية دون أن يجد في ذلك غضاضة، ودون أن يتطلب ذلك منه جهدًا كبيرًا لما يتمتع به من المرونة والقدرة على التكيف السريع، ولذلك استطاع أن يتقبل ويساير كل تغيير، ويتعامل مع كل جديد دون ارتباك أو حيرة.

ى – النكتة المواتية :

حين تحاصر المصري الهموم والأزمات، فإنه يشارك في الأحداث بالتعليق الساخر عليها، فيضحك، ويخفف بذلك من التوتر العصبي الذي كان يمكن أن يدفعه إلى الاندفاع في الغضب دون روية أو حكمة.

تقييم الشخصية المصرية:

وفي تقديرنا فإن النظرة المتعمقة للأمور والواقع في بلادنا تقودنا إلى أن العديد من أمراضنا الاجتماعية وسماتنا وعاداتنا وتقاليدنا المعوقة للتقدم أساسها المبالغة؛ فكثير من هذه العادات والتقاليد والسمات لا يكون سلبيًّا لو أنه انحصر في حدوده المعقولة، بل لعله من المتطلبات المهمة في مجتمع عريق بقيمه وحضارته عميقة الجذور، ولكن المبالغة فيه تقلبه إلى الضد، وسوف نكتفي فيما يلي بإشارة عاجلة لطائفة من بعض هذه المبالغات:

أ – المبالغة في النسل: وهي الظاهرة المعروفة علميًّا باسم الانفجار السكاني في الدول النامية ، حيث تجتمع " قلة المال " مع كثرة عدد المواليد.

ب – المبالغة في الاستهلاك: والاستهلاك في حد ذاتة هو أمر طبيعي، ولكن المبالغة فيه هي إحدى معوقات التنمية الاقتصادية.

ج – المبالغة في الكرم : فالكرم فضيلة ، ولكن المبالغة، فيه تنقلب إلى إسراف وتبذير تنهى عنه كل الأديان والقيم.

د – المبالغة في المجاملات: سواء في الأفراح أو في الأحزان، وهذا

يضع التزامات وأعباء تثقل كاهل كل الأطراف بتكاليفها المادية الباهظة.

هـ - المبالغة في المظاهر: بشكل يطغى على الجوهر، بحيث يستنفد كثيرًا من الطاقات، ويلقى بأعباء كان من الممكن تفاديها.

و- المبالغة في الصداقة وفي العداوة: فإن كانت صداقة يرفع التكليف بشكل مبالغ فيه بحيث يؤدي إلى تعقيدات في العلاقات الاجتماعية حتى تنقلب الصداقة إلى عداوة، وإذا كانت عداوة يكون التطرف بحيث تضيع النظرة الموضوعية.

ز- المبالغة في إظهار التأييد: بما يصل كثيرًا إلى حد التعصب أو عدم الموضوعية في التأييد.

ح - المبالغة في احترام الكبير: وهي قد تكون مبالغة ظاهرية ناجمة عن الخوف، وتفتقد إلى الاحترام الحقيقي.

ط - المبالغة في التدين: وهو أمر قد يؤدي إلى الاهتمام بمظهر العبادة دون جوهرها، أو إلى التعصب الذي لا يقره الدين، أو إلى التواكل، وهو أمر يجافي منطق الدين نفسه الذي يأمرنا بأن نعقلها ونتوكل.

التحديات والتهديدات التي تواجه الشخصية المصرية وإسهامات القوات المسلحة في مواجهتها :

تواجه الشخصية المصرية مع بدايات القرن الحادي والعشرين الكثير من التحديات والتهديدات يتحتم عليها مواجهتها؛ من أجل حماية ذاتها

والحفاظ على قيمها الإيجابية وإيقاع حضارتها، فهي منبع المعرفة والحضارة العربية وما يتبعها من قومية عربية وسياسية واقتصادية تحمل إمكانات هائلة للتفوق العالمي .

ففي ظل العلم الحديث تطورت وسائل السيطرة على العقل الإنساني إلى أبعاد وأشكال أقوى وأعمق تأثيرًا على السلوك والشخصية، كما أتاح العلم أساليب جديدة تستطيع بها القوى المعادية وأصحاب المصالح الخاصة أن يتحكموا في حركة الإنسان وموجهات سلوكه وضميره، بل ومنطقه، وذلك من خلال إشعال الثورات والحروب لأسباب واهية، وعن طريق الاختراعات والتكنولوجيات التي تتسلل إلى أعماق الإنسان، وخلق زعامات، وبطولات خادعة يقتدي بها أفراد الشعب، ويلتف حولها بسطاء الجماهير، وباستخدام الثقافة والفن ووسائل الإعلام للتأثير على كافة مجالات الحياة والحركة في المجتمع المصري .

وجميع دول العالم تدرك تمامًا أن الإنسان المصري، الحضارى الميراث، المؤمن بالله، قادر على استيعاب العلوم والتكنولوجيا الحديثة إلى درجة التفوق والمنافسة لو أتيحت له فرصة حقيقية، وهو ما لم تقبله ولن تقبله القوى المعادية.

وعندما نستعرض هزيمة مصر في عام ١٩٦٧م نجد أن القوات المسلحة المصرية استطاعت بعد أيام قليلة من الهزيمة إعادة الثقة في أفرادها،

وتنفيذ العديد من العمليات العسكرية التي أعادت ثقة المصريين في أنفسهم وفي القوات المسلحة مرة أخرى في وقت قياسي.

ثم كانت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م بعد ست سنوات فقط من انتصار المؤامرة العالمية ضد مصر، ومحاولتها تخريب كل مقومات الشخصية المصرية، وكانت هذه الحرب بكل المقاييس مفاجأة للقوى المعادية، ودليلاً جديدًا مزعجًا على دخول مصر في مرحلة حضارية جديدة، مرحلة النضج الوطني والحضاري الذي مكنها من استيعاب أحدث ما وصلت إليه العلوم العسكرية الحديثة استيعابًا ذاتيًّا عميقًا، ومكنها من استخدام هذه العلوم بقدرة وذكاء اعتمادًا على الذات وعلى الإنسان المصري نفسه، وتحقيقًا للأمل المصري القديم الذي ضاع عبر السنين، وهو الأمل في الاستقلال الحقيقي، وفي تحقيق الطفرة الحضارية اللازمة للحاق بركب التقدم العلمي، وهنا أدركت القوى المعادية وحلفاؤها وعملاؤها في الداخل أن الهزيمة العسكرية المصرية لم تعد تكفي لاحتواء الشخصية المصرية أو تحطيم بعض مقوماتها، ولذلك كان التوجه نحو استخدام مختلف الأسلحة للتحكم في هذه الشخصية ومنعها من الانطلاق والتقدم، وهو السلاح الاقتصادي، بهدف تحويلها إلى تابع مطيع وأداة مستسلمة في يد ذوى المصالح الكبرى.

وإذا كانت الشخصية المصرية تعتبر شخصية فريدة فيما تملكه من درجة التجانس والوحدة للعناصر المكونة لهذه الشخصية، فإن أعداء مصر

يعلمون تمامًا أن تآلف هذه العناصر وتكاملها، فيما يسمى بالوحدة الوطنية وتحالف قوى الشعب في مصر لا بد أن يؤدى إلى تحطيم كل الأسوار والأغلال، فهم لا يسمحون بتعاظم القوة الوطنية المصرية من خلال الوحدة والتحالف بين فئات الشعب وقواه المختلفة حتى تتفكك عناصر هذه الشخصية وأكثر ما أقلق العالم تحالف الجيش مع الشعب مسلمين ومسيحيين في ثورتي ٢٥ من يناير ٢٠١١م و٣٠ من يونيو ٢٠١٣م.

إن الجميع يدركون أن مصر المتقدمة علميًّا وتكنولوجيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا تستطيع أن تقود شعوبًا كثيرة إلى القوة والاستقلال والاعتماد على الذات، مما يهدد مصالح القوى الكبرى، سواء المعلنة منها أو الخفية، فهم لذلك لا يمكن أن يسمحوا للشخصية المصرية أن تقف موقف القيادة في أفريقيا والعالم الإسلامي إلا في حدود ما تسمح به مصالحهم.

ولأن هذه القوى المعادية تدرك أنها لو تركت مصر تحذو حذو اليابان وكوريا وتايوان وتحول الزيادة السكانية والبشرية إلى إنتاج صناعي وزراعي متقدم؛ فسوف تصبح مصر قلعة إنتاجية صامدة أمام تسلل النفوذ الأجنبي على مر التاريخ، وأمام الذين عاشوا دهورًا طويلة على دماء مصر من خلال فخ الديون، والقروض، والتصدير، والاستنزاف في ما قبل الاستيراد الاستهلاكي، وما يترتب على ذلك من فقر وجوع وتبعية لها تأثيرها الكبير على خصائص الشخصية المصرية ونسق قيمها، ومن هنا كان تصميم

القوات المسلحة على الإسهام والإدارة للمشروعات القومية في كافة المجالات.

ولا شك أن هذه القوى المعادية من استقرائها لتاريخ الشخصية المصرية أدركت تمامًا أن قوة هذه الشخصية ليست في قوة حكامها، أو في قوة أغنيائها، أو في قوة علمائها، أو في قوة جيشها، وإنما قوتها في تجانس عناصرها وتكاملها عبر آلاف السنين؛ ولذلك سوف توضع في وجهها الكثير من العقبات حتى لا يسمح لها أن تجد ذاتها مرة أخرى، أو أن تستخدم إمكانياتها إلى أقصى طاقتها لأنها عندئذ سوف تصبح قوة لا يمكن قهرها وتسييرها أو السيطرة عليها أو خداعها، ويصبح كل مواطن صالح يمثل عقبة أمامهم، ولذلك فهم لا يتركون مواطنًا صالحًا إلا دمروه بالإشاعات والفتن والتعصب والتطرف، ومن هنا كان للقوات المسلحة دور رائد في مواجهة الإشاعات والفتن والتعصب والتطرف، فالكل في القوات المسلحة على حد سواء في الحقوق والواجبات والاحترام المتبادل من الجميع.

لقد انتهى أسلوب الاستعمار القديم بعد أن أصبح الاحتلال العسكري المباشر أسلوبًا غير مقبول وغير ناجح في تحقيق الأهداف والمصالح؛ لأن الاحتلال العسكري أصبح يقابل بالرفض والمقاومة، ويفجر طاقات وقوى الشخصية المصرية التي قد تكون خامدة، ولذلك تلجأ هذه القوى المعادية إلى عملاء محليين وقوميين تتستر وراءهم، وتعمل من خلالهم في الخفاء من أجل

تخريب الشخصية المصرية بعيدًا عن المواجهة المباشرة لها، وهنا تقف القوات المسلحة بكافة أجهزتها المخابراتية والرقابية لضبط العملاء والتعامل معهم داخل أو خارج الدولة؛ لحماية الوطن من هذه القلة الضالة.

- إن التخريب باعتباره أداة للعدوان غير المباشر تنظمه وتوجهه وتؤازره قوة خارجية تحاول أن تستغل العناصر الثائرة أو المتمردة في الداخل؛ لتحقيق مصالحها الذاتية، ويفترض أن التخريب يجد دعمًا عامًّا له من كل الدول على اختلاف اتجاهاتها ومذاهبها، وذلك لأنه يجنبها خطر المواجهات المسلحة فيما بينها، وهو لذلك يعتبر أكثر أدوات الضغط الخارجي المفضلة، إما لإقناع دولة من الدول لأن تكون تابعة لدولة أخرى، أو للتوقف عن معارضتها لها، ومن الملاحظ أن أدوات تخريب الدول متنوعة وكثيرة، ومنها الدعاية والتجسس واستعمال الضغوط الاقتصادية والسياسية، كما تشمل تدريب الجماعات المسلحة، وزيادة تسليحها وتمويلها، وهي تعمل إما من أراضي الدولة المعتدية، وإما من قواعد لها داخل إقليم الدولة الضحية المستهدفة بالتخريب، وهنا كان تصميم القوات المسلحة على القضاء على الإرهاب كما نشاهد في العملية الشاملة سيناء ٢٠١٨م، حيث يتم مطاردة فلول الإرهابيين والقضاء على البنية التحتية لهم، ومنع وصول الدعم إليهم، مع تنفيذ مشروعات التنمية في سيناء في الوقت نفسه.

- إن انتشار المخدرات ومختلف ألوان الانحرافات ليس وليد الصدفة

بل هو جزء من مخطط لتخريب العقل والجسد والروح في الإنسان المصري؛ لتتم السيطرة عليه وإلغاء دوره باعتباره إنسانًا في مواجهة محاولات السيطرة والتحكم في مصيره، ولعل انتقال هذه الأوبئة إلى مصر في السنوات الأخيرة يعد نتيجة حتمية لمحاولة إسقاط كل الحواجز والدفاعات التي أحاطت بالشخصية المصرية خلال عصور تاريخية طويلة، وأهم هذه الدفاعات هي العقيدة الدينية والتمسك بالقيم والتقاليد الأخلاقية، وهنا أيضًا يأتى دور القوات المسلحة في حماية الحدود المصرية البرية والبحرية؛ لمنع دخول أي مواد مخدرة أو مسرطنة إلى الوطن، مع البحث عن أماكن زراعة هذه المواد في المناطق النائية والقضاء على هذه الزراعات حماية للوطن والمواطن.

- تعرف العمليات النفسية بأنها: استخدام مخطط من جانب دولة، أو مجموعة من الدول، للطرق والوسائل والأساليب النفسية التي توجه أو تشن ضد الدول المعادية أو الحليفة والصديقة والمحايدة؛ للتأثير على آرائها وعواطفها ومواقفها وسلوكها بطريقة تساعد على تحقيق أهداف الدولة أو الدول المستخدمة، وهنا تتضح شمولية التعريف، حيث يحدد مفهومه الآتى:

١ - التخطيط لهذه العمليات النفسية يتم على مستوى أجهزة الدولة أو مجموعة الدول الحليفة أو الصديقة .

٢ - تقوم هذه العمليات النفسية على قاعدة سيكولوجية تستهدف السيطرة على أفكار واتجاهات وسلوكيات الأفراد والجماعات، من خلال

التأثير على دوافعها وانفعالاتها، وإشباع حاجاتها الأساسية.

٣ – تعدد طرق العمل النفسي ووسائله وأساليبه المستخدمة في التخطيط، وعدم اقتصارها على طريقة أو أسلوب واحد.

ومن هنا يأتى اهتمام القوات المسلحة بالروح المعنوية للضباط والجنود، لما لها من أثر فعال في بناء شخصية الفرد المقاتل.

– وتتلخص الطريقة التقليدية للقوى المعادية في تخريب الشخصية المصرية فيما يلي :

أ – إشاعة الفرقة بين فئات الشعب، وإشعال الحقد والصراع الطبقي بينها.

ب – أن تحل الأنانية والفردية محل الجماعية والتكامل والتضحية.

ج – جعل المتعة واللذة والترف هي مقياس النجاح والسعادة في المجتمع.

وإذا كانت القوى المعادية تضع الخطط لتحقيق هذه الأهداف في المجتمع المصري، فقد يشارك الأفراد والأجهزة والمؤسسات المختلفة – دون وعي منها – في معاونة هؤلاء العملاء في رفض الإنسان المصري للنظام الاجتماعي وواقع الوطن والمستقبل، وذلك عن طريق خلق مناخات ثقافية واجتماعية واقتصادية صادمة لقناعات أفراد الشعب، مما قد يؤدي إلى التغيير في مبادئهم وقيمهم الحاكمة لسلوكهم، وهنا يأتي دور القوات المسلحة في

التوعية، سواء داخل القوات المسلحة أو في القطاع المدني، وذلك من خلال وسائل الإعلام والندوات والمؤتمرات، وبرامج التدريب والتأهيل لكبار رجال الدولة ومن يرغب من جميع فئات الشعب في تنمية مهارات القيادة، أو التعرف بالعلوم الإستراتيجية والأمن القومي من خلال دورات متخصصة في ذلك.

- فالبيروقراطية مثلاً تلعب دورًا كبيرًا في تخريب التماسك الاجتماعي المصري؛ بتصديها للكثير من المصالح المصرية وإعاقتها وهدمها، رغم كل القيود التي تضعها الدولة للحد من الفساد، وبذلك تمكنت البيروقراطية من تعميق المشاكل والأزمات، مثل أزمة الإسكان والتعليم والعلاج، كما نجحت في تعميق السلبية والانعزالية في سلوك المتعلمين والمثقفين والعلماء، ومن هنا يأتي دور القوات المسلحة في ضرب المثل الأعلى في القضاء على البيروقراطية، وتحقيق العدل والمساواة بين أفراد القوات المسلحة ومن يرغبون في الالتحاق بها في كافة القطاعات بشفافية كاملة، ونأمل أن تحذو كافة وزارات الدولة وهيئاتها وأجهزتها حذو القوات المسلحة في هذا المجال.

- لم يحدث في تاريخ مصر مثلما يحدث هذه الأيام من محاولة إحداث تفكك في وحدة الشخصية المصرية؛ بمحاولة إدخال الفرقة بين المسلمين والمسيحيين، بل تجاوز ذلك الأمر إلى محاولة إدخال الفرقة بين المسلمين أنفسهم بواسطة القله المتطرفة المتعصبة المدسوسة على العقائد الدينية، والتي

تخدم في النهاية الأهداف التخريبية لخصوم بلدنا العزيز مصر، ومن ذلك ما شهدته البلاد مؤخرًا من أحداث إرهابية أثارت الذعر والفزع بين أبناء الشعب المصري.

وهكذا واجهت وتواجه الشخصية المصرية دينيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وإنسانيًّا تهديدات وتحديات مستمرة، هدفها فرض التخلف واستمراره، وتخريب هذه الشخصية ومقوماتها الأساسية، وتشويه إمكاناتها العقلية والوجدانية والروحية، وتحطيم قدراتها، من خلال تفكيك بنية المجتمع المصري الاقتصادية والاجتماعية؛ وبالتالى إحداث تفكك في بناء الشخصية المصرية، ومن هذا المنطلق كانت خطط الدولة لمكافحة التطرف والإرهاب بمشاركة جميع وزارات الدولة وهيئاتها ومؤسساتها المختلفة، ونستطيع أن نؤكد الآن على نجاح خطة الدولة لمكافحة الإرهاب بفضل تلاحم الشعب وتعاونه مع قواته المسلحة، وبالتعاون مع كافة أجهزة الدولة استطاعت مصر أن تقف في وجه الإرهاب على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، وسوف يسجل التاريخ ذلك للشخصية المصرية العظيمة التي تتحد وتتكامل في وقت الأزمات والشدائد.

ولما كانت حركة المجتمع ما هي إلا محصلة سلوك الأفراد والجماعات فإن ظهور بعض الخصائص السلبية لدى الشخصية المصرية – والتي تبتعد تمامًا عن طبيعة الشخصية المصرية الأصيلة، والمعايير والقيم التي كانت سائدة في المجتمع

المصري – لابد بالضرورة أن تعوق حركة المجتمع المصري، وتعطل قدرته على الانطلاق ومواجهة العصر ومعدلات تغيره المستمرة تكنولوجيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، وبذلك يمكننا أن نجد أنفسنا أمام متغيرات كثيرة تداخلت مع بعضها وتفاعلت من أجل تشويه الشخصية المصرية، وبالتالى فنحن في حاجة ماسة إلى صياغة إستراتيجية الحل ووضع الالتزامات القومية من خلال بناء مؤسسات تتولى تعبئة القدرات لدى الجماهير، والمساعدة في وضع أساليب حل الأزمات القائمة والمحتملة، بالإضافة إلى إدراك مصادر التهديد الحقيقي والعوامل المشكلة لخلق بؤر التوتر في المجتمع، مما يشكل الركيزة الأساسية للأمن القومي.

إسهامات القوات المسلحة في خطة الدولة في التنمية الشاملة :

تسهم القوات المسلحة في دفع عجلة التنمية الاقتصادية للدولة خلال الوقت الراهن، وتستغل ما لديها من طاقات في مختلف التخصصات والقطاعات، لخدمة مخططات التنمية التي تقودها الدولة المصرية في الوقت الراهن، في إطار خطة طموحة لبناء مستقبل أفضل للأجيال المقبلة، وتحقيق طفرة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي للمواطن المصري.

وقد حرصت القوات المسلحة على الاهتمام ببناء قاعدة صناعية وإنتاجية متطورة تلبي جزءًا من احتياجاتها الرئيسية، وتخفيف أعباء تدبيرها عن كاهل الدولة، مع معاونة القطاع المدني بطرح جزء من الطاقات الإنتاجية في السوق المحلي لتحقيق التوازن والاستقرار النسبي في الأسعار

ومنع الممارسات الاحتكارية، خاصة فيما يتعلق بالسلع الإستراتيجية المختلفة، وتنطلق القوات المسلحة المصرية في مسيرتها في مجال التنمية الزراعية والصناعية في عدة محاور: من أهمها التركيز على مشروعات البنية الأساسية، وإعطاء عناية خاصة لإقامة مشروعات تنموية بمحافظات شمال وجنوب سيناء، ومحافظات جنوب الوادى، والمناطق الحدودية؛ بما يساعد على تنمية هذه المحافظات وجذب الاستثمارات إليها، والمعاونة في خلق فرص عمل لشباب الخريجين بها.

نبذة عن بعض إنجازات القوات المسلحة المصرية :

شهدت مصر العديد من الأنشطة والفعاليات التي أكدت على قدرة القوات المسلحة وكفاءتها في حماية ركائز الأمن القومي المصري، والعمل وفق إستراتيجية شاملة لتطوير إمكاناتها وقدراتها في التدريب والتسليح والبناء للفرد المقاتل، وتطوير النظم المعيشية والإدارية على مستوى الأفرع الرئيسية والهيئات والإدارات التخصصية المختلفة، بما يمكنها من مواجهة المتغيرات والأحداث والتحديات التي تفرضها الظروف الراهنة، في ظل تنامى فكر متطرف وأفكار هدامة تتبناها بعض الجماعات المتطرفة، وتتخذها ذريعة للتدمير والإرهاب والتخريب، فضلاً عن المشاركة بجميع إمكاناتها وقدراتها في تنفيذ العديد من المشروعات التنموية والخدمية، لدعم خطط التنمية الشاملة في جميع ربوع مصر، فكانت القوات المسلحة دائمًا عند

حسن ظن الشعب المصري بها، وقد أسهمت القوات المسلحة المصرية بدورها الوطني في تخفيف العبء عن كاهل المواطنين، فضلاً عن تعزيز آفاق الشراكة والتعاون العسكري مع الدول الشقيقة والصديقة، على نحو يلبى متطلبات الأمن القومي المصري ودور مصر المؤثر في تحقيق الأمن والاستقرار في المنطقة والعالم.

١ - في مجال حماية الأمن القومي والقضاء على البؤر الإرهابية:

حققت القوات المسلحة إنجازات متتالية من خلال العملية الشاملة سيناء ٢٠١٨م في القضاء على الإرهاب بمناطق مكافحة النشاط الإرهابي بشمال ووسط سيناء، نتيجة لتطوير الإستراتيجية الأمنية خلال أعمال التمشيط والمداهمة للأوكار والبؤر الإرهابية، وضبط كميات من الأسلحة والذخائر مختلفة الأعيرة، وعشرات الأحزمة الناسفة والقنابل اليدوية وقذائف (آر . بى . جي)، بالإضافة إلى أجولة لنترات النشادر، والمئات من الشراك الخداعية ودوائر النسف والتفجير عن بعد، والعديد من أجهزة الاتصال اللاسلكي تستخدمها العناصر التكفيرية، وما زالت عناصر القوات المسلحة والشرطة المدنية مستمرة في القضاء على جذور التطرف والإرهاب في هذا الجزء العزيز من أرض مصر.

كما قامت عناصر حرس الحدود بالتعاون مع الأفرع الرئيسية والتشكيلات التعبوية بتأمين حدود الدولة على جميع الاتجاهات الإستراتيجية،

وتأمينها ضد مخاطر التسلل والتهريب.

٢- في مجال الاستعداد والتدريب القتالي وبناء الفرد المقاتل:

حرصت القوات المسلحة على المضي بخطى متسارعة لمواكبة التطور العالمي في نظم إعداد الفرد المقاتل، وتدريبه نظريًّا وعمليًّا باعتباره الركيزة الأساسية لقدرة القوات المسلحة وكفاءتها على تنفيذ مختلف المهام، من خلال ضخ دماء جديدة مسلحة بالعلم العسكري رفيع المستوى داخل الكليات والمعاهد العسكرية، فضلاً عن التأهيل العسكري رفيع المستوى للضباط المصريين والوافدين من الدول الشقيقة والصديقة في كلية القادة والأركان، وأكاديمية ناصر العسكرية العليا.

٣- في مجال تأمين الجبهة الداخلية:

عاونت القوات المسلحة الأجهزة الأمنية بوزارة الداخلية في تأمين الجبهة الداخلية وحماية المنشآت الحيوية، وتأمين الاحتفالات والمناسبات المختلفة، ودور العبادة، والأنشطة الرئيسية والأحداث الدولية المهمة التي شهدتها مصر، فضلاً عن جهود القوات المسلحة لدعم الأجهزة المعنية لإزالة التعديات على ممتلكات وأراضي الدولة، ومواجهة الحوادث الجسيمة، والتغلب على الآثار الناجمة عن موجة الأحوال الجوية السيئة والسيول، وتأمين نقل أسئلة وإجابات امتحانات الشهادات الثانوية العامة والدبلومات.

٤- في مجال تخفيف العبء عن كاهل المواطنين:

تنفيذًا لتوجيهات الرئيس / عبد الفتاح السيسي قامت القوات المسلحة بتوفير الاحتياجات الأساسية من السلع التموينية والمواد الغذائية بأسعار مخفضة، في المناطق الأكثر احتياجًا، بالتعاون مع وزارة التضامن الاجتماعي ووزارة التموين بمختلف قرى ومحافظات الجمهورية، للإسهام في تخفيف العبء عن كاهل المواطنين ومواجهة ارتفاع أسعار السلع والمنتجات الأساسية، فضلاً عن توزيع الآلاف من الحصص التموينية المجانية لأبناء القرى والتجمعات السكانية بمناطق مكافحة النشاط الإرهابي، بكل من العريش ورفح والشيخ زويد بشمال سيناء، وأيضًا الأماكن الأكثر احتياجًا في الدولة، ويقوم جهاز مشروعات الخدمة الوطنية وجهاز الخدمات العامة للقوات المسلحة بضخ كميات كبيرة من اللحوم والسلع الغذائية والسلع التموينية، التي يتم إنتاجها وتدبيرها بواسطة المزارع والشركات الوطنية التابعة للجهاز، لتوزيعها على المواطنين بأسعار مخفضة من خلال منافذ على مستوى الجمهورية، ومضاعفة كميات المعروضات من اللحوم والدواجن والسلع والبضائع والمنتجات التي تلبي احتياجات الأسر المصرية بأسعار تقل عن مثيلاتها بالسوق المحلي.

واستمرارًا للتواصل مع أبناء القبائل والعشائر بسيناء والمناطق الحدودية لتلبية مطالبهم والتخفيف من أعبائهم، قامت القوات المسلحة

المصرية بالتعاون مع مؤسسات المجتمع المدني بإنشاء عشرات المدارس والمعاهد الدينية بالمناطق الأكثر احتياجًا بوسط وجنوب سيناء، والمعاونة في تدريب الفتيات والأسر المعيلة على المهن والحرف اليدوية التي تساعد في توفير عائد مادي يضمن الحياة الكريمة لهم، كذلك إنشاء دور للضيافة لتكون بمثابة ملتقى لشيوخ وأبناء القبائل والعواقل، وتنمية القيم الثقافية والاجتماعية التي تميز المجتمع السيناوي، ومجابهة الفكر المتطرف، وترميم الكنائس التي أضيرت جراء العمليات الإرهابية، كذلك إنشاء عدد من المشروعات التنموية لخدمة أبناء محافظة مطروح، تشمل مدارس وعيادات صحية.

وتأكيدًا على التلاحم مع أبناء الشعب أخذت القوات المسلحة المصرية على عاتقها المشاركة في دعم البرنامج القومي لمكافحة الفيروسات، من خلال علاج شباب التجنيد والشباب المتقدمين للتطوع أو الالتحاق بالكليات والمعاهد العسكرية، ممن يكتشف إصابتهم بفيروس سي خلال مراحل الانتقاء والكشف الطبي، بحيث يتم الاكتشاف المبكر للمرض في مراحله الأولية، ما يسهم في سرعة الشفاء، ويقلل من تأثيره على الصحة العامة للشباب الذين يمثلون الركيزة الأساسية لبناء مصر المستقبل، حيث تم إنشاء ٧ مراكز تخصصية لعلاج فيروس سي على مستوى الجمهورية، كما شاركت القوات المسلحة المصرية في البرنامج الطموح لعلاج الشباب الذين

سـقطوا في إدمـان العقـاقير والمـواد المخـدرة، وذلـك بالتعـاون مـع وزارة التضامن الاجتماعي، انطلاقًا من دورها في دعم مقومات التنمية الاجتماعيـة والبشرـية، وذلـك بمراكـز عـلاج الإدمـان المخصصـة لـذلك في القـوات المسلحة، علاوة على التيسيرات والخدمات التجنيدية التي تقـدمها القـوات المسلحة للمواطنين سواء بالداخل أو الخارج، من خلال اللجـان التجنيديـة التي توجه للدول التي تضم جاليات مصـــرية بالخـارج، كـذلك الخـدمات المقدمة عـلى الموقـع الإلكـتروني لإدارة التجنيـد، وتخصـيص منفـذ لتقـديم الخدمات التجنيدية للمصـــريين في الخـارج، مـن أجـل تسـهيل وتســريع الإجراءات التجنيدية خلال زيارتهم للوطن، عبر منفذ مخصص لهـم بنظـام " الشباك الواحد" داخل إدارة التجنيد والتعبئة.

٥- في مجال التوعية التثقيفية ورعاية وتكريم المصابين وأسر الشهداء:

في إطار حرص القوات المسلحة الدائم على تنمية الوعي الثقافي والوطني، ومجابهة الحملات الإعلامية المعادية، تقدم إدارة الشئون المعنوية العديد من الأفلام والمواد الإعلامية والوثائقية، وتنظم الزيارات الميدانية لوسائل الإعلام الوطنية إلى وحدات وتشكيلات القوات المسلحة، ومراكز التدريب والكليات العسكرية، والمشروعات القومية العملاقة في جميع ربوع مصر، وكذلك مناطق مكافحة النشاط الإرهابي بشمال ووسط سيناء، مثل منطقة جبل الحلال؛ لنقل صورة حية لما يقدمة أبناء الشعب المصري من

بطولات وتضحيات للدفاع عن وطنهم، وبناء حاضره ومستقبله.

كما تقوم القوات المسلحة المصرية بعقد الندوات التثقيفية لنقل الخبرات وتبادل الرؤى حول جميع الموضوعات، على الساحتين الداخلية والخارجية، وتكريم أسر الشهداء والمصابين عرفانًا وتقديرًا بما قدموه من بطولات وتضحيات، كذلك تنظم بعثات الحج والتي ضمت العديد من ضباط وضباط الصف والمتقاعدين وأسرهم، وعدد من أسر الشهداء ومصابي العمليات الحربية، وذلك في إطار منظومة الرعاية الاجتماعية التي توفرها القوات المسلحة لأبنائها المقاتلين.

٦- إنجازات رياضية مبهرة لأبناء القوات المسلحة المصرية:

حقق لاعبو ولاعبات الأندية والمؤسسات الرياضية العسكرية بالقوات المسلحة العديد من الإنجازات التاريخية على المستويين الإقليمي والدولي.

٧- في المجال الطبي:

تعمل القوات المسلحة على توفير التأمين الطبي للعسكريين والمدنيين على أعلى مستوى، من خلال المستشفيات والمراكز العلمية للقوات المسلحة في المحافظات المختلفة، وتستقبل كافة المصابين في الأحداث الطارئة للعلاج سواء في الداخل أو الخارج، وفي مجال التعاون ونقل الخبرات الطبية نظمت القوات المسلحة خلال عام ٢٠١٧م العديد من المؤتمرات الطبية، حيث نظمت الأكاديمية الطبية عدة مؤتمرات طبية في مجالات أمراض القلب

والأورام والطب النفسي والأنف والأذن والحنجرة والمخ والأعصاب وغيرها من التخصصات الطبية، كما وقعت العديد من بروتوكولات التعاون، والتي تهدف لتبادل الخبرات بين المؤسسات الطبية داخل القوات المسلحة والمؤسسات الطبية المحلية والدولية ، وبما ينعكس على تقديم خدمة طبية متميزة للمواطن ، واستمرارًا للجهود المبذولة لتطوير المنظومة التعليمية وبناء الكوادر الطبية داخل كلية الطب بالقوات المسلحة بالتعاون مع كبرى المؤسسات والجامعات الطبية، كما وقعت كلية الطب بالقوات المسلحة وجامعة رأس الخيمة للعلوم الصحية بدولة الإمارات العربية المتحدة بروتوكول تعاون وشراكة في منظومة التعليم الطبي بين الجانبين .

دور القوات المسلحة في بناء الشخصية:

نشأ الإنسان المصري القديم على الطيبة والمودة وحب الخير، ومثَّل الدين في حياته قيمة كبيرة منذ القدم، حيث كان دائمًا متمسكًا بالدين، ومقيمًا لشعائره، ويخشى الحساب في الآخرة، وكان المصري ولا يزال قديمًا وحديثا شخصية متسامحة يقبل الآخرين ويتحاور معهم، ويبتعد عن كل ما يجرح مشاعر من يعايشه، بصرف النظر عن اختلافه معه دينيًّا أو عرقيًّا أو فكريًّا.

ويمتلك المصري شخصية منفتحة على ثقافات وحضارات العالم الأخرى، فلم يكن أبدًا شخصية متجمدة منغلقة على نفسها، بل كان متجددًا يرغب في التواصل مع الثقافات الأخرى والاستفادة منها، ومعرفة

كل ما هو جديد في جميع المجالات، ورغم ذلك ظل متمسكًا بهويته، ومعتزًّا بتراث وطنه، وتقوم القوات المسلحة بدورها في بناء شخصية أفراد القوات المسلحة، وفي طرق تكوين الصفات الإرادية الإيجابية والمهارات والقدرات الضرورية لهم، كذلك الاهتمام برفع روحهم المعنوية، وتنمية روح الولاء والانتماء وغرس حب الوطن من خلال الآتي:

أ - تنمية ثقافة القادة على كافة المستويات بطبيعة الأوضاع الراهنة والتحديات التي تواجه البلاد، وتأثيراتها على المجتمع بصفة عامة وعلى القوات المسلحة بصفة خاصة؛ ليكون لهم القدرة على التحاور مع المرؤوسين وإقناعهم بدورهم للوقوف أمام تلك التحديات وإعلاء المصالح العليا للبلاد فوق كل اعتبارات.

ب - تنمية ثقافة التعامل بين القادة والأفراد على أساس الحوار المتبادل؛ وذلك بتكثيف اللقاءات الدورية وشرح حقائق الأمور وعدم تزييفها، مع ضرورة إظهار الإمكانيات المتاحة للدولة، ومدى قدرة هذه الإمكانيات في تحقيق المطالب التي ينادى بها بعض فئات المجتمع .

ج - إحياء الوازع الديني لدى الأفراد ، والتأكيد على ضرورة التمتع بالصفات الحميدة.

د - ترسيخ مفهوم الولاء والانتماء لدى الضباط وأفراد القوات المسلحة.

هـ - تأكيد معنى ومفهوم القومية لدى الضباط والأفراد، والعمل

على تنمية روح الجماعة.

و – الاحترام المتبادل بين الأفراد والقادة على كافة المستويات.

ز – توعية الفرد المقاتل بدور الدولة في حياة كل مواطن، وأن الارتقاء بمستوى المواطن يأتي من خلال الارتقاء بالدولة.

ح – التوعية الصحيحة بترسيخ إستراتيجية قبول الرأي الآخر، سواء كان مؤيدًا أو معارضًا.

ط – ترسيخ المفهوم الخاص بتعامل مؤسسات الدولة مع بعضها البعض في إطار القانون، وليس طبقًا لرد الفعل البشري الذي يقود هذه المؤسسات إلى الانحراف عن تطبيق القانون، مما يؤدي إلى نتائج سلبية تنعكس آثارها على المجتمع بأسره.

ى – توضيح دور مصر الفعال على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، وموقعها من كافة القضايا التي تحيط بالمجتمع الدولي.

ك – إبراز أهمية التماسك والوحدة الوطنية، وأثرها في التغلب على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

ل – إبراز إنجازات القوات المسلحة التي تحققت في دفع عجلة التنمية الاقتصادية للدولة، وكيف تستغل ما لديها من طاقات في مختلف التخصصات والقطاعات، لخدمة مخططات التنمية التي تقودها الدولة المصرية ، في إطار خطة طموحة لبناء مستقبل أفضل للأجيال المقبلة،

وتحقيق طفرة على المستويين الاقتصادي والاجتماعي للمواطن المصري.

م – ترسيخ المعرفة لدى الأفراد بحجم الموارد المتوفرة والجوانب العديدة للإنفاق من مرتبات، وتسليح، وتدريب، وشئون إدارية ... إلخ، بشكل يتسم بالشفافية والمصداقية، مع عدم التعارض مع النواحي الأمنية؛ بما يحقق الوعي والتفهم الجيد لدى الفرد المقاتل ويؤثر على مطالبه ومدى معقوليتها، وذلك بالتوازي مع ضرورة رفع الروح المعنوية للفرد المقاتل بشكل دوري من خلال الإعلان عن برامج مستقبلية.

ن – الاهتمام بتلبية متطلبات الفرد حتى تنمي فيه روح التعاون مع الآخرين، وتجعله يتمتع بالشخصية المتفائلة مع والصبر والفهم والحماس والرغبة في العمل.

س – يجب إشعار الفرد بأهمية الدور الذي يقوم به مهما كانت محدوديته، وتنمية الإحساس لديه بأن نجاح المهمة بالكامل يتوقف على أدائه المشرف للمهمة المكلف بها.

ع – تكريم الأفراد المتميزين والمتمتعين بكفاءات نوعية، وقدرة على التميز، ويبذلون جهودًا كبيرة لإنجاز أعمالهم وتطوير قدراتهم وأدائهم؛ بما يؤدي إلى غرس روح التميز في نفوس كافة الكوادر العاملة، وتشجيع روح الإبداع والعطاء لديهم.

ف – المساهمة في تهيئة الفرد المقاتل لسوق العمل بعد انتهاء فترة تجنيده،

من خلال تدريب الفرد على الحرف المطلوبة من خلال مراكز التـدريب المهنـي؛ ليسهم في دفع عجلة التنمية، وليكون عضوًّا فعالاً في المجتمع.

رؤية مستقبلية لإعادة بناء الإنسان المصري:

يعد الاهتمام بإعادة بناء الإنسان مرادفًا لما يطلق عليه التنمية البشـرية، وذلك باعتبار أن الإنسان هو أحد العناصر المهمة في الإنتاج إن لم يكن أهمها جميعًا.

ويمكن النظر إلى الإنسان المصري من عدة زوايا: الزاوية الكمية وهي التي يدل عليها تعداد السكان في مصر في زمان معين، والزاوية الكيفية وهي التي تتصل بتصنيفات متعددة مثل عدد الـذكور والإنـاث ، أو كبـار السـن وصغارهم، أو سكان الحضر والريف... إلخ، والزاوية القيميـة وهـي التـي تعنينا بالدرجة الأولى في هذه الدراسة.

وعلى ذلك فإن إستراتيجية بناء الإنسان المصري تهتم أساسًا بـالتركيز على الناحية القيمية، في محاولـة للعمـل عـلى تغييرهـا وملاءمتهـا لمتطلبـات تحقيق التنمية الشاملة، بحيث يتهيأ للإنسان المصرـي القيـام بالـدور الكبـير المتوقع منه لتحقيق ذلك الهدف.

ولذلك فإننا اذا كنا نبحث عن الطريـق الأمثـل للاسـتفادة بمواردنـا البشرية لصالح الأهداف القومية، فإن ذلك الطريق هـو في عبـارة واحـدة : طريق إعادة بناء الإنسان المصري وتهيئة المنـاخ المناسـب لانطلاقـه، وذلـك

وحده هو الطريق للوصول بمصر إلى أهدافها القومية.

- وإذا كان الهدف هو إعادة البناء فيجب الإشارة إلى جانب مهم لا يحظى بالعناية الكافية في البناء الاجتماعي، وهو ما يتصل بالسلوك والقيم والعادات والتقاليد، فقد اعتاد العلماء عند الحديث عن التغيير في البناء الاجتماعي التركيز على إعادة توزيع الثروة، وإزالة الفوارق بين الطبقات، وتكافؤ الفرص في العمل، وحقوق العمال ... إلخ، ومع التسليم الكامل بأهمية ذلك في البناء الاجتماعي، وخاصة في بلادنا حيث عانت مصر لفترات طويلة من اختلال هيكل ذلك البناء، إلا أن إغفال الجانب المعنوي يؤدي إلى خلل في التوازن الحيوي اللازم للتنمية البشرية.

ومن الظواهر الاجتماعية التي يجب التصدي لها ظاهرة عدم الانضباط، وذلك بتحديد أسلوب علاجي يتمثل في تعديل القانون بما يتماشى مع مقتضيات الظروف الموضوعية الجديدة للواقع مما يجعل تطبيقه ممكنًا، بالإضافة إلى تطبيق القانون بواسطة القائمين على تنفيذه بشكل يتماشى مع الواقع، مع مراعاة تقديم الثواب والعقاب، والتأكيد في عمليات التنشئة الاجتماعية على أهمية اتباع مثل هذه النظم والقواعد.

- ننتقل بعد ذلك إلى بعد آخر من الأبعاد الأساسية التي يقتضيها البحث عن الطريق الأمثل لإعادة بناء الإنسان المصري، وهو البعد الثقافي، فهناك من يرى بحق أن التنمية البشرية الصحيحة تقتضي ثورة تعليمية وثقافية

وتربوية، تتيح لنا أن نلحق بعصر الثورة العلمية والتكنولوجية والإبداعية التي يعيشها العالم المتقدم اليوم، ولهذا فإن هذا العقل الجديد هو الذي تنشده مصر في نضالها للتحرر من التخلف واللحاق بركب العالم المتقدم.

بالإضافة إلى ذلك فإننا لن نكون متقدمين إلا بقدر ما نكون مبدعين، ولن تتوقف التنمية على ما نستطيع أن نوفره من موارد إنسانية ومالية وطبيعية بقدر ما ستتوقف على قدرتنا على أن ننظم هذه الموارد تنظيمًا علميًّا، وعلى أن نعبئها تعبئة إبداعية، وما دامت التنشئة هي محور هذه التعبئة فلابد أن تكون تنشئة إبداعية لتتفق مع أحدث مستلزمات عملية التنمية.

إن المجال الثقافي العام يأخذ مكانًا يسعى إلى الاستخدام الأمثل للموارد البشرية في بلادنا، ويتجه إلى بناء الإنسان المصري، ولإنجاز هذه المهمة الشاقة والبعيدة المدى والآثار فإن علينا أن نتعمق في حقائق المشاكل التي يواجهها الإنسان المصري؛ ذلك لأن النظرة السطحية للأمور قد تؤدي إلى الخلط بين الحضارة بأبعادها وأصولها وبين المدنية بمظاهرها الخارجية.

ولذلك فعلينا السعي للحصول على التكنولوجيا الغربية الحديثة والمتقدمة، وعدم الاكتفاء بنتائجها وثمارها، بالإضافة إلى بعث التراث الحضاري المصري الأصيل والوصول إلى جوهره، لكى نصل إلى التوازن اللازم لتقدمنا، فالتقدم الحضاري وإعادة البناء ليس شكلاً ولا أدوات يستعيرها الناس فتحدث المعجزة، وإنما هو روح تكمن وراء كل هذا

الانجاز المادي والفكري، فإذا تطورت الروح أو تغيرت تغير العالم من حولها، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وتغيير النفس بهذه الطريقة الكلية (الجذرية) هو الذي يحدث التقدم الحقيقي الذي يتكامل فيه الباطن مع الظاهر، وغاية هذا التغيير أن يتطابق القول والعمل، وأن يتحول الإيمان من القلب إلى إنجاز من واقع الحياة، وهذا يعني أن يعيش الناس القيم وأن يقوموا بتطبيقها بدلاً من التجادل حولها.

- ومما لا شك فيه أن المجال التعليمي له علاقة وثيقة بالاستخدام الأمثل للموارد البشرية وإعادة بناء الإنسان المصري، لذلك يجب الاهتمام بأهداف التعليم وضرورة تضمنها لضرورات الحياه المصرية ورياضة العقل الذهنية والروحية وتنمية القدرات الإبداعية، كما يجب الاهتمام بالتطوير الشامل والثورة التعليمية، واختيار المناهج المناسبة في مراحل التعليم المختلفة على أسس نفسيه صحيحة، ومن حيث أسلوب التعليم يجب التخلص من الأسلوب التقليدي القائم على الحفظ وحشو أذهان التلاميذ بالمعلومات التي ترهق عقولهم.

ولا يمكننا أن نترك الحديث في مجال التعليم بغير التعرض للمشكلة التي تهمنا في بلادنا بالدرجة الأولى وهي الأمية؛ لما تتركه من آثار سلبية على القدرة الإنتاجية للعاملين، وكافة الشئون ذات الطابع العام التي تتصل بالتنمية، لذلك فهي قضية قومية عاجلة يجب أن توضع لها بواسطة

المتخصصين خطة طموحة فعالة، تضع في الاعتبار النمو السكاني المطرد، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البيئات التي تتم فيها مكافحة الأمية، وضرورة تبني كبار المسئولين في الدولة لقضية محو الأمية والتوعية الشاملة للجهاز الذي سيقع عليه عبء العمل في هذا المضمار، بالإضافة إلى تجنيد الشباب لهذا العمل الإنساني، ووضع المكافآت والمسابقات والحوافز الكبيرة لهم تبعًا للنتائج المتحققة.

- ومن المجالات المهمة أيضًا والمتضمنة في البعد الثقافي المجال التربوي، فقد يختلف الأسلوب وقد تختلف الجهة المسئولة عن التربية، ولكن الذي لا شك فيه هو أن التربية ينبغى أن تلقى عناية خاصة إذا كان لنا أن نبني الإنسان المصري الجديد.

ونستعرض فيما يلي أهم أنواع التربية التي ينبغي أن نوجه إليها العناية، ونبدأ بالحديث عن التربية الدينية، تلك التربية التي تصل إلى صميم الحياة التي نعيشها ولا تقتصر على المجالات في أمور سطحية، ومن هنا نؤكد على أهمية إحياء القيم الاجتماعية والدينية، والتي تتناول بالإضافة إلى جانب العبادات صميم أسلوب الحياة العملية والعلاقات الإنسانية، بشكل لو أحسن فهمه وتطبيقه لكان أفضل أساس في بناء الأمم وأفضل نموذج للتقدم.

- لقد تعرضنا في بحثنا هذا للسلبيات، ولو أن التربية الدينية وجهت النشء في مصر نحو القضاء على السلبيات التي تعوق التقدم في مصر،

ونحو التمسك بالقيم الإيجابية الكفيلة ببناء التقدم على أرضنا لكان ذلك في حد ذاته نجاحًا كبيرًا، فديننا ينبذ المبالغات ويدعو إلى الوسطية والاعتدال، ولعل ذلك هو نفسه أحد متطلبات الحياة المصرية، ويدعو إلى التفكير العلمى الموضوعى الذي يتعارض مع المبالغة أو التطرف أو التعصب؛ لذلك فإن التمسك بالتربية الدينية هو أساس بناء الإنسان الأصيل.

وعلى الرغم من أهمية التربية الدينية في بناء الإنسان المصري إلا أن هناك مجالات أخرى من التربية لا يمكن تجاهلها في هذا الصدد، ويمكن تصنيفها على النحو التالى:

أ - التربية الصحية، ويقصد بها توجيه النشء للاهتمام بصحته عن طريق الاهتمام بالنظافة الشخصية، ونظافة البيئة.

ب- التربية الرياضية التي تهدف إلى إتاحة فرص ممارسة الرياضة للجميع.

ج- التربية الفنية، والتي تساعد على الربط بين الفن ومجالات الحياة العملية.

د- التربية الفكرية والعلمية، ومفهومها أن يربي النشء على الأسلوب العلمي الموضوعي في التفكير، والاستعداد لتقبل رأي الآخر.

هـ - التربية الثقافية، وتشجيع النشء على تحصيل المعرفة والتزود بها من مصادرها المختلفة.

و- التربية الوطنية التي تعمل على غرس حب الوطن في النشء.

ز- التربية العسكرية التي تغرس في أبنائنا القيم الإيجابية كالتعاون

والتضحية والانضباط والنظام.

ح- التربية السياسية بما تهدف إليه من تعويد النشء ، على أسلوب الحوار والمناقشات كأسلوب للوصول للقرار.

ط- التربية الاقتصادية ، ومفادها غرس بعض المفاهيم الاقتصادية في نفوس النشء ، مثل: قيمة العمل ، والحد من الاستهلاك ، والتخطيط، وطرق الإدارة.

ى- التربية المهنية، وتتمثل في تغيير الاتجاهات نحو العمل اليدوي وتنمية الوعي الإداري.

- ويكاد يكون من الصعب التطرق لموضوع الطريق الأمثل للاستفادة بمواردنا البشرية بغير التوقف عند الجانب الإداري للموضوع، والذي يؤدي تدهوره إلى عدم الاستفادة المثلي بالطاقات البشرية ، وعلى العكس من ذلك فإن الإدارة الجيدة يمكنها بأقل الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة أن تحقق نسبيًّا أفضل النتائج بالاعتماد على مثل تلك الإمكانيات المتاحة.

وبالنظر إلى الجهاز الإداري في كثير من الدول النامية ومن بينها مصر، لتحليل أسباب ما قد يوجد من سلبيات أجهزة الإدارة الحكومية والقطاع العام؛ وجد أنها تتمثل في مجموعة من الأسباب التنظيمية والقانونية، والتعقيدات الروتينية، هذا بالإضافة لمجموعة من الأسباب الاقتصادية والبيئية.

- ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن البعد الاقتصادي، والذي يقودنا إلى موضوعات ينبغي التطرق إليها لتأثيرها على التنمية البشرية وإعادة بناء الإنسان المصري، كالانفجار السكاني وهجرة القوى البشرية.

أ - فمشكلة الانفجار السكاني ترتبط بغير شك بعملية بناء الإنسان المصري؛ حيث تؤثر سلبيًّا على إمكانيات مواجهة متطلبات ذلك البناء بأبعاده المختلفة، فضلاً عن تأثيرها السلبي على نسبة ارتفاع الدخل القومي، بالإضافة إلى تفاقم مشكلات الإسكان والخدمات والتعليم والغذاء والمواصلات.

ب - وفيما يتعلق بهجرة القوى العاملة نجد أن لها آثارًا إيجابية تتمثل في إضافة أبعاد جديدة للشخصية المصرية، وآثارًا سلبية نتيجة فقد مصر لأكفأ العناصر وبالتالي عدم الاستفادة بها.

وما يهمنا التركيز عليه هنا هو الحاجة إلى إعداد خطة جادة ومتكاملة تهدف إلى حسن إعداد المصري المسافر للعمل بالخارج، وبذل الجهود الكافية لتعميق صلات المواطنين في الخارج بمصر، وجذب مدخرات المصريين في الخارج من خلال فتح المجالات أمامهم لتحويل مدخراتهم بشروط مجزية، وتقديم المشروعات الصغيرة المدروسة.

- أما عن البعد السياسى فيعد في تقديرنا أهم الأبعاد جميعًا إذا كنا

بصدد البحث في إستراتيجية بناء الإنسان المصري، فمما لا شك فيه أن الحياه السياسية الصحيحة والرشيدة في أى بلد تعتبر هي القطـاع القائـد والمثـرى لكل الإنتاج الحضاري في ذلك البلد، من حيـث الثقافـة والتعلـيم، ونزاهـة الإدارة وكفاءتها، وسلامة المجتمـع وحيويـة النشـاط الاقتصـادي، وبقـدر ازدهــار الحيــاة السياســية بقــدر مــا يكــون الازدهــار الحضــاري في كافــة القطاعات.

* * *

دور القاضي الإداري
في بناء الشخصية المصرية *

إن تصاعد الإرهاب في أنحاء العالم يهدد أمن الشعوب واستقرارها، ويرجع ذلك إلى التنظيمات المتطرفة التي تجند الشباب في طريقها المنحرف انسلاخًا من هويتها الإسلامية المستنيرة، وبعيدًا عن جذورها العربية ذات الشهامة والمروءة، وهو ما يقتضي تقديم معالجة فكرية لإشكالية التطرف، تُصَّحح فيها المفاهيم الخاطئة عن تعاليم الإسلام السمحاء، حتى يظهر افتراء المتطرفين وإضلالهم في تعمد توظيف الأيديولوجيا والخطاب الديني في تنفيذ خططهم وعملياتهم ضد الإنسانية، ونشر فكرهم المتطرف، فتصحيح تلك المفاهيم ضرورة قصوى ليعلم الغرب، ويفهم حقيقة الإسلام بوصفه دينًا يقوم على التجدد ويدفع للتقدم وتنمية البشر.

لقد بات تحديث الفكر الديني من أهم أدوات العصر؛ لأنه قد تم تأويل النصوص من المتطرفين جهلاً وإضلالاً، وتوظيف الجماعات المتشددة للدين ظلمًا وعدوانًا، وتقديمه للمجتمع العالمي بصورة مخالفة عن روح الإسلام السمحاء، فضلاً عن استغلال الدين في السياسة، فأصبح خطابهم الذي يتبنونه هو القتل والعنف والتطرف والإرهاب، ودونما تمييز بين المسلم

---

* كتب هذا البحث: المستشار الدكتور / محمد عبد الوهاب خفاجي نائب رئيس مجلس الدولة المصري، وعضو المحكمة الإدارية العليا ـ والرئيس السابق لمحكمة القضاء الإداري بالإسكندرية ـ الدائرة الأولى بحيرة – مصر.

وغير المسلم، سعيًا وراء فكرة دولة الخلافة التي تجاوزتها مفاهيم العصر ومقومات العقل وأدوات التاريخ، فبين الدولة الدينية ودولة المواطنة مساحات شاسعة من إشكاليات الهوية وإنتاج التطرف، مما خلق تشويشًا في بناء الهوية لدى عدد غير قليل من الفئات الشابة في الوطن العربي.

إن السبب الجوهري في تفرق المسلمين، وانتشار القطيعة، ومنح الفرصة للتطرف والعنف، إنما يرجع إلى سوء فهم النصوص، والجهل بمقاصد الشريعة السمحاء، ونرى أن وزارة الأوقاف وهي من أقدم الدواوين في تاريخ مصر، بما لها من تقاليد راسخة ومتوارثة، حيث تولى مسئوليتها عظماء على مدار التاريخ، من أصحاب الفكر الوسطي المستنير، الذين حملوا على أعناقهم حماية الدعوة الإسلامية الصحيحة، بالتعاون مع الأزهر الشريف بجلاله وقدره وعظمة أدائه، في مجال رسالته العالمية للتبصير بشئون الدعوة.

ولا ريب أن روح التسامح التي يشعها الإسلام تقتضى الاحترام والإجلال والتحاور مع أصحاب الشرائع السماوية، فرسالة الإسلام للعالمين تتمثل في الرحمة التي تحمي ولا تهدد، وتصون ولا تبدد ؛ لذا يأتي المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الذي تنظمه وزارة الأوقاف برئاسة وزيرها الكفء، الدكتور/ محمد مختار جمعة، بعنوان: " بناء الشخصية الوطنية وأثره في تقدم الدول والحفاظ على

هويتها" تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية / عبد الفتاح السيسي، بوصفه عملاً جادًّا متميزًا، في سبيل بناء الشخصية الوطنية بمفاهيم عصرية وحماية الأوطان، وشهادة للتاريخ وبعين الباحث المتجرد، فقد قاد العالم الجليل الدكتور/ محمد مختار جمعة منظومة الدعوة المنيرة المستنيرة، باقتدار وانطلاق لمؤسسة عريقة لها في نفوس الكافة عظيم الأثر، وينتشر دورها في أرجاء العالم الإسلامي، فالدعوة الإسلامية نهر العطاء الإنساني الأول الذي يجدد مياهه ولا يغير مساره، فكان ينبوع فكره مستهدفًا صحيح الدعوة، شاهدًا على احترامه للدستور والقانون، ساهرًا على تحقيق رسالته ومسئولياته.

وقد تعرض لقواعد بناء الشخصية المصرية – بصفة عامة– بالدراسة كثير من الباحثين والمفكرين من زوايا شتى، على رأسهم المفكر الكبير الدكتور/ ميلاد حنا، في مؤلفه" الأعمدة السبعة للشخصية المصرية "، والفذ الدكتور/ جمال حمدان، أحد أهم أعلام الجغرافيا في مصر، في كتابه " شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان"، فمن المهم أن يعرف العالم حقيقة المجتمع المصري وثقافته التي مكنته العيش على مدار عصور طويلة في نسيج وطني واحد، مهما اختلفت الظروف والأحوال، ومهما واجهته صعاب المحن والفتن، ولكني أتعرض لموضوع قواعد بناء الشخصية المصرية من زاوية جديدة ، آمل أن تتميز بالعمق والجهد والتفرد، وتدور حول فلسفة وفكر القاضي الإداري تجاه قواعد بناء الشخصية المصرية

وإعدادها، ومن ثم دور سلطة القضاء ومساهمته في هذا البناء الراسخ وحمايته من أى تهديد له، أو عدوان عليه.

وبعيدًا عن الادعاء أنني قد وفيت البحث حقه في كل دقائقه وتفصيلاته، فليس في مقدور باحث أن يبلغ الكمال، في هذا المجال، وحسبي أن أبلغ من رضاء الضمير العلمي والضمير الوطني، لخدمة بلادي مصر، ما أبتغى من رضاها ومنتهاها، إنه أثمن وأسمى ما في الوجود.

إسهام القاضي الإداري في تجديد أساليب الخطاب الديني:

إن القاضي الإداري لم يكن بمعزل عما تتعرض له مصر بل والعالم أجمع من دعاة الإرهاب والتشدد وقتلة الإنسانية ، وقد أسهم القاضي الإداري في تجديد أساليب الخطاب الديني باعتبار ذلك أساسًا لبناء الشخصية المصرية وحمايتها من دعاوى التطرف والعنف ، وذلك في قضية عُرضت على محكمة القضاء الإداري بالإسكندرية الدائرة الأولى بالبحيرة برئاستنا في الدعوى رقم ٤٠١٩ لسنة ١٥ ق بجلسة ٢٧ أبريل ٢٠١٥م .

وقد كان القاضي الإداري واعيًا في إبراز التعاون والتكامل بين مؤسسة الأزهر الشريف باعتبارها هيئة مستقلة وبين وزارة الأوقاف، في مجال نشر الدعوة الإسلامية على وجهها الصحيح، وأجاب القاضي الإداري عن تساؤل مهم للغاية عن سبب اقتصار الدستور على ذكر مؤسسة الأزهر بشأن أنها المرجع الأساسي في العلوم الدينية والشئون الإسلامية، وتولي

مسئولية الدعوة ونشر علوم الدين واللغة العربية في مصر والعالم دون وزارة الأوقاف، وهل ينصرف ذلك النص إلى حرمان تلك الوزارة من أن تشارك الأزهر في نشر مفاهيم الدين الصحيح، أم أن ذلك من صحيح وصميم عملها ؟ وهل يختلف الأمر بالنسبة للبلاد العربية الشقيقة ؟

إن المشرع الدستوري – طبقًا للمادة ٧ من الدستور المصري - جعل من الأزهر الشريف المرجع الأساسي في العلوم الدينية والشئون الإسلامية، وقصر ولاية مسئولية الدعوة ونشر علوم الدين واللغة العربية في مصر والعالم على الأزهر الشريف، مما يؤكد عالمية رسالة الأزهر، وكون الأزهر هيئة إسلامية علمية، تعني أنه لا قداسة في الإسلام، ولا عصمة لأحد إلا للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) فيما يبلغ به عن ربه، والحق أنه ليس على الأزهر الشريف وحده يقع عبء نشر الدعوة الإسلامية، بل تشاطره في ذلك بدور جوهري وفعال وزارة الأوقاف، وإن لم ينص على ذلك الدستور المصري، بخلاف الدساتير العربية، التي أناطت بمهمة نشر الدعوة لوزارة الأوقاف وحدها بتلك البلاد، وذلك نظرًا لعدم وجود الأزهر الشريف بتلك الدول، والذي تنفرد به مصر دون العالم.

وليس معنى ذلك خلو الدستور من بيان عمل وزارة الأوقاف، فقد تناول المشرع الدستوري ذاته التزام الدولة بتشجيع نظام الوقف الخيري لإقامة ورعاية المؤسسات العلمية، والثقافية، والصحية، والاجتماعية،

وغيرها ، وتضمن استقلاله، وهي التي تقوم عليها وزارة الأوقاف.

وليس أدل على سلامة نظر القاضي الإداري بشأن اشتراك الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف في نشر النشاط الدعوي للإسلام المستنير، دون أن يستأثر به أحدهما دون الآخر، أن المشرع أناط بإصدار التصريح بممارسة الخطابة بقرار من شيخ الأزهر أو وزير الأوقاف، حسب الأحوال، بما يعني أن دورهما يتكاملان ولا يتنافران، بل أناط بوزير الأوقاف، بقرار منه، الترخيص بممارسة الخطابة لغير المعينين المتخصصين بوزارة الأوقاف والوعاظ بالأزهر الشريف المصرح لهم بممارسة الخطابة، وفقًا للضوابط والشروط التي يصدر بها قرار من وزير الأوقاف ذاته، أو من يفوضه في ذلك، فكان ذلك دليلاً على أن نشر الدعوة الإسلامية المستنيرة قاسمًا مشتركًا بين الأزهر ووزارة الأوقاف.

ومؤدى ذلك ولازمه أنه إذا كان الأزهر الشريف هو الهيئة الإسلامية العلمية التي تعمل على إعداد جيل جديد، في الدراسة والبحث والتحصيل، للحصول على الشهادات الأزهرية من كليات جامعة الأزهر المختلفة، فإن وزارة الأوقاف هي المؤسسة العملية الدعوية التربوية، التي تعمل على إعداد الدعاة بعد تخرجهم، من تحصيل الدراسة إلى واقع الحياة العملية، وتأصيل الخبرة اللازمة لديهم، بحيث أضحى الأزهر والأوقاف جناحي الرحى في نشر أصول الدين الوسطي الصحيح.

ونظرًا لخطورة تأثير من هو غير أهل لممارسة الخطابة في نفوس البسطاء، فقد أجاز قرار وزير الأوقاف رقم ٢٤١ لسنة ٢٠١٤م بتاريخ ١٣ من سبتمبر٢٠١٤م، الذي نشر في الوقائع المصرية العدد ٤٣ في ٢٣ من فبراير سنة ٢٠١٥م - بما تضمنه من قواعد عامة مجردة - لوزير الأوقاف سحب تصريح الخطابة إذا تحققت إحدى ثلاث حالات: أولها: حالة قيام المصرح له بالإخلال بمقتضيات العمل المسند إليه، وثانيها: حالة مخالفة المصرح له تعليمات الوزارة المنظمة لخطبة الجمعة وأداء الدروس الدينية بالمساجد، أو ما في حكمها، من حيث تحديد موضوعها أو تحديد نطاق زمنها، وثالثها: حالة مخالفة المصرح له لأى من أحكام القانون الصادر في هذا الشأن.

إن القاضي الإداري يرى أنه بات من الأصول العامة الخالدة ما بقيت الحياة قائمة، وأن طبيعة الشريعة الإسلامية تقتضى أن يظل باب الاجتهاد فيها مفتوحًا لا يوصد بحسبان أنها الشريعة الخاتمة لجميع البشر، وهو ما يتصل بتجديد الخطاب الديني، وبمراعاة أنها صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، وفي أى مجتمع؛ لكونها المنظمة لعلاقات الناس ومعاملاتهم في شتى مناحى الحياة، وعلاقتهم جميعًا بالخالق سبحانه وتعالى، لذلك فكان لزامًا أن تحمل خاصية بيان الأحكام الشرعية لكافة مستجدات الحياة في جميع جوانبها، وهكذا تظل حاجة أتباعها إلى الاجتهاد قائمة باستمرار؛ لتساير مستجدات العصر، فيصبح الخطاب الديني متجددًا يافعًا معبرًا عن كل بيئة مهما اختلفت الأوطان.

والقاضي الإداري يرى أن الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف لهما دور عظيم في العمل عن طريق الأجهزة العلمية المتخصصة، ومنها مجمع البحوث الإسلامية على تجديد الثقافة الإسلامية، وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب الديني الذي ينتج عنه الإنحراف في الفكر المذهبي والسياسي، وإبراز تجليات جوهر الدين الأصيل الخالص، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفي كل بيئة، وبيان الرأى فيما يجدّ من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كل ذلك عن طريق العلماء والمفكرين المتخصصين باتباع المنهج العلمي في التنقيب والبحث والاختيار والتصدي للدراسات الزائفة، ودعاة الفكر المنحرف، وتفسيراته الخاطئة ضد الدين، والرد على الافتراءات والشبهات والأباطيل، وتوضيح الحقائق.

وذهب القاضي الإداري إلى أن أساليب تجديد الخطاب الديني وآلياته التي يتعين انتهاجها في العصر الحديث لمواجهة ظاهرة الإرهاب يجب أن تجمع ولا تفرق، تبشر ولا تنفر، تصلح ولا تفسد، تيسر ولا تعسر، تصون ولا تبدد، وأن يأتي على القمة من أولوياتها تسع نقاط تالية، تحتاج إلى معالجتها من العلماء المتخصصين بالأزهر الشريف ووزراة الأوقاف، على النحو التالى:

أولاً: يجب أن يعتمد تجديد الخطاب الديني على فكرة أن الإسلام

يدعو إلى السلام في الأرض ، فالإسلام دين خير وسلام ، وليس دين عنف أو عدوان، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[2]، كما أن الدعوة الى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس باستخدام العنف، قال الله تعالى:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3] كما يجب أن يشتمل خطاب التجديد ما يدعو إلى الوحدة وليس إلى التفرق، فالسلام حق لجميع البشرية أيًّا كانت دياناتهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4]، فالإسلام يدعو إلى السلام الذي يؤخذ ضمن أطر العدل والمساواة والحرية لجميع المنتمين للشرائع السماوية، وليس للمسلمين فحسب.

ثانيًا: إن تجديد الخطاب الديني يقتضي إعادة فهم النصوص على ضوء واقع الحياة، وما تستحدثه البيئة المعاصرة، بحيث تتناسب مع روح التطور،

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) البقرة: ١٩٠.

(٣) النحل: ١٢٥.

(٤) يونس: ٢٥.

وهي سنة الحياة، فلا تظل قابعة في البيئة التي صدرت بها منذ ١٤٤٠ عامًا، مع عدم المساس بثوابت الدين نفسه، من نصوص قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، فيجب أن يكون أسلوب التجديد في الفروع فحسب؛ ليكون مواكبًا للأحداث الجارية ومتأثرًا بها، محددًا ما هو حق منها، وهذا ما فعله الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ حينما أوقف حد السرقة في عام المجاعة، بل إن الأئمة الأربعة، خاصة الإمام الشافعي، انتهجوا نهج تجديد الخطاب الديني ذاته وفقًا للنوازل الجديدة، فقد كانوا يفتون في كل بلد حسب العرف السائد في كل منها ، في إطار المبادئ العامة للشريعة الغراء، وهو ما يعرف " بفقه الواقع "، مما يدل على مرونة الشريعة الإسلامية ذاتها، وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

ثالثًا: يجب أن يكون على القمة في عناصر تجديد الخطاب الديني معالجة مفهوم " الوطن"، في ضوء تحديد حقيقة مفهوم ما يسمى " الفكر السياسى الإسلامي"، ألا وهما المعضلة الشائكة والمسألة المشكلة، للمخاطر التي تواجه الأمة.

رابعًا: إن تجديد الخطاب الديني يجب ألا يكون محصورًا داخل الأمة الإسلامية فحسب - ومصر قلب العالم الإسلامي - بل يتعين أن يتعدى حدود أقطارها إلى خارجها، وذلك هو الأهم، فتجديد ذلك الخطاب يقتضي أن يشتمل على عدة لغات وهو ما يتفق مع رسالة الإسلام العالمية،

ذلك أن الأصل الصحيح للخطاب الديني الإسلامي أن يكون عالميًّا موجهًا للناس كافة، وليس للمسلمين فحسب، إعمالاً لقوله سبحانه وتعالى عن رسوله الكريم حيث بعثه بالرسالة ، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]. وهو ما يقتضي إعداد جيل من الدعاة يتقن اللغات الاجنبية، وصولا لنشر الصورة الصحيحة للإسلام في أنحاء العالم.

خامسًا: يجب أن يعتمد تجديد الخطاب الديني على الاعتدال، ووسطية المنهج، دون إفراط أو تفريط ، إعمالا لقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾[2].

سادسًا: يجب أن يتناول خطاب التجديد الديني طريق الوصول عبر تكنولوجيا العصر، وأن يقيم وزنًا في أدواته لشبكة المعلومات الدولية " الانترنت" التي اضحت لغة العصر، لتوجيه كافة المجتمعات البشرية الى الحق والعدل والسلام، وبدون لغة العصر المشار إليها سيضيع جهد المخلصين والمجتهدين، إذ تواجه تربية النشء صعوبات جمة في عصر العولمة، وتضاءل دور الأسرة في اصلاح الأبناء، نتيجة التأثير السحري

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) البقرة: ١٤٣.

لوسائل الاتصال المتطورة، والكون الفضائي المفتوح.

سابعًا: يقتضي تجديد الخطاب الديني مواجهة الفكر بالفكر ، خاصة الشباب - وهم موضع اهتمام الدولة، والخطة الركيزة لإستراتيجيتها - ذلك أن الواقع كشف عن الحاجة إلى مناقشتهم واحتوائهم ولا مرية في أن قادة الفكر الديني الوسطى، يدركون أنه يجب أن تكون أساليب التجديد للخطاب الديني مرتبطة ارتباطًا وثيقا بتطور الحياة ، ومنبثقة عن تعاليم الإسلام السمح.

كما أن وزارة الأوقاف القائمة بالإشراف على أخطر ما يتصل بأحد أهم وسائل تجديد الخطاب الديني، على المساجد والزوايا، بل وباعتبارها المسئولة عن النشاط الدعوي الديني بصفة عامة في العالم العربي والإسلامى، بحسبان أن نشاطها لتبيان صحيح الدين ليس مقصورًا على مصر فحسب، يقوم على قيادتها الحالية عقلية منهجية متجددة، تعمل على إحياء التقاليد الراسخة والمتوارثة، والتجديد فيها بما يلائم روح العصر، لتقديم صحيح الدين، بعلمائها أصحاب الفكر الوسطي المستنير، الذين يحملون على اعناقهم حماية الدعوة الإسلامية الصحيحة، وهي تمثل العمود الفقري القادرعلى أن ينهض بالقيام بمهمة التجديد على خير وجه، فأضحت ديوانًا للمعرفة وواحة للفكر ومركزًا لتبليغ الناس بأصول الدين الوسطي.

ثامنًا: تجديد الخطاب الديني يجب أن يعتمد على أن الدين ليس

للعبادة فحسب وإنما الدين يرتبط بالمعاملة ويتصل بالحياة الدنيا كارتباطه بالآخرة، إعمالاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1]، فالدين المعاملة من مكارم الأخلاق، والأمانة، والصدق، ويجب أن يتناول تجديد الخطاب الديني كافة مظاهر الحياة في المجالات الاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية، والثقافية، والحضارية، وهذا هو الفهم الصائب المتصل بطبيعة الدين الإسلامى وقدرته الروحية العجيبة على الخلود، والخلق، والإبداع، والابتكار، والتعايش، فقد عانت الأمة الإسلامية من التخلف الحضاري بسبب الاستقطاب المذهبي المتنافر.

تاسعًا: التأكيد على أن حقيقة تجديد الخطاب الديني ليست تجديدًا للدين ذاته، حاشا لله، فلن تجد لسنة الله تبديلاً إعمالاً لقول الحق: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[2]، وإنما التجديد في الفكر نفسه، لأن الفكر يرتبط بمستجدات الحياة، والحياة بطبيعتها تتطور بتطور الأزمنة والأمكنة، فكان طبيعيًّا أن يتطور الفكر حتى يتلاءم مع الحياة، فضلاً عن أن التجديد يكون مقصورًا على الفروع فقط، دون ثوابت

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) الفتح: ٢٣.

الشرع الإسلامي المقررة بأدلته قطعية الثبوت والدلالة، والتي تشمل الأصول والمبادئ أو الاعتقاد.

إسهام القاضي الإداري في تدعيم موضوع خطبة الجمعة الموحدة :

لقد أسهم القاضي الإداري في تدعيم موضوع خطبة الجمعة الموحدة باعتبارها أساسًا لبناء الشخصية المصرية، ضبطًا للنشاط الدعوي المستنير، وتصحيحًا لمسار الدعوة من الفكر المنحرف عن صحيح الدين، وذلك في إحدى القضايا التي عرضت على محكمة القضاء الإداري بالإسكندرية الدائرة الأولى بالبحيرة برئاستنا في الدعوى رقم ١٢٢٦٤ لسنة ١٦ ق بجلسة ٩من سبتمبر ٢٠١٦م، أيدت فيه المحكمة قرار وزير الأوقاف رقم ٢١٥ لسنة ٢٠١٦م، بشأن القواعد المنظمة لأداء خطبة الجمعة بالمساجد والزوايا الخاضعة لإشراف وزارة الأوقاف الصادر بتاريخ ٢٣/ ٨/ ٢٠١٦م فيما تضمنته كل من المادة الأولى من تشكيل لجنة مكونة من عشرة أعضاء، تضم كافة تخصصات العلوم الشرعية، وبعض المتخصصين في علم النفس وعلم الاجتماع، تكون مهمتها وضع خطة سنوية لخطب الجمع، واختيار خطبة الجمعة الموحدة وإعدادها، والمادة الثانية من أن يكون موضوع الخطبة استرشاديًّا، وطريقة أداء موضوع الخطبة شفاهة وارتجالاً أو مكتوبة مقروءة أمرًا اختياريًّا للخطيب، في ضوء ما يمكنه من أداء رسالته على الوجه الأكمل المنضبط، وبما لا يخرج عن مضمون موضوع الخطبة المحدد، أو عن وقتها المحدد.

وقد فرق القاضي الإداري بين الجهة التي تعد المرجع الأساسي في العلوم الدينية والشئون الإسلامية، وبين الجهة التي تعد المرجع في تفسير مبادئ الشريعة الإسلامية وعقد المهمة الأولى للأزهر الشريف بموجب نص الدستور، وعقد المهمة الثانية لمجموع أحكام المحكمة الدستورية العليا في هذا الشأن، بموجب وثيقة الدستور، وهي التي تأخذ القوة الدستورية ذاتها التي تتمتع بها النصوص الدستورية، كما أوضح دور وزارة الأوقاف من ناحية ثالثة.

وتفصيل ذلك أن المشرع الدستوري من ناحية أولى نص على أن الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيس للتشريع، وجعل من الأزهر الشريف هيئة إسلامية علمية مستقلة، يختص دون غيره بالقيام على كافة شئونه، وهو المرجع الأساسي في العلوم الدينية والشئون الإسلامية، ويتولى مسئولية الدعوة ونشر علوم الدين واللغة العربية في مصر والعالم، ومن ناحية ثانية ورد في وثيقة الدستور أن المرجع في تفسير مبادئ الشريعة الإسلامية هو ما تضمنه مجموع أحكام المحكمة الدستورية العليا في ذلك الشأن ولاريب أن وثيقة إعلان الدستور تأخذ حكم طبيعة النصوص الدستورية ذاتها وقوتها، بحسبانها تكون مع الأحكام التي تنتظمها كلاً غير منقسم **bloc de constitutionnalité** أو نسيجًا دستوريًّا واحدًا على نحو ما سلف،

ومن ناحية ثالثة عهد المشرع العادي إلى وزارة الأوقاف – باعتبارها جزءًا من السلطة التنفيذية، وهي الوزارة التي تمثل الجانب المادى الملموس في الحقل الديني الإسلامى لمرفق المساجد والزوايا التابعة لها - مهمة إدارة المساجد والزوايا والإشراف عليها بعد تسلمها وضمها إليها، والتزام الخطباء بالخطة الدعوية لها، وذلك ضمانًا لقيام هذه المساجد برسالتها في نشر الدعوة الإسلامية على خير وجه، وهذا الإشراف على جميع المساجد والزوايا، يمثل احترامًا لقدسية المنبر، وتطهيرًا لافكار الدعاة، وصونًا لجوهر الدعوة. وبهذه المثابة تسود المنظومة المتكاملة بين الأطراف الثلاثة المذكورة: الأزهر الشريف باعتباره هيئة إسلامية علمية مستقلة تعد المرجع الأساسي في العلوم الدينية والشئون الإسلامية، والمحكمة الدستورية العليا المرجع في تفسير مبادئ الشريعة الإسلامية، ووزارة الأوقاف السلطة الفعلية القائمة على إدارة المساجد والزوايا، والتزام الخطباء بالمكافأة أو المتطوعين بالعمل وفق خطة وزارة الأوقاف الدعوية، واحتياجاتها، وتوزيعها للخطباء على المساجد، فكل في مجاله المرسوم له دستوريًا وقانونيًا في خدمة الإسلام الوسطي المستنير.

وقد تعرض القاضي الإداري لمدى مشروعية قرار وزير الأوقاف رقم ٢١٥ لسنة ٢٠١٦م، بشأن القواعد المنظمة لأداء خطبة الجمعة بالمساجد والزوايا الخاضعة لإشراف وزارة الأوقاف، ووضعه في ميزان الحق والعدل،

وهو ما اقتضى معه التعرض لثلاثة ضوابط، الأول: موضوع الخطبة الموحدة، والثانى: التخيير في طريقة أداء موضوع الخطبة الموحدة، والثالث: للقيد الزمني في أداء تلك الخطبة.

وقد أجاب القاضي الإداري عن الضابط الأول من قرار وزير الأوقاف المطعون فيه الخاص بموضوع الخطبة الموحدة بالمساجد والزوايا التابعة لوزارة الأوقاف بأنه ينبغى التعرض للغاية من تقريره، حيث إن الواقع المصري كشف أن بعض خطباء الجمعة استخدموا المنابر لتحقيق أهداف سياسية متخذين من الدين ستارًا لهم بعيدًا عن واقع المجتمع، وجنوحهم نحو أحاديث لا تليق بخطيب الجمعة ، بل إن بعض الخطباء حولوا موضوع خطبة الجمعة إلى تحقيق أغراض حزبية وسياسية، والسعي لأفكار تحريضية، وشق الصف عبر المنابر، بما يخدع البسطاء بقدسية المكان، على الرغم من أن الجمعة شرعت في الأصل لتكون جرعات إيمانية أسبوعية تعالج قضايا المجتمع وهمومه وتعطي للمسلم طوق النجاة من الوقوع في المعاصي والآثام، فاصبح توحيد موضوع الخطبة ضرورة لمواجهة المخاطر التي تواجه الأمة الإسلامية والعربية، كما أن توحيد موضوع الخطبة سيعزز الوحدة الوطنية، وتستطيع الدولة أن ترسخ قيم المواطنة والإسلام الحقيقي والتسامح عبر الخطبة الموحدة، مما يؤدي إلى الاستقرار، فيصبح المسجد ذكرًا لله لتقرب العبد إلى ربه، وليس مصدرًا للتحزب والإختلاف الفكري

والمذهبي، فالخطبة في الإسلام جعلت لتكون معالجة لواقع المجتمع في زمانه، وتناقش هموم الشعوب، وتتركز في التوعية ونشر الفكر ومعالجة آفات المجتمع، مما يكون معه قرار وزير الأوقاف المصري في شطره الأول مطابقًا لحكم القانون.

أما عن الضابط الثاني بطريقة أداء موضوع الخطبة الموحدة الوارد بقرار وزير الأوقاف من التخيير في طريقة أدائها على نحو ما نصت عليه المادة الثانية من ذلك القرار، بأن يكون موضوع الخطبة استرشاديًّا، وطريقة أداء الخطبة شفاهة وارتجالاً أو مكتوبة مقروءة أمرًا اختياريًّا للخطيب، في ضوء ما يمكنه من أداء رسالته على الوجه الأكمل المنضبط، وبما لا يخرج عن مضمون موضوع الخطبة المحدد، فإن هذا الأمر من شأنه أن يترك لكل خطيب قدرًا من إبراز ملكاته ومواهبه في إيصال موضوع الخطبة الموحدة لجمهور المصلين، بالأداء الذي يمكنه من الوصول إلى عقولهم وقلوبهم، فطريقة أدائها ليست إلزامية على وجه معين على الخطيب بل إرشادية فمن شاء ألقاها شفاهة وارتجالاً، ومن شاء ألقاها مكتوبة مقروءة وفي الحالتين يلتزم بموضوع الخطبة الموحدة، ذلك أن الارتجال الواعي لا يستطيعه كل خطيب، ويظل لبعض أصحاب الموهبة من الخطباء القدرة على الإدراك، والتجديد، والإبداع، والتأصيل، في ذات موضوع الخطبة بما لا يحيد عنها، ومن ثم يكون قرار وزير الأوقاف في هذا الشطر الثانى محققًا لمصلحة معتبرة.

وأما عن الضابط الثالث الوارد بقرار وزير الأوقاف من وضع قيد زمني لموضوع الخطبة وبما لا يخرج عن وقتها المحدد ما بين خمس عشرة إلى عشرين دقيقة على الأكثر، فلا هي طويلة مملة أو قصيرة مخلة، ولا مرية في أن قصر خطبة الجمعة علامة على فقه الخطيب، حيث يستطيع جمع المعاني الكثيرة في كلمات يسيرة، ولا يطيل فينسى الناس بآخر كلامه أوله، وهذا هو هدي النبي ﷺ في خطبه، ومما روى في ذلك: خَطَبَنَا عَمَّارٌ، أى: ابن ياسر، فَأَوْجَزَ، وَأَبْلَغَ، فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ لَقَدْ أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ فَلَوْ كُنْتَ تَنَفَّسْتَ، أي: أطلتَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ ، وَأَقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنْ الْبَيَانِ سِحْرًا " (١).

وفي تقصير الخطبة فائدتان: الأولى ألا يحصل الملل للمستمعين؛ لأن الخطبة إذا طالت - لا سيما إن كان الخطيب يلقيها إلقاءً عابرًا لا يحرك القلوب، ولا يبعث الهمم - : فإن الناس يملُّون، ويتعبون. ومنهم الكبير والمريض، والثانية أن ذلك أوعى للسامع، أى: أحفظ للسامع؛ لأنها إذا طالت: أضاع آخرها أولها، وإذا قصرت أمكن وعيها، وحفظها، فترك المصلين راغبين خير من تركهم زاهدين، وبهذه المثابة يكون قرار وزير الأوقاف في الشطر الثالث

---

(١) رواه مسلم، حديث رقم ٨٦٩ .

منه محققًا كذلك مصلحة معتبرة.

وقد انتهى القاضي الإداري إلى أن قرار وزير الأوقاف المصري- بجميع أجزائه الثلاثة - عن موضوع الخطبة الموحدة، محققًا لمصلحة معتبرة، متفقًا وصحيح حكم القانون.

* * *

دور المجتمع المدني ومؤسساته في بناء الشخصية الوطنية *

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،،

فإن هذا المؤتمر يتصدى لبحث موضوع في غاية الأهمية لمصر ومستقبلها، ذلك أنه يهدف إلى بناء الشخصية الوطنية التي نما في قلبها حب مصر، وأثمر شخصية مخلصة في عملها تحب مصر ـ وتقدمها وتفديها بكل غال ونفيس.

ولا شك أن هذا هدف سام يجب علينا جميعًا أن نتكاتف للوصول إليه، ولذلك سعدت بالكتابة في بحث بعنوان: "دور المجتمع المدني ومؤسساته في بناء الشخصية الوطنية"، وبذلت جهد المقل وكتبت هذا البحث، وفق الله هذا المؤتمر للوصول إلى هذا الهدف العالي، وجزى القائمين عليه خير الجزاء.

معاني مفردات العنوان:

يتكون عنوان البحث من عدة كلمات، وأبين هنا المقصود بكل كلمة

---

* كتب هذا البحث: الأستاذ الدكتور/ حامد محمد أبو طالب- عضو مجمع البحوث الإسلامية - مصر.

لنتصور المقصود بهذا العنوان:

١- دور: لهذه الكلمة معان متعددة، منها المهمة والوظيفة، وهو المعنى المقصود هنا، تقول: دور المدرسة تعليم التلاميذ وتربيتهم، أي أن مهمة المدرسة أو وظيفتها تعليم التلاميذ وتربيتهم.

٢- المجتمع: الجماعة من الناس أو الهيئات، يرتبطون بروابط ومصالح وعادات وتقاليد مشتركة، ويقصد به هنا الجماعة من الناس الذين يسعون لتحقيق هدف واحد هو خدمة الناس ورعاية مصالحهم.

٣- المدني: نسبة إلى المدينة، بخلاف البدو نسبة إلى البادية، وبخلاف العسكري، تقول: فلان مدني أي ليس عسكريًّا، أو هو ينتمي إلى الحياة المدنية ولا ينتمي إلى الحياة العسكرية.

وعلى ذلك يقصد بالمجتمع المدني: المنظمات غير الحكومية التي تنشأ لتحقيق مصالح وقيم وأهداف مشتركة لخدمة المجتمع بأكمله.

٤- مؤسسات: جمع مؤسسة، وهي كل تنظيم يرمى إلى الإنتاج أو المبادلة للحصول على الربح.

٥- بناء: إنشاء وتدعيم[١].

٦- الشخصية: صفات تميز الشخص من غيره، ويقال: فلان ذو

---

(١) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، أسّ.

شخصية قوية، أى أنه ذو صفات متميزة وكيان مستقل [١].

٧- الوطنية: نسبة إلى الوطن، وهو مكان إقامة الإنسان ومقره، ولد به أم لم يولد [٢].

المقصود بالعنوان :

وعلى ذلك يكون المقصود بالعنوان: مهمة الجماعة المدنية الذين يسعون متطوعين لتحقيق أهداف إنسانية، كخدمة الناس ورعاية مصالحهم بلا مقابل، ومهمة وحدات هذه الجماعة في إنشاء وتدعيم أبناء الوطن، وتقوية روح الانتماء والولاء والحب والفداء له.

وهذا يعني أن هيئات المجتمع المدني المتطوعة لها دور مهم في غرس حب الوطن في قلوب المواطنين، والإخلاص له، وتقديمه على ما عداه، وفدائه بكل غال ونفيس بما في ذلك الروح، والإخلاص لهذا الوطن في الأداء والعطاء، فيؤدي المواطن عمله بكل تفانٍ وإخلاص محاولاً رفع اسم دولته التي ينتمي إليها، وهذا السلوك هو استجابة لطلب رسول الله ﷺ من المسلمين في إتقان العمل، حيث قال ﷺ : " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه "[٣].

---

(١) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية ، شخص.

(٢) المرجع السابق، وطن.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني ١/ ٢٧٥، مسند أبي يعلي ٧/ ٣٤٩.

والإسلام يعتبر كل شخص في المجتمع مسئول عن الدولة، ولابد أن يؤدي عمله باعتباره مسئولاً عنها، وعن سمعتها، وعن مكانتها، ولابد من الحفاظ عليها، والإخلاص والحب والولاء لها، حيث يقول الرسول ﷺ: " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته"، قال عبد الله بن عمر راوى الحديث: فسمعت هؤلاء من النبي ﷺ، وأحسب النبي ﷺ قال: " وَالرجل في مال أبيه راع ومسئول عَنْ رعيته، وكُلُّكُم رَاعٍ ومسئول عَنْ رَعِيَّتِهِ "(١).

وجه الدلالة من الحديث:

يقرر النبي ﷺ في نهاية الحديث أن كل واحد في المجتمع راع ومسئول عن رعيته، وبناء عليه يجب على كل واحد منا أن يرعى كل ما استرعاه عليه ربه من أبناء، وعمل، وإنتاج، وكل مجال يؤثر فيه، فهو مسئول عن كل ما في المجتمع من فقراء ومرضى وملهوفين ومحتاجين بقدر ما استرعاه عليه ربه.

ويؤيد هذا الاتجاه وهو الدعوة إلى مساعدة الناس ورعاية مصالحهم ودفع الأذى عنهم قول رسول الله ﷺ: " الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن

---

(١) صحيح البخارى، كتاب العتق، باب العبد راع في مال سيده، الحديث رقم ٢٥٥٨.

الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" [1]، فإزالة الأذى عن الطريق هو من اهتمام الإنسان بالمجتمع ومن فيه، قال الله تعالى:﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [2]، وقال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [3].

أفراد المجتمع المدني:

إن منظمات المجتمع المدني تشمل المنظمات غير الحكومية التي تعمل على كفالة الأيتام ورعايتهم، أو جمع الأطفال فاقدي الرعاية الأسرية وإيوائهم، أو تعمل على علاج المرضى، أو تعليم أبناء الفقراء، أو الرفق بالحيوان، أو القضاء على الأمراض الاجتماعية كالتدخين والإدمان، أو حماية المستهلكين، أو تعمل على رعاية المسنين والعجزة، أو تعمل على توفير المساكن لغير القادرين، أو توفير فرص العمل للشباب، أو تزويج غير القادرين وغير القادرات، إلى غير ذلك من أنشطة .

ويمكن أن تتعاون بعض هذه المنظمات بإنشاء كيان اقتصادي خيري كمصنع أو شركة للتخفيف من عبء البطالة في منطقة معينة، أو إنشاء

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم ٥٨.

(٢) المائدة: ٢.

(٣) متفق عليه، البخارى، الحديث رقم ٦٠١١، صحيح مسلم، الحديث رقم ٢٥٨٦.

مستشفى خيري، كما يمكن لهذه المنظمات أن تقوم بأنشطة أخرى تخفف العبء عن الحكومة لتتفرغ للمهام الضخمة الصعبة الأساسية كإنشاء الطرق والسكك الحديدية، وشق الترع والمصارف، وإقامة المجمعات الصناعية الضخمة، وهكذا.

بل قد تمتد بعض هذه المنظمات المدنية في أهدافها، فضلاً عن أنها تعمل على رعاية وحماية وصيانة أفراد الشعب، فتعمل على تحقيق هدف معين وهو تنشئة جيل شديد الحب لوطنه، صادق الانتماء إليه والولاء له، ويعطيه كل وقته وجهده وحبه وإخلاصه بدون مقابل وبنفس راضية، حتى يمكن تقوية الإنتاج وتجويده وتحسينه ليقوى على المنافسة العالمية، ومن ثم يقوى اقتصاد الدولة ويرتفع مستوى معيشة الشعب، وهذا هو موضوع البحث، ولا شك أن هذا الهدف السامي والمطلب العالي يدل دلالة واضحة على رقي المجتمع وارتفاع مستوى عقله الجماعي، وتسامي أفراد هذا المجتمع.

دور منظمات المجتمع المدني وفقًا لدستور ٢٠١٤م[١]:

أعطى الدستور المصري الصادر في عام ٢٠١٤م دورًا مهمًّا لمنظمات المجتمع المدني يتناسب وأهمية هذا الدور في هذه المرحلة.

فقد نصّت المادة ١٦/ ١ على أن "تلتزم الدولة بتكريم شهداء الوطن،

---

(١) جريدة الوفد، بتاريخ ٢٢ من سبتمبر ٢٠١٥م، منظمات المجتمع المدني في الدستور، د/ أحمد عبد الظاهر.

ورعاية مصابي الثورة والمحاربين القدماء والمصابين، وأسر المفقودين في الحرب وما في حكمها، ومصابي العمليات الأمنية وأزواجهم وأولادهم ووالديهم، وتعمل على توفير فرص العمل لهم، وذلك على النحو الذي ينظمه القانون"، والمادة ١٦/ ٢ " وتشجع الدولة مساهمة منظمات المجتمع المدني في تحقيق هذه الأهداف".

وهذه المهام التي ألقاها الدستور على عاتق منظمات المجتمع المدني تسهم في تكوين الشخصية الوطنية؛ لأنها تشجع الشباب على فداء الوطن بقلوب مطمئنة وواثقة من أن الدولة والمجتمع المدني سيرعيان أبناءه ومن يعولهم، ويشعر من أصيب بالتكريم والرعاية جزاء ما أدى لمصر، ومن هنا يشعر كل شخص يخدم الوطن أنه سينال حقه، وكذلك تحقيق فرص العمل لأبناء هذه الفئات التي قدمت روحها وبدنها لمصر وهو حق لهم، ومن ثم يقدم كل مواطن على الدفاع عن مصر وهو مطمئن على أبنائه وذويه، وأنهم سينالون رعاية الدولة ومصر بأكملها، ومن ثم تنمو الروح الوطنية في شباب الأمة، وتقوى وتتحقق الشخصية الوطنية التي نسعى إليها.

كما تنص المادة ٢١/ ٣ على أن " تعمل الدولة على تشجيع إنشاء الجامعات الأهلية التي لا تستهدف الربح، وتلتزم الدولة بضمان جودة التعليم في الجامعات الخاصة والأهلية، والتزامها بمعايير الجودة العالمية، وإعداد كوادرها من أعضاء هيئات التدريس والباحثين، وتخصيص نسبة

كافية من عوائدها لتطوير العملية التعليمية والبحثية".

وتدعو هذه الفقرة التي تشجع على إنشاء الجامعات الخاصة والأهلية التي لا تهدف إلى الربح المجتمع المدني للإسهام بدوره في التعليم وتجويده وتحسينه.

وكذلك تنص المادة ٢٥ على أن "تلتزم الدولة بوضع خطة شاملة للقضاء على الأمية الهجائية والرقمية بين المواطنين في جميع الأعمار، وتلتزم بوضع آليات تنفيذها بمشاركة مؤسسات المجتمع المدني وفق خطة زمنية محددة".

وهذا العمل المرموق في القضاء على الأمية الهجائية والرقمية أمل يسعى إليه كل مصري مخلص محب لمصر، وعلى هيئات المجتمع المدني واجب أساسي في ذلك لتحقيق هذا الهدف؛ فهو يرقى بأفراد المجتمع ويرفع مستواهم العلمي والفكري، ويسهم في تحقيق الشخصية الوطنية.

كما نصت المادة ٨٣ على أن "تلتزم الدولة بضمان حقوق المسنين صحيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وترفيهيًّا، وتوفير معاش مناسب لهم يكفل لهم حياة كريمة، وتمكينهم من المشاركة في الحياة العامة، وتراعي الدولة في تخطيطها للمرافق العامة احتياجات المسنين، كما تشجع منظمات المجتمع المدني على المشاركة في رعاية المسنين، وذلك كله على النحو الذي ينظمه القانون".

وتشير هذه المادة إلى دور منظمات المجتمع المدني في رعاية وتكريم المسنين، وتشجيعها على إنشاء دور لرعايتهم وتكريمهم، ولهذا الأمر مردود على جميع أفراد الشعب، حيث يكون كل منهم مطمئنًا إلى أنه سيعيش عيشة كريمة لائقة مدى حياته، فيحب مصر ـ ويخلص لها، وتتحقق الشخصية الوطنية التي نسعى إلى بنائها.

دور المجتمع المدني وهيئاته ومنظماته في بناء الشخصية الوطنية:

يمكن للمجتمع المدني وهيئاته القيام بهذا الدور المهم عن طريق نشر التكافل والحب والحماس والوطنية بين أفراد الشعب، كل هيئة فيما يخصها، بما يسهم في بناء الشخصية الوطنية لدى أبناء مصر، ويجلب حماسهم لخدمتها، ويزرع حبها في قلوبهم، وذلك على النحو الآتي:

١ – دور الهيئات التي تعمل في تدبير علاج المرضى والفقراء:

على المجتمع المدني التوسع في إنشاء هذه الهيئات لتقديم هذه الخدمة العظيمة والتوسع فيها؛ حتى يجد كل مريض علاجه في يسر وسهولة وكرامة، ومن ثم يصح بدنه وتطيب نفسه ويعمل على الحفاظ على وطنه .

٢ – دور الهيئات التي تعمل على مساعدة الطلاب الفقراء والمحتاجين وإغاثة الملهوفين:

هناك هيئات كثيرة في مصر تعمل على مساعدة الطلاب الفقراء والمحتاجين، ومع هذا فالحاجة ماسة لمزيد من هذه الهيئات، لا سيما أصحاب

رؤوس الأموال والشركات والبنوك والأثرياء عمومًا، فهؤلاء عليهم واجب ديني ووطني في مساعدة هذه الفئة، وهذا يؤدي إلى تأليف قلوب هؤلاء الطلاب، والمساهمة في بناء شخصياتهم الوطنية المحبة لمصر.

٣ – دور هيئات المجتمع المدني التي تعمل في مجال تطوير التعليم:

لهذه الهيئات دور مهم للغاية في التنمية المجتمعية في مجال التعليم، وبمساعدة هذه الهيئات ونهوضها بدورها تستطيع الدولة الوصول إلى الهدف المنشود من تطوير العملية التعليمية في مصر، وقد أشار الدكتور طارق شوقى وزير التربية والتعليم والتعليم الفني إلى أن "المشاركة المجتمعية ضرورة قصوى في هذه المرحلة؛ لأنه لا يمكن أن يتحقق التعليم الجيد للجميع في ظل الموارد الحكومية الحالية إلا بمشاركة مجتمعية حقيقية وفعالة، مشاركة لا تكتفي فقط بالمساهمة بالموارد ولكنها تتعدى إلى صياغة الفكر، وتشكيل الثقافة المجتمعية التي يمكن أن تسمح بتحقيق التعليم الجيد(١).

ومن ثم يجب على هيئات المجتمع المدني – بالإضافة لما تقوم به من إنشاء المدارس وتشغيلها ومحاربة تسرب التلاميذ وتقديم العون الكافي لهذه المدارس – المزيد من العطاء والتطوير، وأن تهتم بالتعليم على المستوى

(١) د/ طارق شوقي، وزير التربية والتعليم، في احتفالية مصر الخير بتدشين اليوم المصرى للتعليم بجامعة القاهرة، الإثنين ١٨ من سبتمبر ٢٠١٧م.

العالمي حتى يعود الأمر بالخير على الشباب، وينمي لـديهم الانـتماء والـولاء لوطنهم، وتتحقق الشخصية الوطنية التي نسعى إليهـا بفضـل جهـود هـذه الهيئات.

٤ – دور هيئات المجتمع المدني التي تعمل على توفير فرص العمل:

لهيئات المجتمع المدني دور مهم في توفير فرص عمل للخـريجين وغـير الخريجين، وذلك عن طريق تدريب الشباب والراغبين في العمل عـلى المهـن والأعمال المطلوبة بالسوق المحلية والدولية، وإعدادهم إعدادًا فنيًّا كاملاً، أو إنشاء مدارس صناعية يتعلمون فيها المهن ويتدربون عليهـا، وقـد أنشـأت جمعية مصر الخير عدة مدارس في المناطق النائيـة والمحرومـة، وبالتـالي أثمـر هذا المجهود في محاربة التسرب من التعليم، وفي توفير فرص عمل للشباب.

وعندما يلتحق الشباب بالعمل ويتولـد الأمـل لديـه في تحقيـق حيـاة سعيدة؛ يتحول من طاقة خاملة إلى طاقة عاملة، ومن شخص مسـتهلك إلى شخص منتج، وبذلك يتحول هذا الشـاب إلى مـواطن صـالح، فقـد تحقـق طموحه في العمل والنهوض ببلده، وهذا يعتبر نجاحًـا للهيئـة التـي تعمـل على توفير فرص العمل، فقد تمكنت من بناء شخصيات وطنية نافعة.

كما يمكن لبعض الهيئات أن تؤسس مشاريع صغيرة تستوعب أعدادًا من الشباب حتى ولو كانت قليلة، وكذلك يمكن لبعض الهيئات التي تعين الشباب على القيام بأنشطة صغيرة أن تعينهم بقـروض ميسرـة، وكـل ذلـك

يُمكِّن الشاب من بدء حياة عملية منتجة.

وكل هؤلاء الشباب الذين تمت إعانتهم على تدبير أمور معيشتهم يتحولون إلى مواطنين صالحين، نافعين لأنفسهم وأسرهم وأوطانهم.

٥ – دور هيئات المجتمع المدني التي تعمل في رعاية الفقراء:

هيئات المجتمع المدني التي تعمل في إغاثة الفقراء ورعايتهم لها دور مهم في بناء الشخصية الوطنية ، ذلك أن هذه الهيئات بمجهوداتها الخيرية تحول الطفل اليتيم والشخص الملهوف المحتاج إلى شخص راض عن المجتمع الذي رعاه وحافظ عليه وأخذ بيده إلى بر السلامة ، ولم يتركه يشق طريقه بمفرده ، وإنما تكفل به وأعانه على حياته المستقبلية ، وبذلك يحتفظ هذا الفتى بهذا الجميل للهيئة التي ساعدته، وللمجتمع الذي وقف بجواره ، وللدولة التي وجهت هذه الهيئات لرعاية الأيتام والملهوفين والمحتاجين وأمثالهم.

ويتحول هذا المواطن إلى مواطن صالح منتج، نافع لنفسه ولأسرته ومجتمعه ووطنه، وبذلك تكون هذه الهيئة قد شاركت في بناء الشخصية الوطنية.

٦ – دور هيئات المجتمع المدني التي تعمل في رعاية ذوى الاحتياجات الخاصة:

هذه فئة من الشعب تحتاج إلى مساعدة خاصة نظرًا لإصابتهم بحالات إعاقة جسدية أو عقلية أو نفسية، وقد يكون الشخص ولد معاقًا

بهذه الإعاقة، أو حدثت نتيجة حادث معين، ويسمون بـذوى الاحتياجـات الخاصة، أو بذوي القدرات الخاصة، أو بذوي الهمة، تشجيعًا وتحفيـزًا لهـم، ولقد أنشئت بعض الهيئـات التـي تهـتم برعايـة هـذه الفئـة، والعمـل عـلى اندماجهم في المجتمع، ومعايشتهم، ومسـاعدتهم في الاعـتماد عـلى أنفسـهم قدر إمكانهم، وذلك عـن طريـق إدمـاج بعـض مـنهم في الفصـول العاديـة للتلاميذ، أو إنشاء فصول أو مدارس خاصة بهـذه الفئـة؛ لينـالوا حقهـم في التعليم قدر المستطاع.

وقد طورت بعض الهيئات التي تعمـل في هـذا المجـال مـن خـدماتها وأنشأت فصولاً لتعليمهم بعض المهن التي يستطيعون القيام بها، وتتناسـب وحالتهم الصحية وقوتهم البدنية، وقد نجح عدد كبير منهم في الاعتماد على نفسه وأصبح ذا مهنة خاصة يتعيش منها.

وبذلك استطاعت هذه الهيئات تحويل عـدد كبـير مـن هـذه الفئـة إلى منتجين نافعين لأنفسهم ولأسرهم وللدولة، وتحول هذا الشخص إلى عائل لأسرته، وتحول إلى شخصية وطنية صالحة نافعة لنفسها وللمجتمع.

٧ – دور هيئات المجتمع المدني التي تعمل في مجال حماية المستهلكين:

تعتمد هذه الهيئات في عملها على إقامة التوازن والعدل بين المنتجين والمستهلكين حتى لا تظلم فئة أخرى، وبذلك يتحقق العدل في المجتمع.

كما تعمل على حماية المستهلكين وضمان حصـولهم عـلى سـلع جيـدة،

وإذا تبين وجود عيوب في الصناعة أو البضاعة تتدخل هذه الهيئة لإقامة التوازن في العلاقة بين التاجر والمستهلك بدون مشكلات أو منازعات قضائية.

وبذلك تؤدي هذه الهيئات خدمة متميزة لإيصال الحقوق إلى أصحابها، بعيدًا عن المحاكم، ومن ثم تتم تسوية أعداد كبيرة من المنازعات، بدون كراهية أو عداوة أو منازعات، ومن ثم تسود المجتمع المصري روح طيبة بين أبناء الشعب، ويحب كل واحد منهم الآخر، فيرقى المجتمع ويتقدم.

٨ – دور هيئات المجتمع المدني التي تعمل في مجال حماية حقوق الإنسان:

انتشرت فكرة حماية حقوق الإنسان في الفترة الأخيرة ، وتعددت الهيئات التي تعمل في هذا المجال، والأصل أن هذه الهيئات تقوم بخدمة جيدة مفيدة للمجتمع بأكمله؛ حيث تُعرِّف أفراد المجتمع بحقوقهم، وتحاول حمايتهم والدفاع عنهم، وتستطيع هذه الهيئات أن تساعد الأفراد على المشاركة في الحياة العامة، وممارسة حقوقهم الانتخابية، وأداء حق المواطن في التصويت، كما يمكنها أن تمد جسور التفاهم بين أفراد الشعب والمسئولين، وتنقل نبض المجنمع للمسئولين، كما يمكن لبعض هذه الهيئات أن تسهم في البرامج التعليمية التي تفيد المجتمع وتجعلها تحقق رغبات الشعب.

هذا هو الأصل، ولكن للأسف ما نشاهده أن بعض هذه الهيئات انحرفت عن هدفها، وأصبح يمثل ذلك خللاً في أداء عملها، حيث يرتبط بعضها بعلاقات خارجية مشبوهة، أو يعمل بعض منها وفق أجندة أجنبية، أو يستغل هذه اللافتة للحصول على الأموال من الخارج، مما أدى إلى تراجع الأمل في بعض هذه الهيئات وأفقد المجتمع الثقة في بعض منها.

معوقات عمل هيئات المجتمع المدني:

رأينا في الأمثلة السابقة ما يمكن أن يقوم به المجتمع المدني ومؤسساته في بناء وتكوين الشخصية الوطنية النافعة، وإذا كانت هذه الهيئات تستطيع أن تقوم بهذه الإنجازات وتخفيف العبء عن الحكومة، وتنتج لنا الشخصية الوطنية التي نهدف لبنائها، وتؤثر على الإنسان تأثيرًا مباشرًا، فهناك بعض المعوقات التي تحول دون انطلاق المجتمع المدني لتحقيق هذه الأهداف، وهي في إيجاز شديد ما يلي:

١- بعض الهيئات يفتقد الأمانة والأخلاق؛ حيث يستغل بعض الأفراد هذه الهيئات للوصول إلى فوائد شخصية لأنفسهم.

٢- استغلال بعض الأشخاص لهذه الأفكار المتميزة، فيخرج بها عن هدفها، ويوظفها لمصلحة معينة له.

٣- الخروج عن هدف الهيئة والتفات بعض أعضائها إلى احتلال المناصب في الهيئة، ومن ثم يتجه إلى الاتفاقات المشبوهة

والتحزبات، وتنخرط الهيئة في منازعات تبتعد كثيرًا عن الهدف.

٤- تولي غير الخبراء قيادة بعض الهيئات مما يعوق الهيئة عن تحقيق أغراضها.

٥- استغلال بعض الأفكار الطيبة لخدمة المجتمع والتي لا تهدف للربح لتحقيق أرباح شخصية.

٦- اشتراك بعض الأشخاص غير الموثوق بهم في مجالس إدارة بعض هذه الهيئات.

وختامًا.. فإنه لو صدقت النوايا، وابتعد الأفراد عن محاولة استغلال هذه الهيئات المدنية الخيرية، وتحلت بالأمانة والأخلاق والشفافية والوضوح، وعملت على تحقيق هذه الأهداف المنوطة بها، وتخفيف العبء عن الحكومة بصدق وأمانة؛ لتقدمت الدولة، وارتفع مستوى معيشة الشعب، وتحقق الهدف المنشود في بناء الشخصية الوطنية، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

دور مؤسسات المجتمع المدني
في بناء الشخصية الوطنية *

مع تطور الحياة الإنسانية، واستقرار المجتمعات البشرية، وظهور الحضارات، وزيادة تعقد العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، وتعدد وتنوع حاجات الإنسان وزيادة مشكلاته، أصبح من العسير على الأسرة التقليدية بمفردها الاستمرار في أداء وظائفها لإشباع هذه الحاجات المتجددة والمتنوعة، ومواجهة المشكلات بالكفاءة المرجوة، وترتب على ذلك أن بدأت المجتمعات تفكر في أنظمة بديلة تحل محل الأسرة وتقوم مقامها بالوظائف التي لم تعد قادرة على الاستمرار في تأديتها، وقد توصلت المجتمعات الحديثة إلى ما يسمى بالنظم الاجتماعية كالنظام الاقتصادي، والنظام الصحي، والنظام التعليمي، والنظام السياسي.

وفي إطار كل نظام من هذه النظم، أُنِشئت مؤسسات متخصصة تقوم بتأدية وظائف هذا النظام، والتي لا تخرج عن إشباع الاحتياجات المختلفة للإنسان، ومواجهة وحل المشكلات التي تعترض طريق حياته في ذلك الجانب من جوانب الحياة.

وهذه المؤسسات المتخصصة هي ما يطلق عليها علماء الاجتماع اسم "مؤسسات المجتمع المدني"، حيث تعد من أحد المفاهيم المرتبطة بعلم

---

* كتب هذا البحث: الأستاذ الدكتور/ عبد الله محمد المغازي- أستاذ القانون الدستوري- مصر.

الاجتماع، والذي يعرفه المجتمع المدني بأنه: مجموعة الأفراد الـذين يعيشـون معًا داخل مجتمع واحد، ولكل منهم حريته الشخصية، ولا يحق لأى فرد من أفراد هذا المجتمع التدخل في حريـة غـيره، أو التطفـل عليهـا، أو تقييـدها، ويعتمد المجتمع المدني على العـيش بتسـامح بـين كافـة مكونـات المجتمـع، والتعامل مع الأفراد بناءً على صفاتهم الإنسانية فقط، دون النظر إلى ديـنهم، أو ثقافتهم، أو لونهم، وبالمقابل يحرص كافة الأفـراد داخـل المجتمـع المـدني على التعاون معًا، من أجـل تحقيـق المصـالح العامـة والمشـتركة؛ للنهـوض بمجتمعهم، والعمل على تطوره، وازدهاره، في كافة المجـالات التـي تقـوم عليها المجتمعات .

نشأة المجتمع المدني:

تعود فكرة نشـأة المجتمـع المـدني إلى أوروبـا، وخصوصًـا في عصـور النهضة الفكرية، والتي رفضت طبيعة الحكم الإقطاعي الذي كـان قـائمًا في معظـم الـدول الأوروبيـة، حيـث اعتمـدت مفـاهيم المجتمـع المـدني عـلى الاقـتراب مـن مفهـوم حقـوق الإنسـان المطبـق في الوقـت الحـالي، ويعـد الفيلسوف والمفكر "جان جاك روسو" من أوائل الفلاسفة الـذين اهتمـوا بفكرة تطبيق المجتمع المدني في أوروبا، مـن خـلال مـنح الشـعب الحريـة في إدارة شئونهم الخاصة بالاعتماد على التنسيق بينهم وبين الدولة، مما أسـهم في تحديد الحقوق والواجبات لكل فرد داخل المجتمع.

وقد انتشرت مؤسسات المجتمع المدني تدريجيًّا حتى أصبحت تغطي معظم مناشط الحياة الإنسانية في عالمنا المعاصر.

مؤسسات المجتمع المدني:

المؤسسة في اللغة:

مؤسسات: جمع مؤسسة، وهي مشتقة من أسس أسّ والأساس الذي يكون مرتكزًا لشيء، وأساس: جمعها أسس، وهي مرتكز البناء وقاعدته،والأساس أصل كل شيء ومبدؤه.

المؤسسة في الاصطلاح:

مؤسسة: دار تعليم، ويقصد بها المدرسة الابتدائية أو المدرسة الثانوية، رسمية كانت أم خاصة، أو هي مجموع المنشآت المقامة لعمل مشروع ما واستغلاله، أو هو المشروع نفسه: (مؤسسة زراعية، معهد، مؤسسة تجميل، منشأة تؤسس لغرض معين، مؤسسة دولية، مؤسسة علمية، جمعية أو دار عناية عامة، مؤسسة خيرية، مؤسسة وقائية،...إلخ).

والمؤسسة:(جمعية، أو معهد أو شركة)، أسست لغاية اجتماعية، أو خيرية، أو علمية، أو اقتصادية.

المجتمع في اللغة:

كلمة مشتقة من جمع، وجَمَعَ جَمعًا: وصل ما هو متفرق لتوحيده، وضم بعضه إلى بعض، ووصل ما أنقطع، جَمَع القلوب: أَلَّفها ووحد بينها.

المجتمع في الاصطلاح:

واجتماعى: منسوب إلى الاجتماع، فيقال: حياة اجتماعية، وكذلك هو خاص بالمجتمع ومراتبه المختلفة فيقال: النظام الاجتماعي،الطبقات الاجتماعية، عدالة اجتماعية، وخاص أيضًا بخدمة المجتمع، فيقال: الأسرة عنصر اجتماعي، تأمين اجتماعي، ضمان اجتماعي.

المدني في اللغة:

المدني: كلمة مشتقة من مدن وهي جمع مدينة، ويقصد بكلمة مدني: ساكن مدينة، أو ابن مدينة.

المدني في الاصطلاح :

هو مصطلح خاص بالدولة وبتنظيم العلاقات بين مواطنيها فيقال زواج مدني أى غير عسكري، ولباس مدني، ودفاع مدني، وطيران مدني، وقانون مدني، ومسئولية مدنية، وحالة مدنية.

المجتمع المدني في الاصطلاح:

يعرف البعض المجتمع المدني بأنه : التنظيمات والحركات الاجتماعية وغيرها من هياكل المجتمع الرامية إلى إعادة توزيع موارد القوة السياسية والاقتصادية.

بينما يعرفه آخرون بأنه: " أنشطة جماعية لفاعلين غير حكوميين، يمثلون قوة ضاغطة لدفع التحول الديمقراطي، من خلال آليات محددة،

مثل: إتاحة قوة التفاوض الجماعي، وكذلك العمل على توسيع نطاق ممارسة السلطة.

كما يقتصر مفهوم المجتمع المدني عند البعض على: الهياكل الحديثة مثل: النقابات المهنية والعمالية، والجمعيات، والأحزاب.

وهناك من يضيف هياكل تاريخية قديمة موجودة في المجتمع، مثل: الأوقاف الإسلامية، والمسيحية، وأشكال التضامن البسيط والتقليدي.

وأصبحت قوة المجتمع المدني الآن بشموله هيئات وروابط غير حكومية، ونقابات العمال والمهنيين، وجمعيات رجال الأعمال، وغيرها، حيث يُنظر إليه باعتباره مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأسرة الدولية؛ لتحقيق مصالح أفرادها.

في حين تعرف مؤسسات المجتمع المدني وفقًا لتعريف الأمم المتحدة على أنها: ذلك النسق المنظم من الهيئات والمؤسسات والبرامج التي تهدف إلى دعم أو تحسين الظروف الاقتصادية، أو الصحية، أو القدرات الشخصية المتبادلة لمجموع السكان.

ويمثل تعريف الأمم المتحدة الأنشطة الموجهة في المؤسسات الاجتماعية لمساعدة الأفراد أو المجتمعات؛ لمقابلة احتياجاتهم الأساسية والارتقاء بهم بما يتفق مع اهتمامات أسرهم ومجتمعاتهم.

مؤسسات المجتمع المدني:

تعددت التعاريف المحددة لمفهوم مؤسسات المجتمع المدني، فلم يتفق العلماء إلى اليوم على تعريف موحد لهذا المفهوم، وقد يكون مرجع ذلك أنه يتسم بالاتساع من ناحية، وتعدد منطلقات بلورته خلال مراحل تطوره التاريخي من ناحية ثانية، فمن حيث الاتساع فيندرج تحت مؤسسات المجتمع المدني كل أنواع النشاط الاجتماعي الموجه لصالح أفراد المجتمع.

ولا شك أن مثل هذا الفهم للمؤسسات الاجتماعية يجعله مفهومًا متشعبًا يصعب فيه التحديد الدقيق للمعنى المقصود.

فمفهوم مؤسسات المجتمع المدني من حيث التطور التاريخي استخدم في الحضارات القديمة: الفرعونية، والإغريقية، والرومانية، باعتباره مرادفًا لتقديم الصدقة والإحسان للفئات المحرومة، وقد يكون هذا التعريف صالحًا لمراحل تاريخية سادها الفقر والحرمان، إلا أنه لا يساير المظاهر المتعددة لأنشطة مؤسسات المجتمع المدني المعاصر.

ونخلص من جملة التعريفات السابقة إلى تحديد مفهوم مؤسسات المجتمع المدني طبقًا لمجموعة العناصر والخصائص الآتية:

- أن مؤسسات المجتمع المدني هي وحدات أو بناءات اجتماعية.
- أنها أنماط للتفاعل، حيث إن جوهرها هو التفاعل الاجتماعي.
- أنها مقصودة ومخططة.

- أنها هادفة؛ أى تسعى لتحقيق أهداف معينة.

- يغلب على أنشطتها الطابع الخدمي، حيث تعنى في المقام الأول بتقديم مختلف المساعدات.

وعليه؛ فإن مؤسسات المجتمع المدني هي نتاج مجتمعي، بمعنى أن نتاجها أصلاً هو استجابة لحاجة أو تحقيق هدف في المجتمع، وبالتالي نشاطها هو السعى لتحقيق أهداف المجتمع.

فالمنظمة إذًا لا تقوم لمجرد الوجود ذاته، وإنما كأداة لأفراد المجتمع في تحقيق هدف مطلوب يهم المجتمع.

ولقد أصبحت مؤسسات المجتمع المدني تغطي معظم مناشط الحياة الإنسانية، وأخذت كل منها تختص بإشباع ومواجهة حاجة معينة أو أكثر من حاجات الإنسان، سواء كان ذلك نيابة عن الأسرة، أو بجانب ما تقوم به الأسرة من وظائف وأعمال في هذا الشأن، فأصبحت المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية تقوم بوظائفها في التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي، كما أن المؤسسات الاقتصادية المتنوعة، من صناعية، وزراعية، وتجارية، أصبحت تغطي كافة جوانب الحياة الاقتصادية الحديثة للإنسان، بالإضافة إلى غير ذلك من المؤسسات التي تعنى بحاجات المجتمع والأفراد، كالدفاع المدني، والأمن الداخلى، والعدالة، وغير ذلك من المؤسسات المختلفة.

والجدير بالذكر أن هناك أسبابًا اجتماعية لوجود تلك المؤسسات، والتي تؤثر بدورها في بناء شخصية الإنسان باعتباره كائنًا اجتماعيًا وهو دائمًا في حاجة إلى علاقات مع أشخاص آخرين؛ لأنه يحتاج إلى الإشباعات الاجتماعية التي تحققها المؤسسات الاجتماعية التي يوجدها، يحتاج أيضًا لأسباب مادية غير شخصية، فهو يستطيع تنمية قدراته ويستطيع تحديد الوقت اللازم لتحقيق هدف ما عن طريق مؤسسة ما، والاستفادة من المعلومات المكتسبة للتقدم على ضوء خطى من سبقوه، خاصة أنه بدون مؤسسات المجتمع المدني يكون من الضروري لكل إنسان في كل عصر تعلم كل شيء بنفسه منذ البداية.

ومن المعروف أن مؤسسات المجتمع المدني تستمد مادتها من المجتمع الذي توجد فيه، إذ إنها رهينة المجتمع بكل ما فيه ومن فيه من عوامل ومؤثرات وقوى وأفراد، وأنها تستمر مع الإنسان منذ أن يولد وحتى يموت، لذلك فقد كان من أهم وظائفها إعداد الإنسان للحياة، والعمل على تحقيق تفاعله وتكيفه المطلوب مع مجتمعه الذي يعيش فيه، فيؤثر فيه ويتأثر به بما لديه من معطيات تسهم في بناء وبلورة الشخصية الوطنية التي يكتسبها من مؤسسات المجتمع المدني.

كما تعمل تلك المؤسسات على تحقيق انسجامه المطلوب مع ما يحيط به من كائنات ومكونات، وذلك من خلال توليها مهمة تربية الإنسان، وتكيفه

مع مجتمعه، وتنمية وعيه الإيجابي ، وإعداده للحياة فيها، وتعد هذه المؤسسات الاجتماعية بمثابة الأوساط أو التنظيمات التي تسعى المجتمعات لإيجادها تبعًا لظروف المكان والزمان، حتى تنقل من خلالها ثقافاتها، وتطور حضاراتها، وتحقق أهدافها وغاياتها التربوية.

ومعنى هذا أن تربية الإنسان ونمو شخصيته لا يمكن أن تتم إلا من خلال بعض مؤسسات المجتمع المدني المختلفة، فقد عرف المجتمع المسلم عبر تاريخه الطويل عددًا من هذه المؤسسات الاجتماعية، التي كانت نتاجًا طبيعيًّا للعديد من المطالب والتحديات والتغيرات الحضارية التي طرأت بين حين وآخر على العالم الإسلامي، بل إن كل مؤسسة من تلك المؤسسات التي عرفت في الإسلام، إنما نشأت استجابة لحاجة اجتماعية محددة، وظروف اجتماعية معينة.

وفي العصر الحديث تشير البحوث والدراسات الأنثروبولوجية[1] والسوسيولوجية[2]، في إطار النظام الأسري، إلى أن الأسرة البشرية ظلت منذ أقدم العصور ولقرون طويلة تمارس كافة الوظائف الاجتماعية والاقتصادية المتعارف عليها حاليًا، وتتفق معظم هذه البحوث والدراسات

---

(١) الأنثروبولوجية: هو علم الإنسان أو المعرفة المنظمة عن الإنسان في جميع الجوانب الاجتماعية والثقافية.

(٢) السوسيولوجية: تعنى علم الأحياء الاجتماعي، وهو علم يبحث في الأصول الوراثية والطبيعية للسلوك الإنسانى.

على أن استمرار الحياة الإنسانية وبقاء المجتمعات البشرية إنما كان نتيجة لقيام الأسرة البشرية بمجموعة من الوظائف الأساسية، والتي من أهمها[1] ما يلي:

أولاً: وظيفة الإنجاب وحفظ النوع، وتتمثل في الزواج والتناسل، وما يحيط بهما من طقوس وعادات وتقاليد وقيم.

ثانيًا: وظائف التنشئة والضبط الاجتماعي، وتتمثل في عمليات التربية، والتطبيع الاجتماعي، ومراقبة السلوك، في ظل الأنماط والمعايير الأخلاقية السائدة في المجتمع.

كما روعي في مؤسسات المجتمع المدني أن تكون مشتملة على وحدات اجتماعية خدمية، يتم بناؤها بشكل مقصود؛ لتحقيق أهداف محددة، يعجز الجهد الفردي عن تحقيقها، ولتحقيق تلك الأهداف يتم إنشاء بناء محدد رسمي، يتم تدوين قواعده ولوائحه، وتقسيم العمل بين أعضائه، وتوزيع القوة والسلطة بينهم بطريقة تضمن التحكم في الأنشطة التي تتم من خلاله، والتي تتبلور وتبنى الشخصية على أساسها.

وفي هذا السياق يمكن تحديد ارتباطها ببناء الشخصية، حيث إنها مجموعة القوانين والبرامج والخدمات التي تستهدف مقابلة الاحتياجات، التي تعتبر أساسية للأفراد، وضرورية لحياة المجتمع.

---

(١) محمد شريف وآخرون: الأسرة والطفولة في محيط الخدمة الاجتماعية، القاهرة، سنة ١٩٧٦م

فهي تلك الجهود والخدمات والبرامج المنظمة، الحكومية والأهلية، الضرورية للنمو والتفاعل الإيجابي معًا في نطاق النظم الاجتماعية القائمة؛ لتحقيق أقصى تكيف ممكن.

وجدير بالذكر أن مؤسسات المجتمع المدني قد أنشئت خصيصًا لإشباع حاجات معينة، والمساهمة في إحداث التغير المقصود لصالح المجتمعات، من خلال ترابط واتصال أفراد كثيرين بطريقة تسلسلية انتظامية.

وتهدف مؤسسات المجتمع المدني من خلال أنشطتها المنظمة إلى تحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، والصحية، والمكونات الشخصية للإنسان أو لكل المواطنين أو لجزء منهم، فخدمات الرعاية الاجتماعية التي تقدمها تلك المؤسسات هي للحاجات الإنسانية، وهي تتضمن الرعاية والمحافظة على الإنسان، والعلاج والوقاية، وهي خدمات تنظم استجابة لتعقيدات المجتمع الحديثة.

وتعد المؤسسات الاجتماعية نتاجًا مجتمعيًّا، بمعنى أن نتاجها أصلاً هو استجابة لحاجة أو تحقيق هدف معين في المجتمع، وبالتالي نشاطها جزء من قطاع يضم قطاعات أخرى من نوعية خاصة تعمل في أنشطة مترابطة، وهذا القطاع بدوره هو جزء من المجتمع الكلي، فالمؤسسة الاجتماعية إذن لا تقوم لمجرد الوجود ذاته، وإنما تنشأ كأداة للمجتمع في تحقيق هدف مطلوب يهم المجتمع.

وفي الوقت الذي تهدف فيه مؤسسات المجتمع المدني إلى مساعدة أفراد المجتمع، فهي أيضًا تتجه لتقديم خدمات اجتماعية منظمة وموجهة لهم، من خلال أساليب علمية مقننة للتدخل، من شأنها إحداث تعديلات في البيئة الاجتماعية؛ لتحقيق التوافق الإيجابي ، بغرض الوصول إلى مستوى من الأداء للوظائف الاجتماعية في المجتمع، هذا من ناحية، وإلى دعم وتحسين القدرات الشخصية والارتقاء بمكونات وبناء الشخصية من ناحية أخرى.

ولما كانت حياة الإنسان لا تسير على وتيرة واحدة، وإنما يواجه خلالها بمواقف متغيرة؛ كانت حتمية إنشاء مؤسسات المجتمع المدني ملازمة لعنصر الضرورة، ضرورة بناء شخصية الفرد الوطنية، بالإضافة إلى إشباع حاجاته المتعددة.

* * *

دور الإعلام في تعزيز ثقافة الحوار المجتمعي ودعم الانتماء الوطني *

شهد القرن الجديد تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية حادة وغير مسبوقة، إلا أن هذه التحولات لم تؤد إلى تغير ملموس في حياة وواقع العديد من دول العالم وشعوبه، ولاسيما في مجال الإصلاح الاجتماعي على وجه الخصوص.

والواقع أن عمليات التحول الاجتماعي والاقتصادي التي تشهدها معظم المجتمعات التي تتجه إلى اقتصاد السوق ، وما يترتب عليه من تداعيات اجتماعية ، لم تؤت ثمارها المتوقعة، بل إن ما يواكب تلك العمليات من إصلاح اجتماعي يتباطأ بشدة عن الإصلاح السياسي، ويعوق حركته.

ولقد علل كثير من الخبراء هذه الحالة بغياب الحوار الاجتماعي بين مختلف القوى الفاعلة في المجتمع، مما ينعكس بالسلب على قدرة الأطراف والقوى المجتمعية على المشاركة في عمليات التنمية لتحقيق الأهداف المشتركة.

وفي ظل ما حققته ثورة الاتصال وتكنولوجيا المعلومات من طفرة واسعة لوسائل الإعلام ، فقد أصبحت هذه الوسائل واحدة من أهم أدوات

---

* كتب هذا البحث: الأستاذ الدكتور/ سامي محمد ربيع الشريف - عميد كلية الإعلام بالجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات - مصر.

الحوار الاجتماعي، وأوسعها، وربما أكثرها تأثيرًا.

ومن ثم فقد تزايد دور الإعلام في تأصيل قيم الحوار والتواصل المجتمعي، وإحداث تغيير حقيقي في مفاهيم المجتمع بقبول الآخر، واحترام التعددية، إلى جانب ما تقدمه تلك الوسائل من المعلومات التي هي بمثابة الوقود الضروري لإنجاح أى حوار.

ومن هنا تأتي هذه الورقة التي تناقش دور الإعلام وعلاقته بإثراء الحوار الاجتماعي، وتعزيز الانتماء الوطني، في إطار منظومة أوسع تشارك فيها هيئات ومؤسسات مجتمعية أخرى.

مفهوم الحوار الاجتماعي وبداياته :

يعد الحوار مفهومًا قديمًا يرجعه البعض إلى ما قبل عصر فلاسفة اليونان، وعلى رأسهم سقراط، وتلميذه أفلاطون، ومن بعده أرسطو، فضلاً عن بعض الفلاسفة السوفسطائيين الذين قدموا أمثلة رائعة للحوار مع الآخر، ومقاومته بالحجج والبراهين بغرض توليد المزيد من المعاني، وإظهار تناقض الآخر، وطرح مقدمات ومسلمات، واستخلاص نتائج تفند آراءه.

ولقد ارتبط الحوار بالفلسفة ارتباطًا وثيقًا منذ نشأة الفلسفة، ويكتسب الحوار الفلسفي معناه من تطور الفلسفة ومعناها، فكلمة الفلسفة في اليونانية "حب الحكمة"، كما استعملت الكلمة في التعبير عن البحث عن الحقائق أيًّا كان نوعها.

ويمتاز الحوار الفلسفي بميزتين أساسيتين:

١- الدقة في الحوار والبحث:

فهو لا ينتقل من خطوة إلى أخرى إلا بعد التثبت من الخطوة الأولى، والتأكد من صحتها، ومن أجل هذا وُضع علم المنطق وقُصد به ضبط الفكر، وامتحان الأدلة والبراهين؛ لتعرف صحيحها من فاسدها.

٢- الشك قبل اليقين:

فالأصل هو ألا نصدق شيئًا لأن الناس أو بعضهم صدق به، ولا ننكر شيئًا لأن الناس أو بعضهم أنكره، وإنما يريد الحوار الفلسفي ألا نحكم حكمًا إلا إذا أيده الدليل وقام عليه البرهان.

وقد جعل الله (عز وجل) الحوار مرتكزًا أساسيًّا في شرح وفهم كل معاملاتنا الحياتية، وكانت تلك رسالة موجهة للعقل البشري ليتجاوز غربة الزمان وغربة المكان، فالحوار هو وسيلة الهداية والفهم وتكوين "القناعة"، لذلك دعانا الله (عز وجل) إلى ضرورة التعامل بالحوار حتى مع من يخالفنا في العقيدة فضلاً عن الرأي، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1].

ولقد فرق الإسلام في الحوار بين الجدل المحمود، والجدل المذموم، فالجدل المحمود هو ما قُصد إلى إظهار الحق، واستخدم الصدق دليلاً عليه،

---

(١) العنكبوت: ٤٦.

يقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١)، أما الجدل المذموم فهو الحوار الذي يقصد به التعنت، والمراء، والدفاع عن الباطل، وركوب الهوى، يقول القرآن الكريم في إشارة واضحة إلى ذلك: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (٢)، ويشير في موضع آخر إلى الجدل المذموم، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٣).

ولقد أسهم علماء المسلمين العظام بفنون الحوار، وأطلق البعض على فنون المشاركة في الحوار، والقدرة على الإقناع، مصطلح " المحاجة "Argumentation ، وعرفوها بأنها : قدرة الفرد على تفنيد ودحض حجج الطرف الآخر بالأدلة والبراهين الاستدلالية والواقعية ، وحثه على التخلي عنها، والدفاع – في الوقت نفسه – عن آرائه، وتقديم حجج لإقناع الطرف الآخر بها، وذلك حين يتحاجون حول قضية خلافية.

وتعد المحاجة وسيلة للتعلم واكتساب المعارف ، فالفرد – من خلال

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) النساء: ١٠٩.

(٣) الشورى: ١٦.

المحاجة – يتعلم من الطرف الآخر معلومات جديدة حول القضايا المطروحة، ويعرف المزيد من الاعتراضات على رأيه أو وجهة نظره، ويتعلم كيف يكوّن حججًا جديدة باستخدام المعلومات المتاحة التي تقدمها الأطراف الأخرى.

ومن هنا فإن الحوار ضرورة وغاية في حد ذاته، يسعى الجميع لتفعيله تحاشيًا لصور مختلفة من العنف والصراع.

الحوار .. والصراع على الفضاء الاجتماعي:

يمكننا تعريف الفضاء الاجتماعي بأنه: الفضاء الذي تتشكل فيه العلاقات الاجتماعية التي تقرب بين أفراد المجتمع، مهما اختلفت هوياتهم وتصنيفاتهم وخصائصهم الشخصية والمهنية، ومهما تفاوتت مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية.

فالناس يلتقون في الأسرة بوصفها وعاءً اجتماعيًّا تربطهم داخله روابط القرابة، وتتشعب علاقاتهم الأسرية الأخرى؛ لتكون إطارًا عامًا أوسع لنظام قرابة يطلق عليه العائلة أو القبيلة.

وترتبط الجماعات التي تعيش في مكان واحد بهوية إقليمية معينة، تتأسس على علاقات تاريخية، وسمات ثقافية، تحدد مفاهيم المواطنة داخل المجتمع الواحد، وفي ظل الانتماء لوطن واحد تذوب كل العلاقات الاجتماعية الأخرى؛ إذ ينخرط الناس فيه تحت لواء وطن واحد، يحملون

هويته، ويبذلون الغالي والرخيص دفاعًا عن ترابه وحدوده.

ولقد ظهرت في العصر الحديث العديد من الروابط والتجمعات الأخرى التي تجمع فئات معينة تحت رايتها، كالنقابات، والأحزاب، والمنظمات الأهلية، وروابط العمل الاجتماعية والرياضية وغيرها من صور التجمعات الإنسانية التي – على الرغم من قوة تأثيرها – ينبغي ألا تطغى على مفهوم الوطن الذي هو أسمى مظاهر الانتماء والولاء.

وفي إطار محاولات الجميع للسيطرة على الفضاء الاجتماعي وبسط نفوذه وتأكيد سطوته، سواء على مستوى الدولة الواحدة، أو على المستوى الإقليمى بين عدد من الدول، أو على المستوى الدولي الذي تتصارع فيه القوى العظمى- يأتى الحوار ليعطي للاختلاف – الذي هو سنة كونية وطبيعة بشرية – بعدًا إنسانيًّا يضعه في شكله الطبيعي، ولا يسمح له بالتحول إلى طاقة تدميرية ، بل إن "الحوار" يقلل من مستوى وحدة الاختلاف، وربما يرفع من مستوى إيجابياته وحسناته، فيكون الاختلاف هنا رحمة وخيرًا، ودافعًا للإصلاح والمراجعة المستمرة.

ومن هنا يؤكد المهتمون بأدبيات التربية أن الحوار من أهم أدوات التواصل الفكري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي التي تتطلبها الحياة المعاصرة، لما له من أثر في تنمية قدرة الأفراد على التفكير المشترك والتحليل والاستدلال، كما أن الحوار من أهم الأنشطة التي تحرر الإنسان من

الانعزالية والانغلاق، وتفتح له قنوات التواصل، التي يكتسب من خلالها المزيد من المعرفة. كما أنه طريقة التفكير الجماعي والنقد الفكري الذي يؤدي إلى تجدد الأفكار، والبعد عن الجمود، ويظل الحوار وسيلة التآلف والتعاون والوفاق ، بدلاً من سوء الفهم والتقوقع والتعسف.

الحوار الاجتماعي .. مطلب ديمقراطي:

تعددت المفاهيم والتعريفات التي كتبت عن الحوار الاجتماعي، فقد اعتبره البعض مدخلاً تنمويًّا يسهم في تفهم الناس لمجتمعاتهم بأسلوب إجرائي، يعتمد على التعلم الذاتي والتشاور من خلال دعوة أطراف متنوعة من المجتمع للحوار المباشر حول موضوعات ذات أولوية بالنسبة لهم.

كما يعرف الحوار الاجتماعي بأنه: "جميع أشكال التفاوض والتشاور بين الأطراف المختلفة، الذين تتوفر لديهم الإرادة السياسية الصريحة والالتزام الكامل بحسن النوايا".

ويعرف الحوار الاجتماعي بأنه: أية مفاوضة أو مشاورة أو أي نوع من التفاعل داخل المجتمع، تضطلع به جميع الفئات أو بعض منها، من أجل صياغة توصيات، أو اتخاذ قرارات تحقق مصلحة المجتمع المعني.

وفي ضوء ما سبق فإن الحوار الاجتماعي يعني بتشكيل آليات مستمرة للتواصل، تضمن مشاركة فاعلة من مختلف الأطراف في عملية صنع القرار بصورة دائمة.

ولا شك أن إرساء الحوار الاجتماعي يعتبر الوسيلة الأمثل من أجل

تحسين المناخ الاجتماعي، مما ينعكس بالإيجاب على تعزيز تنافسية المؤسسات ودعم الاقتصاد الوطني.

ولما كانت الحقيقة الثابتة ليست ملكًا لأحد أيًّا كانت مكانته أو قدراته، ولما كان ما يجمع الناس ويقربهم أكثر بكثير مما يفرقهم ويباعد بينهم، فإن الحوار هو السبيل الأهم، وربما الوحيد لتحقيق الانسجام المجتمعي الذي يؤدي الى استقرار المجتمعات البشرية واستمرار تقدمها.

ويستهدف " الحوار الاجتماعي" تحقيق العديد من الغايات ، من أهمها:

- إتاحة الفرص أمام القوى الاجتماعية المختلفة للاشتراك في حوار وتشاور حول القضايا المطروحة ذات الأولوية.

- التعاون البناء في مجال تحديد احتياجات واهتمامات وأولويات المجتمع.

- توسيع نطاق الفرص المتساوية ، والمتاحة أمام القاعدة الشعبية؛ للتعبير عن نفسها.

- إيجاد قنوات الاتصال ، والنفاذ إلى قواعد عامة للتعامل بين أطراف المجتمع المختلفة ، وتوجيه الاستثمارات وتوزيع الفرص؛ لأجل مصلحة المجتمع.

- تفعيل أدوار القوى المختلفة في المجتمع؛ مما يؤدى إلى التعرف على

ما فيه من نقاط القوة، ونقاط الضعف، وإيجاد الحلول المناسبة لمشكلات المجتمع.

- بلورة أمثلة حية للتعاون والتشاور البناء لدعم جهود الدولة في تحقيق عمليات التنمية والإصلاح.

- السعي لتوفير دعم ومساندة فاعلة من جانب وسائل الإعلام.

أسس الحوار الاجتماعي وشروطه:

من أجل تحقيق حوار اجتماعي فعال، يجب التعرف على الأسس والشروط الواجب توافرها، وأهمها:

١- وجود الأطراف الرئيسة في الحوار: فلا حوار دون أطراف لديها رؤى ، ووجهات نظر، ومواقف محددة، تجاه القضايا المطروحة للحوار.

٢- استقلال الأطراف الرئيسة في الحوار: يتطلب نجاح الحوار أن يكون أطرافه مستقلين استقلالاً كاملا ، حتى يمكنهم اتخاذ القرارات دون الرجوع إلى جهات ، أو قوى مرجعية ، ربما تعطل سير الحوار.

٣- قوة الشركاء الاجتماعيين: يجب أن تتمتع الأطراف الرئيسة في الحوار بالقوة والثبات؛ لتكون مؤهلة لإكمال حوار جاد وفاعل.

٤- وجود مصالح مشتركة: لا يمكن نجاح أى حوار اجتماعي

ما لم يستشعر أطرافه بوجود مصلحة مشتركة مباشرة سوف يحققونها من هذا الحوار، فوجود المصالح المشتركة يدفع جميع الأطراف لإنجاحة حفاظًا على تلك المصالح.

٥- توفر المناخ الديمقراطي: يتطلب الحوار الاجتماعي وجود مناخ ديمقراطي، يكفل توفير حقوق متساوية، ويحترم الحريات العامة والخاصة.

٦- وجود مظلة تشريعية واضحة: حيث تعتبر التشريعات الضامنة لتنظيم الحوار الاجتماعي وتحديد ضوابطة، شرطًا أساسيًّا من شروط نجاحه، سواء كانت هذه التشريعات متعلقة بعمل كل طرف اجتماعي على حدة، أو متعلقة بتنظيم عملية الحوار، وتحديد أولوياته، وآلياته، وكيفية إدارته.

٧- اقتناع الأطراف الرئيسة بأهمية الحوار: يجب أن تتوفر قناعة كاملة من جانب مختلف أطراف الحوار بأهميته وقيمته ، إلى جانب استعدادهم لتحمل تبعاته ، وتنفيذ ما سوف يسفر عنه من استحقاقات.

٨- توفير التدريب اللازم على مهارات الحوار: يتطلب إجراء الحوار مهارات خاصة ، بعضها شخصية تتعلق بشخصية المحاور وقدراته الذاتية ، والبعض الآخر مهارات يمكن اكتسابها بالتعلم

والتدريب المستمر.

٩- حسن الظن بالآخر وقبوله: يتوقف نجاح الحوار الاجتماعي على مدى حسن نوايا أطرافه، ومدى قبولهم للاختلاف مع الآخر، وعادة ما يسفر الحوار عن مكسب وخسارة لدى كل طرف، وهو ما يجب أن تكون جميع الأطراف على استعداد لقبوله.

١٠- الاعتراف والاحترام المتبادلين بين أطراف الحوار: يجب أن يشعر كل طرف في الحوار بالاحترام والتقدير للأطراف الأخرى، حتى نضع أسس نجاح الحوار.

الإعلام .. وثقافة الحوار .. وتعزيز الانتماء :

ليس الغرض من الحوار الاجتماعي أن يكون مناسبة عارضة، بل إنه يجب أن يكون أسلوب حياة، ومنهج معاملة، ولا يتوفر ذلك إلا بإتاحة الأجواء المناسبة والمؤهله لذلك، فالحوار الاجتماعي آلية لا توجد من فراغ، بل إنه مرهون بتوفر عدد من العوامل الموضوعية المرتبطة بالبعد الإعلامي، فوسائل الإعلام – في ظل ما يشهده العالم من تطورات تكنولوجية غير مسبوقة – أصبحت أحد أهم وسائل إمداد المواطنين بالمعلومات، كما أنها واحدة من أهم وسائل إحداث التغيير المجتمعي.

ولقد حققت ثورة الاتصال وتكنولوجيا المعلومات طفرة واسعة لوسائل الإعلام، لتكون واحدة من أكبر وأرقى أدوات الحوار الاجتماعي،

فقد امتلكت هذه الوسائل في السنوات الأخيرة قدرات واسعة للوصول إلى مختلف قطاعات المجتمع وفئاته، ووفرت سبلاً للتواصل الاجتماعي لم تكن مسبوقة، وليس أدل على ذلك من شبكة الإنترنت التي وفرت مجالاً واسعًا للتواصل الاجتماعي اللامحدود، ويمكننا القول إن شبكة الإنترنت هي عالم بلا حدود ولا قيود، يتيح فرصًا لا مثيل لها للحوار الاجتماعي في أفق غير محدود.

كما تُعد وسائل الإعلام نماذج مثالية للحوار الاجتماعي، من خلال ما تقدمه من برامج حوارية ومساجلات علمية، يتم فيها عرض الآراء ووجهات النظر المختلفة والمتباينة بأسلوب راق؛ يدفع قطاعات المجتمع المختلفة للاقتداء به وتبنيه.

وعلى الرغم من تعدد المؤسسات الاجتماعية المنوط بها القيام بدور فاعل في غرس مشاعر وأحاسيس الانتماء للوطن لدى الناشئة والشباب، ما بين الأسرة باعتبارها المؤسسة الاجتماعية الأولى في حياة الفرد، والمؤسسات التعليمية، والمؤسسات الدينية، والمؤسسات الثقافية، والأحزاب والقوى السياسية، فإن وسائل الإعلام المختلفة تؤدى دورًا محوريًّا وأساسيًّا في مجال دعم قيم الانتماء والولاء للوطن، لما تملكه من قوة تأثير في حياة الأفراد، وبخاصة فئة الشباب التي ترتبط بتلك الوسائل بصورة كبيرة، وتعتمد عليها، باعتبارها مصادر أساسية لاستقاء الأخبار والمعلومات، وتشكيل

الآراء والاتجاهات، بشأن القضايا المطروحة.

وتتضاعف أهمية هذا الدور الذي يمكن أن تضطلع به وسائل الإعلام التقليدية والجديدة في هذا الوقت بالذات؛ حيث يشهد عالمنا ظهور مفاهيم جديدة كالعولمة، والكوكبة، والتي تستهدف أول ما تستهدف تذويب الانتماءات الوطنية وطمس هويتها.

فالعولمة التي تنادي بها وسائل الإعلام ليل نهار هي عالم دون دولة، دون أمة، دون وطن، عالم يقفز على الدولة والأمة والوطن، ويريد رفع الحواجز والحدود أمام الشبكات والمؤسسات متعددة الجنسيات، ومن ثم إذابة الدولة الوطنية، وإضعاف سلطتها، وتقزيم أدوارها.

ويؤدي سقوط الدولة وإضعاف هيبتها إلى استيقاظ أطر الانتماء السابقة على الدولة، مثل الانتماء إلى قبيلة، أو طائفة، أو جماعة دينية مما يؤدي حتمًا إلى التعصب المذهبي، والتقاتل، والتناحر، وما يتبع ذلك من تمزيق للهوية الوطنية.

ومن هنا تظهر أهمية قيام الإعلام الوطني بدوره في مجال دعم انتماء فئة الشباب على وجه الخصوص للوطن، بحيث يكون هذا الإعلام بمثابة حائط صد لكافة محاولات وسائل الإعلام المعادية، التي تعمل على زعزعة أمن واستقرار الوطن، وإضعاف بنيته الداخلية، من خلال تقديم كل ما من شأنه مناهضة مشاعر الانتماء للوطن.

ويمكننا الإشارة إلى بعض أدوار الإعلام الوطني؛ لدعم الانتماء للوطن:

- التركيز على دعم مفهوم المواطنة.

- إبراز أهمية التضحية والفداء من أجل الوطن، وفي تاريخنا العربي والإسلامي العديد من النماذج المشرقة التي قدمت أرواحها دفاعًا عن أوطانها.

- تقديم النماذج الإيجابية للشخصيات الوطنية التي قدمت المثل والقدوة، من رموز العمل الوطني، من علماء وقادة ومفكرين.

- التعريف الدقيق بقيم الممارسة السياسية المنضبطة، وتشجيع الشباب على ممارسة دوره في العمل الواعي والداعم للوطن.

- التعريف بالآليات التي يمكن من خلالها للشباب تفعيل شعورهم بالانتماء للوطن.

- التأكيد على أن الانتماء للوطن ليس مجرد شعارات أو هتافات أو أغنيات حماسية ، بل إن الانتماء الحقيقي هو الذي يدفع للعمل بجد واجتهاد؛ لرفعة شأن الوطن ومكانته.

- دعم الارتباط بلغة الوطن والاعتزاز بها، فلحمة اللسان هي أقرب وأقوى اللحم الرابطة بين البشر.

- التأكيد على أن الانتماء للوطن لا يتعارض بأي صورة مع الانتماء للدين، فالتكامل بين الهوية الدينية والهوية الوطنية للفرد والارتباط بينهما، تكامل وارتباط وثيق، لا يمكن التشكيك فيه بأي حال من الأحوال.

- التأكيد على أن الانتماء للوطن يجب أن يكون قيمة راسخة في أعماق الفرد ، بصرف النظر عن انتماءاته الأيديولوجية الأخرى.

- تعزيز قيمة الوحدة الوطنية لدى الشباب ، والتأكيد على أنها السبيل الأوحد لرفعة شأن الوطن، ودعم أمنه واستقراره.

- التأكيد على احترام الآخر المختلف عقديًّا أو فكريًّا.. إلخ، والوقوف عند حد الاختلاف الحميد الذي ينتهي بانتهاء الحوار ثم العمل معًا من أجل هدف أسمى، وهو الإعلاء من قيمة الوطن.

- فتح مجال المشاركة لجميع المواطنين، والمؤسسات الأهلية، ومنظمات المجتمع المدني، وتشجعيهم من خلال خلق حوار أوسع بين الأطراف المعنية بالقضايا التي تهم الرأى العام.

ولا شك أن وسائل الإعلام الوطنية مطالبة بالقيام بدورها في مجال دعم الحوار المجتمعي، وتعزيز ثقافة الانتماء، وفيما يلي نقترح بعض الآليات في هذا المجال، ومن أهمها:

١- إعداد وتنفيذ حملات إعلامية عبر وسائل الإعلام المختلفة تعزز من قيم الولاء والانتماء للوطن، وتعزز ثقافة الحوار، على أن تُستخدم فيها أساليب فنية مبتكرة ، تتسم بالجاذبية والإبهار.

٢- أن تقدم وسائل الإعلام نفسها نماذج إيجابية لاحترام قيم الحوار، واحترام الرأي والرأي الآخر، وأن يقدم الإعلاميون لأنفسهم صورة إيجابية

لتعزيز الانتماء للوطن ، بوصفهم قدوة لقطاعات كبيرة من النشء والشباب.

٣- تسليط الأضواء على النماذج البطولية المشرفة التي دافعت عن أوطانها، وبذلت أرواحها ودماءها في سبيل رفعة الأوطان، والذود عن أراضيها.

٤- الاهتمام بالإنتاج الدرامي من الأفلام والمسلسلات التي تبرز تضحيات أبطال بارزين في مختلف الحقب التاريخية؛ لتكون أمثلة يحتذى بها.

٥- التدقيق في نشر أو إذاعة معلومات وأخبار تمس أمن الوطن واستقراره ، وأن يكون الإعلاميون حائط الصد أمام كل من يحاول بث الشائعات، والأخبار الكاذبة ، التي تكدر السلم العام ، وتنشر حالة الإحباط بين المواطنين.

٦- أن يلتزم الإعلاميون- عند مخاطبتهم للجمهور- بالدقة والموضوعية والفهم الصحيح لواقع الوطن ، وما يواجهه من تحديات داخلية وخارجية ، والبعد عن الأساليب الخارجة عن آداب المجتمع وقيمه وأعرافه.

٧- الحرص على تغطية كافة الأنشطة والفعاليات الداعمة لمفهوم الانتماء والمواطنة ، وحشد الجمهور للتعرف عليها والمشاركة فيها.

٨- دعوة المواطنين للمشاركة السياسية في كل ما يشهده الوطن من

فعاليات انتخابية ، من خلال تعريفهم بحقوقهم في الترشح والانتخاب.

٩- أن تؤدي وسائل الإعلام دورها السياسي في ظل غياب الأحزاب والقوى السياسية وتضاؤل حضورها الشعبي وضعف أدائها، بحيث تكون تلك الوسائل بديلاً عن الغياب الحزبي والسياسي في الشارع المصري.

١٠- ابتكار أساليب أكثر جاذبية وعصرية للاحتفال بالمناسبات الوطنية، بحيث لا تكون مراسم الاحتفال تقليدية ومكررة، أو تنم عن غياب كامل عن الواقع المعاصر، ومتطلبات الشباب.

١١- الاهتمام بتوقير الرموز الوطنية في مختلف المجالات، والحفاظ على صورتها ومكانتها لدى المواطنين.

١٢- الرد على كل ما تنشره أو تذيعه وسائل الإعلام المعادية مما يهدد أمن الوطن واستقراره ، وأن يكون ذلك من خلال تفنيد موضوعي لكل ما تروج له الآلة الإعلامية المعادية ضد وطننا.

١٣- احترام اللغة العربية، لغة القرآن، والحرص على استخدامها في كل ما تقدمه من مواد وبرامج ، وتعزيز مكانتها في نفوس المواطنين وعقولهم.

* * *

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــــــوع	الصفحة
١	مقدمة – أ.د/ محمد مختار جمعة ، وزير الأوقاف	٥
٢	توصيات المؤتمر العام التاسع والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية – يناير ٢٠١٩م.	١٤
٣	حفظ البلدان والأوطان من حقوق الإنسان ومقاصد الأديان . أ.د/ عبد الله مبروك النجار ، عضو مجمع البحوث الإسلامية.	١٩
٤	بناء الشخصية الوطنية في عالم متغير رؤية إسلامية . أ.د/ محمد الشحات الجندي – رئيس الجامعة المصـرية للثقافة الإسلامية بكازاخستان .	٥٩
٥	دور الأسرة في تعزيز الانتماء للوطن ، أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد – الأستاذ بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف .	٨٩
٦	الأسرة ودورها في بناء الشخصية ، أ.د/ سيف رجب قزامل – أستاذ متفرغ بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر – والعميد السابق للكلية .	١١٥

٧	التعليم وبناء الشخصية الوسطية الوطنية المنتجة القادرة على البناء والتنمية ، أ.د/ نبيل السمالوطي – العميد الأسبق لكلية الدراسات الإنسانية وأستاذ علم الاجتماع – جامعة الأزهر .	١٦١
٨	دور المعلم القدوة وأثره المباشر في بناء شخصية طلابه أ.د/ عزة محمد أبو الهدى – أستاذ علم الاجتماع –كلية الدراسات الإنسانية ـ جامعة الأزهر	١٨٩
٩	المؤسسات الوطنية ودورها في بناء الشخصية القوات المسلحة المصرية نموذجًا . لواء أركان حرب/ بهاء الدين على الحريشي – لواء دكتور / حسام الدين أنور على – مصر.	٢٣٢
١٠	دور القاضي الإداري في بناء الشخصية المصرية . المستشار الدكتور / محمد عبد الوهاب خفاجي نائب رئيس مجلس الدولة المصري .	٢٨٠
١١	دور المجتمع المدني ومؤسساته في بناء الشخصية الوطنية . أ.د/ حامد محمد أبو طالب– عضو مجمع البحوث الإسلامية .	٣٠٠

١٢	دور مؤسسات المجتمع المدني في بناء الشخصية الوطنية . أ.د/ عبد الله محمد المغازي- أستاذ القانون الدستوري .	٣١٦
١٣	دور الإعلام في تعزيز ثقافة الحوار المجتمعي ودعم الانتماء الوطني. أ.د/ سامي الشريف - عميد كلية الإعلام بالجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات .	٣٢٨
١٤	فهرس الموضوعات.	٣٤٥

❊ ❊ ❊

□

رقم الإيداع :